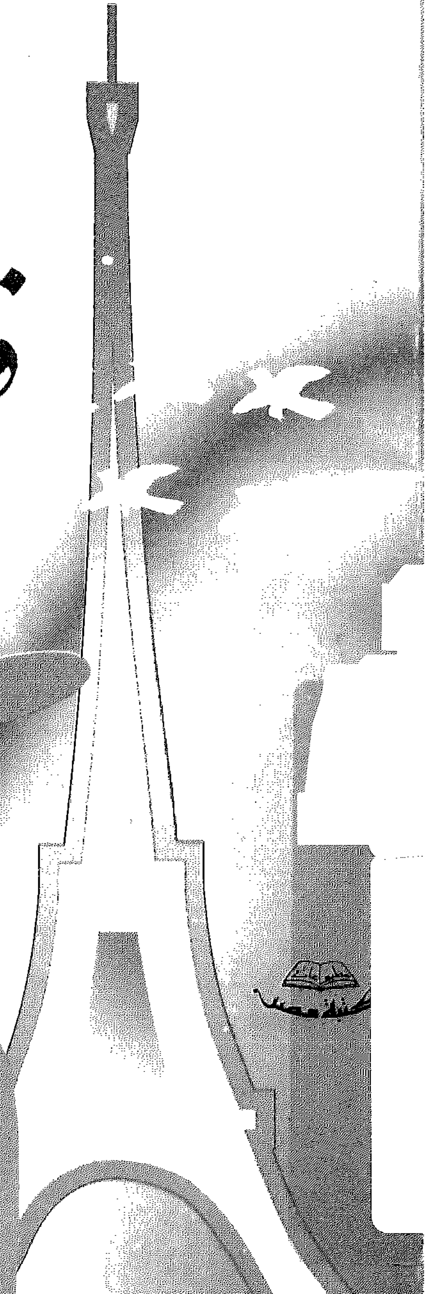
١٠٠ قصة

قصص فرنسية





محمد السباعي

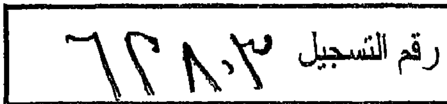
قِصَصٌ فَرَنسِيَّة

١٠٠ قصة

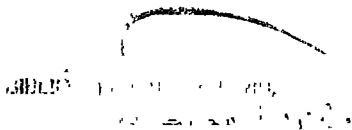
قِصَصٌ فرنسيّة

محمد السباعي





الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة



فكرة خطرة

تحابا قبل أن يتزوجا . وكان حبهما أطهر حب وأسماه .. فقد تلاقيا فى المصطاف على الساحل فوقع فى حبها من النظرة الأولى ، لحظة مر بها وهى فى ثوبها المهفهف الشفاف واقفة فى مطالع الضياء ، مرسلة ظلها على صفحة الأفق . فأحب فيها الجمال ، والخطوة المتزنة الساحرة ، والملاحة الرائعة الباهرة قد لفها الضياء السنى ، فى إطار من ذهب اختلط أصفره بأزرق الماء .. !

وأحبته هى لغزله الجرئ وصبابته المغرية ، وشبابه الناضر وغناه الظاهر ، ورقته المتناهية وفتنته الخفية ، الفعالة بالفؤاد ما يفعل السحر .

بل ليس عجيبا من مثلها أن تقع فى إسار الحب وهى فتاة تلهو على ساحل البحر ، التقت بفتى مثله فابتسم لها وابتسمت له ، وراح هو يسكب فى مسمعها كلاما حلوا غريبا لم يكن لها به من قبل عهد ، على مشرف البحر وتحت ضياء القمر ..

وما لبثا أن شعرا بعد اللقاءة الأولى بتوق متبادل إلى اللقاء ثانية ، ونما التوق فى فؤاديهما كلما تجدد لقاء بعد لقاء ، فإذا هما بعد حين لا يطيقان الصبر يوما واحدا على غياب ، ولا ينقطعان ليلة عن تواعد واصطحاب ، ثم إذا هما بعد هذه المرحلة يتفاهمان على زواج .. وإذا الزواج بعد فترة واقع !

وإذ ذاك هبط بهما الحب إلى الأرض !

لقد كانا منه قبل الزواج فى سكرة مستطيلة . لا يمتنعان عن المناداة بأحب الأسماء ، والمفاكهة بأعز الكنى وألفاظ التدليل ، وفتكات اللحظات وهجمات التقبيل .

ولكنهما لم يلبثا بعد الزواج أن شعرا رويدا بملل ، وإن لم يتكاشفا هذ الملل .. ! .. لقد كان الحب لا يزال قويا لم يضمحل ، ولكن كلا منهما كان قد

عرف صاحبه واختبره فلا جديد يعرف ، ولا غامض يقتضى أن يكشف ، ولا لهيب للحب من حرمان ، ولا صبابة ولا جوى ولا هيمان ، ولم يعد أحدهما يذوب كمدا فى الآخر ، أو يموت غراما ، أو ينتقى للتعبير عن الحب أحسن الكلام ، أو يؤكد مواثيقه بأفانين جديدة فى الغرام .

ولقد حاول كل منهما وهو لا يدرى أن يشعل الجذوة المنطفئة ، ويؤجج النار الخابية ، ويستثير من جديد العاطفة الكسلى المغفية ، فجعل الزوجان فى كل يوم يجربان وإن لم يتكاشفا حيلة طريفة ، ويتوسلان على إيقاظ الحب النائم بالمثيرات والمهيجات ، ويستعينان الخدع والحيل الغريبات ، هى بثوب جديد ، أو غلالة نمامة عما تحتها ، أو قميص شفاف على بدنها ، أو ترجيلة مستحدثة لضفائرها ، أو قبعة لطيفة تتجمل بها ، وهو بتجربة جديدة لقواه العصبية ، وتفتينة مبتكرة لجلسة غرامية ، ورياضة مخترعة لتقوية حواسه الجسدية .

وطفقا يحتالان مرة بالنزهات الليلية تحت القمر ، فى الحدائق الألفاف وخلال الشجر الباسق ، وفى بهرة السكون الرهيب ، وارتياد الأماكن الخلوية ، وانتجاع المعازل القصية ، ويجربان مرة أخرى الخروج فى الليالى الصائفة إلى الشاطئ المترامى تحت حجب الغمام ، وأستار السحاب ، وفى بعض الأحيان ينزعان إلى المراقص المثيرة كوامن الحواس ، أو إلى المسارح لمشاهدة التمثيل المكشوف ، أو إلى الكتب الحيوانية يقرآن النوادر المهيجة ، ويتأملان الصور العارية . ففى ذات صبح انثنت « هنريت » تقول لزوجها : ما رأيك في أني أريد أن تأخذني معك مرة إلى حانة شراب وحظ ، لأتعشى معك هناك وأسمر ؟

قال : ولم لا ؟ . بكل سرور يا عزيزتى .

قالت : على شرط أن يكون محلا مشهورا تطيب فيه الخلوة ، ويلذ الأنس .

ونظر إليها نظرة المندهش المستفسر ، وقد فطن إلى أنها تتصور شيئا لا تجرؤ على التعبير عنه .

واستأنفت هى القول فقالت : أنا أقصد .. محلا من تلك المحال ... أعنى بالصراحة مكانا من تلك الأمكنة التى يذهب إليها طلاب اللذات والأنس ... يعنى .. مكانا يغشاه الناس .. لـ ... للهو والمتعة

فابتسم .

قال : لقد فهمت ما تريدين تماما ... مفهوم .. مفهوم .. يعنى تريدين أن آخذك إلى محل أشد خلاعة وتهتكا و« بوهيمية » .

قالت : هو هذا الذى عنيت وإنما الذى أشترطه عليك هو أن يكون مكانا مفتخرا « هاى ليف » ، مكانا اعتدت أن تذهب إليه لتتمتع فيه بالعشاء ثم .. أنت عارف ما أعنى ... لأنى لا أستطيع أن أعجل عنه بالكلام .. أنت فاهم والسلام .

قال : ولكن لا حياء فى الزواج ، ينبغى أن تقولى ما فى خاطرك من غير خجل .. إذ لا يصح أن يكون بين أحدنا والآخر أسرار .

فتثنت وتمايلت وهى تقول : لا أستطيع ... !

قال « مافيش كلام من ده » .. ! يجب أن تقولى ..

فأجابت على استحياء وهى تئن وتدلل : أريد بالصراحة أن تأخذنى إلى ذلك المحل باعتبار أنى رفيقتك ، وأن يحسبنى أصحابك الذين اعتادوا لقاءك هناك من ... من ربات الدلال والخلاعة ، وأنت أيضا تتصور ذلك ساعة من الزمن على سبيل التجربة ، فإن هذا النوع من الخيال معدوم فى الزواج ... ها ترى قد صارحتك ما أريد ...أفهمت إذن ما أعنى ؟ كل ما هنالك أننا سنمثل فصلا لطيفا .. إننى خجلة من نفسى ، فيا لشناعة ما قلت ! إننى متأكدة أن وجهى أحمر الآن من الجزرة ، ألا تراه يبدو كذلك ؟ لا تنظر إلى وجهى لأننى أكاد أموت من فرط الخجل .. !

فضحك ملء فيه مسرورا متفكها وقال : اتفقنا والسلام ، فليكن موعدنا الليلة إذن . وسأختار لك محلا راقيا أنا فيه المعروف المشتهر ! ..

* * *

ووجدتهما الساعة السابعة من المساء يصعدان السلم إلى محل من المحال المعروفة فى حى الحظ والأنس ، وهو المبتسم المشرق الديباجة ، كالصياد الفرح بما اصطاده ، وهى المتهيبة المترددة قد أرخت خمارها ، وفى النفس منها فرح خفى

لا يقدر .

ومشى أحد الخدم فى الحال إلى صالون خصوصى « بريفيه » فاخر الرياش ، حوى متكأ وثير الوسائد .

وجاء رئيس الغلمان فقدم إليهما قائمة الطعام « المينو » .

فدفع « بول » بالقائمة إليها لتختار ما تشاء ، وهو يقول : ماذا نأخذ ؟

قالت : ما يعجبك ، فأنت بالأطعمة هنا عليم خبير ، فاطلب إذن لى ولك .

فطلب « بول » عشاء فاخرا وشمبانيا .

ونظر الخادم إلى السيدة خلسة ، ومضى ليجىء بالطلب وهو يحدث نفسه قائلا : حقا إن مسيو « بول » الليلة قد وقع على صيدة نادرة ... فلا عجب إذا طلب الشمبانيا .. لأنها والله تستحق وتستاهل . ما أملحها وما أفتنها لقطة غالية من غير كلام .. !

وجلسا متلاصقين يأكلان .

وكان الصالون مضاء بعشر شموع ، وكانت أنوارها تنعكس عن المرائى المعلقة فوق الجدران فتملأ الحجرة نورا وهاجا .

وراحت « هنريت » تعل من الشمانيا وتنهل ، لتسترد جأشها الذاهب ، وترقد حياءها لتوقظ جرأتها ، ولكنها لم تلبث أن شعرت بدوار بعد الكأسين الأولين . أما زوجها فقد هاجته الخلوة ، وأفعمت نفسه جذلا وشهوة ، فمضى يقبل يديها علا ونهلا ، وقد لمعت عيناه ببريق خاطف .

لقد أحست « هنريت » لأول وهلة باهتياج واضطراب وارتباك ، ولكنها شعرت بعد ذلك بفيض الحياة يتدفق من نواحى نفسها .

وفطن الخدم إلى ما هنالك فوضعوا صحاف الطعام على المائدة وانصرفوا مسرعين .

وفيما هما يأكلان إذ أحست « هنريت » بأن الخمر قد لعبت برأسها ، فانثنت تتكلم طويلا فى غير تهيب ولا حياء ، وقد تضرج خداها بأرجوان واشتد بريق عينيها .

قالت وهى تتثنى وتتمايل من ثمل : والآن « يا بول » قل لى كل شئ . !

ـ ماذا تريدين أن أقول لك يا غالية ؟

ـ أنت عارف فلا تتجاهل ... ألم تعدنى أنك مصارحى ... ألم تقل إننا لا ينبغى أن نتكاتم شيئا ، فنبئنى هل أحببت قبلى نساء كثيرات ؟ ؟

فارتبك حيال هذا السؤال قليلا ، ولم يدر أينبغى أن يخفى عنها وقائعه الماضية فى ميادين الهوى ، أم يصح إعلانها والتباهى بكثرتها ؟

واستطردت هى قائلة : أرجوك وألح أن تقول لى .. كم منهن أحببت ؟ ؟

ـ قلائل .

ـ كم يعنى ... بوجه التقريب ؟ ؟

ـ لا أعرف

ـ ألا تستطيع تقدير عددهن ؟

فارتبك مرة أخرى وقال : غير ممكن بالطبع .

قالت : إذن لابد أنك أحببت كثيرات لا قلائل كما تقول .

ـ بالشرف لا أعرف ، ففى بعض الأحيان لم يكن عددهن يزيد على أربع أو خمس بالكثير فى سنة من السنين ، وفى سنة أخرى قد يبلغ العشرين أو الثلاثين .

ـ يا سلام ! يعنى فى الجملة لا يقل العدد عن مائة .

ـ نعم ... تقريبا !

ـ يا عجبا ... أحسب ذلك فظيعا جدا .

ـ وما وجه الفظاعة فيه ؟

ـ لأن ... لأنه شئ واحد يتكرر ... نعم والله فظيع بل جد فظيع ، أكثر من مائة امرأة ، والحكاية واحدة فى كل مرة.

فدهش ولم يجد من حيلة لإخفاء دهشته ، غير أن يتخذ مظهر العجرفة التى يعمد إليها الرجال فى مثل هذه المواقف ، لإفهام النساء أنهن لا يعرفن من أمور الحياة قدر ما يعرفون

قال : لست أدرى ما وجه الفظاعة التى تصورتها فى ذلك ... هذا قول بعيد عن المنطق ، لأنه إذا كان الاستمتاع بمائة فظيعا ، فهو بواحدة أشد فظاعة .

قالت : كلا ، فإن الاقتصار على خليلة واحدة شيء ، والتمتع بمائة شئ آخر ، لإنك مع الواحدة تستطيع أن توجد رابطة حب صحيحة تقرب بينك وبينها ، على حين يعجزك أن تنشىء أية رابطة روحانية أو ذهنية بينك وبين مائة ، ولكن لا أدرى ما حقيقة أولئك النساء على كل حال .

قال : نساء تمام .. لامعاب عليهن .

ـ يستحيل أن يكن كذلك .

قال لها : ولكن ذلك هو الواقع .

فقالت : هذا شئ مؤلم يا « بول » .. أراك تريد إيلامى بحديثك هذا وأحسبنى لا أفهم طبائع الرجال ولن أفهمها ما حييت .

قال : هذا ما أراه ، ولكن إذا كان الأمر كذلك فلماذا تسألينني عن عدد النساء التى صاحبت ؟ !

ـ لأننى كنت أريد أن أعرف هل يتساوى الرجال فى هذا الشيء أم لا .

ـ يتساوون فى الأغلب الأعم .

ـ ولكن أى نساء كان أولئك ، بنات على سيدات أم ماذا ... وهل فيهن ممثلات وعاملات فى المتاجر ورقاصات .. ؟

ـ من كل صنف تقريبا .

ـ ولكن ألم تمل فى النهاية ؟ أم الحال واحدة لا جديد فيها ولا طريف ؟

ـ لا أقدر أن أقول إنه كان كذلك دائما .

فسكتت « هنريت » مليا وانثنت تطيل النظر إلى كأسها وهى رنوانة ملأى إلى حفافيها ، ثم مدت إليها يدها فحملتها إلى فمها واشتفت ما فيها اشتفافا ولم تلبث أن نشرت فجأة ذراعيها حول عنقه وهمست له فى أذنه قائلة :

ـ آه ! ما أشد غرامى بك يا حبيبى !

فألقى هو كذلك ذراعيه حول بدنها فى عناقة هائجة مستعرة ، وكان أحد

الخدم قد بدا عند الباب ، فلما رأى هذا المنظر أغلقه ومضى . وانقطع ورود الخدم بضع دقائق .

ولما عاد رئيسهم وهو يلوح مقطب الجبين فى أتم الرزانة ، حاملا الفاكهة والقهوة ، كانت هى ممسكة بكأس أخرى تقربها من شفتيها ، وترسل عينيها فى ذلك السائل الكهربائى الذى احتوته ، كأنما تشهد خلاله عالما غريبا كان مجهولا منها وغمغمت تقول ذاهلة شاردة : نعم إنه بلا ريب شىء مؤلم منفر للنفس مخجل فظيع ... ولكنه مع كل ذلك لا يخلو من لذة وسرور .. !

ورفعت إليه بصرها فرأته يبتسم لها ، فانزوت مستحيية ..

عبيد الهوى

انطلقت الباخرة بنا تمخر العباب إزاء ساحل أرض ممرعة ناضرة ، من بلاد المناطق الحارة ، حاملتنا على صدر أزرق الجمام صافى الأديم ، لم أشهد فى أسفارى أزرق منه صفحة ولا أصفى أديما ، وهى تجرى بنا على مشهد الشواطئ المزدهرة ، والضفاف الفياحة بأرق أنفاس العبير ، النفاحة بأذكى الشذى والأرج . وكان الهواء نديا بليلا ، وقد استلقيت تحت ستر المتكأ القائم على سطح الباخرة ، ناعما بحسن ذلك المشهد ، فى سكينة خاطر وصفاء بال ولطف مرقد .

وقيل لى إنك عند النزول إلى البر ، واجد مبيتا فى تلك الليلة بدار رجل من الفرنسيين واقعة بقرب الربوة المشرفة على الساحل ، فى وسط منبت بديع للبرتقال .

وقد سألت مخبرى عن شأن ذلك الرجل وأحواله ، فلم أصب فيهم إنسانا يعرفه ، ولا محدثا يخبرنى بجلية أمره ، فقد كان رجلا مخلدا إلى العزلة ، لا يعلم الناس من حقيقة حالة قليلا ولا كثيرا .

وكل ما تيسر لى أن أعرفه هو أنه قد نزل بذلك الموضع منذ عشرة أعوام ، فاشترى قطعة أرض فى تلك الناحية ، وتولى حرثها وزرعها بنفسه ، وهو الدءوب لا يفتر عن العمل ، المغرم بالدأب لا يكف عنه ، وقد استطاع بفضل مثابرته ومراهناته العجيبة التى لم يخطئه فيها الفوز ، ولم ينأ عنه الربح ، أن يجمع ثروة لا بأس بها .

وكانت الشمس تجنح للمغيب ساعة بلغت داره ،فإذا بى فى بيت رحيب الجنبات ، تتكنفه أشجار البرتقال ، ويطالعه البحر وضفافه . وفيما كنت أدنو من البيت رأيت رجلا كث اللحية قد وقف بوصيده ، فانحنيت له انحناءة التحية والسلام ، وسألته القرى فى ليلتى تلك ، فمد نحوى يده مصافحا وهو متهلل مبتسم ، قال أهلا بك سيدى ومرحبا ، تفضل فإن البيت بيتك ، وأنت فيه بين قومك وأهلك .

ودق الجرس للخادم لبريني الحجرة التى اختارها لمبيتى ، وانثنى نحوى يقول « وسيكون العشاء مجهزا بعد أن تستريح وتخلع ثيابك »

وكان عشاؤنا تحت سقيفة تشرف على البحر .

وأنشأنا نتحدث ، فرحت أثنى خيرا على حسن ذلك الموضع الغريب وجمال مشاهده ، وخصوبة أرضه ، وزينة جناته ومنابته . فتبسم وقال « هو كما وصفت يا سيدى ، موضع جميل فى الحق ، ولكن أحسبك يا سيدى لست تنكر أن أحب البلاد إلى المرء « البلد الذى ألفه » والموضع الذى أطال فيه مقاما ، وما الحب إلا للحبيب الأول .. »

قلت « أتجد وحشة إلى فرنسا ؟ »

قال « بل إلى باريس وحشتى »

قلت « وما الذى يمسكك عن المآب إليها ؟ »

قال « أود ذلك وأرجوه »

وطفقنا نتحدث عن باريس العظيمة وما فيها ، فلم ألبث أن عرفت من حديثه أنه رجل من أهل الطبقة الظاهرة فى المجتمع ، وأن أكثر من تحدث عنهم هم من معارفى و صحابتى .

قال « خبرنى بالله عليك من الذين يغشون فى هذه الأيام حانة « تورتوان » ؟

قلت « الذين اعتادوا غشيانها من قبل إلاقليلين بالطبع لم يعودوا غاشين ولا مختلفين »

وجلست أنظر إليه مليا وقد خطفت بخاطرى صورة من الصور الماضية ، وذكرى من الذكريات البعيدة النائية . يا عجبا ، إن هذا الوجه أعرفه ، ولكن ترى أين كان لقائى به ؟ ..ومتى كان عهدنا فيما مضى بلقاء .. بيد أنى لم أشأ أن أجهد الذاكرة ، ولم أجد فرصة للتذكر والتفكير . ولعمر الحق كيف يتاح للمرء أن يتذكر أو يتصور شيئا فى مجلس كذاك ، ورائحة أزهار البرتقال تفعم الهواء أرجا ، والشمس قد استحالت وردة كالدهان ، وهى تهبط من علاها مترامية فوق صفحة البحر ، حمراء متوهجة تسقط فى اليم مغرقة .

وشعرت بأن عيني مضيفي ترمقاني طويلا ، كأنما مضى يرى من خلال عيني ووجهي صورة بعيدة من صور باريس التي يحبها .

قال « ألا يزال « بونتل » هناك ؟ »

– بلى .

– أو قد تغير كثيرا ؟

– لا يكاد المرء يتبين عليه ذلك .

– وصاحبنا « ريدان » أهو إلى اليوم في باريس مقيم ؟

– نعم ، وقد اشتعل منه الرأس شيبا ، ولا أحسبك تعرفه إن رأيته .

– والنساء ، بالله حدثني عنهن . أفتعرف « سوزان فرنيه » ؟

– نعم ، وقد ترهلت اليوم وأعرض العشاق عنها .

– وا أسفي ، و« صوفي أستيير » كيف حالها ؟

– ماتت

– مسكينة .. وهل تعرف .. هل تعرف ...

وأمسك عن إلقاء السؤال فجأة وارتد وجهه شاحبا ، ولكنه ما عتم أن عاد يقول مغيرا من لهجته الأولى « دعنا من هذا السؤال الذي كدت أن أسألكه ، فإنه والله حديث أليم » .

ونهض بغتة عن الخوان كأنما يريد الفرار من ذلك الحديث .

قال « ألا تريد أن تدخل الحجرات ؟ يخيل إلى الليلة أنني المنفى المبعد وأنا أستمع إليك وأنصت لحديثك عن باريس وأهلها ، وإن كنت جد مسرور إذ رأيت إنسانا قادما من لدنها »

وتمهل لحظة ثم عاد يقول وقد اضطرب منطقة وتهدج صوته « سأحدثك عنها ... ترويحا عن الذاكرة ، وأسفا على الذكرى ... »

ولكنه أمسك فلم يتحدث .

قلت مشفقا : أتراك فيما مضى من زمانك تعذبت كثيرا بسبب امرأة ؟ »

قال بصوت أبح ذبيح « بل قل « تلوعت » بها واكتويت من أجلها بنار جهنم ، فلو قلت ذلك لما عدوت الحق .. لقد هممت منذ لحظة بأن ألفظ اسم امرأة ثم أمسكت ، ولو لفظته وكان جوابك ما أجبت به حين سألتك عن « صوفى أستيير » لقتلت نفسى فى موضعى ...ألا قل لى ناشدتك الحق ألا تزال « جان دى ليمور » على قيد الحياة ؟ »

وراح يحدق فى وجهى النظر وهو المعذب الموجس المشفق .

فابتسمت وقلت « هى كذلك ، بل أبهى جمالا مما كانت »

— أتعرفها ؟

— نعم .

— أمعرفة بسيطة ، أم معرفة صداقة ؟

— معرفة سطحية .

فتناول يدى فشدها بأنامله شدة المتنى .

قال : حدثنى إذن عنها ناشدتك الله.

قلت « وبم أحدثك ، وما عندى من أخبارها قليل ؟ إنها اليوم حسناء باريس الظاهرة على جميع نسائها وغيدها ، تعيش عيش البذخ والترف ولا تزال الفاتنة الساحرة كعهدك بها ، هذا كل ما أستطيع أن أقوله »

فغمغم يقول « إننى شاكر لك » ، وقد فاه بتلك الكلمة فى مثل لهجة من يقول « إننى ميت محتضر .. ! »

وأنشأ يحدثنى بجلية خبره .

قال « لقد صاحبت تلك المرأة ثلاث سنين سويا ، فكانت أعجب سنى حياتى وأغربها ، كانت عهدا مقسما بين اللذة والألم ، فقد حاولت قتلى عدة مرات وكادت تذهب بحياتى فى جملة مناسبات ، ولقد همت يوما بأن تسمل عينى بدبوس قبعتها . لقد كان الحب الذى بيننا مخيفا . لى الله من ذلك الحب لست أستطيع له شرحا ، ولو فعلت لما فهمت ولا أدركت ، ولست أنكر أن هناك نوعا من الحب الرقيق الهادئ فيه تحن النفس إلى النفس ، ويطلب البدن متعة البدن ، ولكن هناك أيضا نوعا آخر

قاسيا فتاكا طاغيا ، هو نتيجة الجاذبية العجيبة الغلابة بين الطبعين المتباينين ، والمنزعين المتناقضين ، منزع الطبيعة الروحانية الخيالية ، ومنزع الطبيعة الجسدية المادية ، طبعا يتحابان ويتباغضان ويتجاذبان ويتدافعان فى آن .

لقد هدت تلك المرأة كيانى وحطمت حياتى فى بضع سنين ، فقد كنت رب أربعة ملايين ، ذهبت جميعا تحت قدميها ، إذ مضت تبددها غير عابئة بالمال ولا حافلة ، وذهبت تبعثرها وهى باسمة تلك البسمة الساحرة التى يخيل إليك أنها هابطة من عينيها إلى شفتيها ، إن فى تلك المرأة شيئا لا يستطيع الرجل منا مهما حاول وجاهد أن يقاومه ، أفتعرف ما هو ؟ إنه سحر هائل خفى غامض قد آتته الطبيعة غيدا قليلات ، وأنت تحس سلطانه ثم لا تستطيع شرحه ولا يؤاتيك بيانه . وكذلك ظلت تلك المرأة خلال السنوات الثلاث الإنسانة الوحيدة التى لم أكد أبصر فى الدنيا سواها .. شد ما تعذبت وتألمت ..

لقد كانت تخوننى .. ولعلك مسائلى بأى مخلوق كانت تختلط الغادرة الخائنة ؟ وجوابى مع كل مخلوق ، وأى إنسان يعرض لها وتعرض له ، وكنت كلما عرفت خيانتها ولمتها على غدرها أتلقى منها كلمة واحدة لاتتغير ، لقد كانت تقول : ولم لا ... أونحن متزوجان؟ ... فعلام الغضب إذن وفيم العتب ؟

ومنذ جئت إلى هذا الموضع مخلدا إلى العزلة ، منقطعا عن العالم كله ، وأنا أفكر فى تلك المرأة ولا أكف عن تصورها ومحاولة اكتناه سرها ، واليوم أحسبنى بأمرها عليما ، ولسر مسلكها ذاك مدركا . إنها امرأة لا تستطيع أن تحب مخلصة ، لا تطيق فى الحب وفاء وصدقا ، بل هى مخلوقة لا تعيش على حال واحدة ، ولا على الوفاء لرجل واحد ، دأبها التماس الجديد وطلب التغيير ، والتلذذ بالتجربة بعد التجربة ، وهى كذلك لا تسكن إلى الحب إذا لم يحشد له المال ، ويبذل فيه الثراء عن سرف وسعة » .

وصمت مليا ، ولكنه عاد إلى الحديث أخيرا ، فقال وهو لا يستطيع إخفاء ألمه الملتهب فى صدره من أثر الذكريات المنبثقة فى خاطره بغتة : « ولما أنفقت عليها آخر درهم عندى مضت تقول لى فى هدوء وسكينة« أنت تعلم يا عزيزى أننى لم أخلق للحب فى الكوخ ، والجلَد على الهوى مع الإملاق ، ولا أستطيع أن أعيش

على الهواء والماء ... إننى بك أشد ولعا منى بأى إنسان سواك ، ولكن لابد أن أعيش ، ولست أطيق على الفقر صبرا » .

فكنت بعد ذلك كلما أهويت على خدها أريد تقبيلها ، أود لو أننى أمسكت بنحرها فخنقتها كذلك وقتلتها . لو أنى قتلتها لكان آخر شيء مع ذلك هو أن أقبلها ... ولقد كنت إذا ضممتها إلى صدرى أطيل العناق وأشدد الاحتضان حتى لأود لو أدق أضلاعها دقا ، وأفتت صدرها تفتيتا ، لقد كان فى عينيها شىء كالسخرية ورنوة خفية كالخيانة ، شىء كنت أخافه وأبغضه معا ، وكانت أغزر من عرفت من النساء أنوثة ، قاسية طاغية ، باطشة لا ترحم ، ولطالما صارحتنى أنها تكره من الرجال المستريبين النزاعين إلى الغيرة ، وتعبث بالعشاق على السواء ، ولست أدرى ماذا كانت تريد أن تنتظر منهم وهى كذلك اللاهية بهم اللاعبة ، ولاريب فى أنها كانت تكره الغيورين المستريبين الموسرين لأنها لم تكن تريد أن يفتضح أمرها ولم تشأ أن تعرف خافيتها . ياعجبا لتلك المرأة ، والله ما رأيت مخلوقة أشد أثرة منها ، ولا أبرع خدعة ، ولا أحذق بأفانين الكذب . وأمر من ذلك وأدهى ، أنها كلما خرجت إلى الطريق ، أو احتواها مجلس من المجالس ، جعلت ترنو إلى الرجال كأنما تعرض عليهم نفسها فى نظرة عينيها ، ورنوة ناظريها ، وكان ذلك يهيجنى منها ويذهب بصبرى ، ثم لاينى يزيدنى تعلقا بها وشهوة إليها ، إذ جعلت أشعر بالخوف من الحرمان منها وأشفق من وشك فقدانها ، وقد أدركت أن ذلك شئ لاتستطيع مغالبته ، ولا حيلة لها فى مجاهدته ، لقد فطرت عليه وولدت به . وكنا فى أى مكان نجلس ، وإلى أى موضع مختلف ، فى المشارب والمطاعم والملاهى والمقاصف ، أشعر بأن الرجال يكادون يختطفونها من جانبى وأنا ساكن أنظر ، لأنهم جعلوا ينظرون إليها مجترئين ، ويحملقون فيها الأبصار مبهوتين دهشين كأنهم لا يحسون وجودى ، وكانت هى تنظر إليهم وتحملق فيهم كأنما لا تشعر بمجلسى إليها ، وإذا أنا تركتها يوما واحدا تناولها غيرى ، ونعم بها سواى .

ولقد مضت على فراقى لها عشرة أعوام، ثم لا أزال إلى اليوم أحبها بأشد من ذى قبل جوى ، وأحر وجدا ، وأقتل أسى ، ولست أكتمك أنى عبد هواى

وأسير عاطفتي ، وهو ضعف لا أنكره وذلة لا أدفعها ، ومهانة رضيتها ولعلى لو غالبتها لتغلبت عليها ، فما رأيك فى أمرى ؟ »

قلت « هو كما تقول ، ولكنى لست أفهم كيف يتيسر لك التغلب عليها ما دمت معتزلا الناس ، منقطعا عن الدنيا فى منآك هذا ومنتبدك ، ثم لا تزال تفكر فيها ولاتنى تتذكرها وتتمثلها ، فلم لا تعالج النسيان بسواها ، ولم لا تتسلى عنها بغيرها ؟ فليس يسعد الرجل منا ويطيب بالحياة نفسا إلا إذا أحب النساء جميعا ولم يقصر حبه على واحدة منهن » .

وكان الليل قد لف العالم بقبائه ، وقد اختلط شذى الزنبق بأرج زهر البرتقال ، وكأنما هبط على الدنيا حزن غريب ، وغشى أفقها أسى مرهوب عجيب ، غشيان الليل الحالك والظلام الدامس .

قلت « وهل فى نيتك أن تراها ؟ » .

قال « بلا شك ، فإننى اليوم قدير عليها ثروة ونشبا ، إذ استطعت أن أجمع من المال نصف ما قد بددت ...وسأنعم بعام كامل معها .. عام كامل أستحوذ فيه عليها ، وأنفق خلاله ما جمعت كل هذه السنين الطوال بقوة الدأب والجهد ، ويومئذ تنتهى حياتى ، فإن ذهبتْ ذهبتُ من هذه الدنيا » .

قلت « لخير لك والله أن تصلح ما قد أفسدت ، وتلتمس حياة جديدة غير التى قضيت وصرفت ، وتنسى امرأة ليست خليقة بأن يجن الرجل منا بها ويفنى الحياة من أجلها . أية سعادة تريد أن تصيب فى عام كامل من امرأة لاتحبك ، ومخلوقة تخون عهدك وتعبث بلبك ؟ ، إن فى الدنيا من مثل « جان » هذه كثيرات ، لهن جمالها وحسنها وفتنتها وعندهن لك ما ليس عندها » .

ولكنه هز كتفيه هزة الآسف المستسلم وقال « هو ذلك ، ولكنى كما قلت لك عبد هواى وأسير جواى ، لست أطيق الفكاك منه ، ولا غنى لى عن تلك المرأة . بل فى الحق أحسبنى مطيقا الانتحار فى النهاية ، لأن الانتحار معناه تركها والذهاب عنها » .

قلت له فى شئ من الاحتقار لم أستطع كتمانه « لا تنتحر ، وإنما أعرض عليها نفسك يوم تحل الخاتمة خادما لا تريد أجرا ، ولا تسأل من الخدمة سراحا ، فإنك إن تفعل تكن حقا العبد الرقيق طوع إرادتها ، وملك يمينها » .

قال فى أتم البساطة حتى لقد استحييت منه وخجلت : نعم ، إنى لفاعل ! ...

الجواهر الكاذبة

صادف المسيو « لانتين » الفتاة الصغيرة فى حفلة أقيمت بدار رئيس ديوانه فهام بها وجدا وجن جنونا .

وكانت ابنة رجل من جباة الخراج قد توفى منذ أعوام ، فجاءت هى وأمها من الريف عقب وفاة والدها فاستوطنت باريز .

وكان لهما إيراد وسط القدر تبلغان منه الكفاف ، وكانتا رقيقتين مهذبتين تلقيان من جيرانهما أقصى غاية الاحترام والاجلال .

وكانت الفتاة نموذج العفة والكمال ، ومثالا عاليا للفتاة الطيبة الكريمة الصالحة التى يتمنى كل شاب عاقل أن يقترن بها يوما ما ، فيلبس على يديها ثوب النعيم والرغد ضافيا قشيبا ، وكان لجمالها الساذج فتنة الطهارة الملائكية .

وكانت الابتسامة الخفية التى لا تزال تتوامض حول شفتيها عنوانا على روحها الطاهرة الجميلة .

وكان لطيب ذكرها عبق يفوح شذاه ويضوع فى الأندية والمجالس أريج رياه ، وكانت أحدوثتها الطيبة كالأنغام والألحان ، تشنف بها الآذان ، ويترطب بها كل لسان ، وينتقل بها على المدامة الندمان ، وهى على القلوب روح وريحان ، فكان الناس لا يملون ترداد قولهم « طوبى لمن يظفر بمودة هذه الآنسة ، إنه لخليق بالسعادة الأبدية ! .. »

وكان المسيو لانتين إذ ذاك كاتبا فى ديوان الداخلية ، يتقاضى مرتبا سنويا قدره ثلاثة آلاف وخمسمائة فرنك ، فخطب الفتاة وتزوجها .

وعاش معها أرغد عيش وأصفاه ، وبلغ من حسن تدبيرها واقتصادها أنها أمتعته على قلة إيراده بمناعم المترفين ، وكانت لاتزال تلاطفه وتدلله ، وبلغ من فرط افتتانه بها أنه بعد استمرارهما معا ستة أعوام ، كان لا يزال يجد لها من الحب

فى قلبه أضعاف ما كان يجده فى أول عهدهما .

وكان لا ينعى عليها سوى خلتين ، إحداهما شدة شغفها بدار التمثيل : والثانية فرط ولوعها بالجواهر الكاذبة . وكان أترابها كثيرا ما يهدينها ألواجا لمشاهدة الروايات الجديدة ، وكان زوجها يضطر إلى صحبتها عقب فراغه من متاعب أشغاله اليومية إلى دار التمثيل مكرها أو مختارا ، حتى بلغ منه الملل مبلغا ..

وأخيراً سأل المسيو لانتين زوجته أن تختار من بين أترابها من تصحبهـا إلى المسرح بدلا منه ، فعارضت فى ذلك أولا ثم ما لبثت أن قبلت ، وسر بذلك زوجها إيما مسرة .

وأما شغفها بالجواهر الكاذبة فقد ألجأها إلى الإكثار منها إلى حد مستنكر ، أثقلت بدنها من العقود والقلائد والخلاخيل ، والشنوف والدمالج والساعات والسلاسل والأمشاط والمدارى ، من الزجاج والخرز والنحاس والصفيح وما ينوء بحمله الجمل البازل .

وكان زوجها لا يزال يحتج على عملها هذا ويجادلها فيه أشد الجدال ، ويقول لها :

« إذا كنت لا تستطيعين اقتناء كرائم الحلى وحرائرها ، فحسبك من الزين حلى جمالك ، أما لك فى صفاء بشرتك ، وبهاء طلعتك ، ولألاء غرتك مندوحة عن تلك الزخارف الكاذبة ، بل عن الحرة الصادقة ، ألست كما قال الشاعر :

إذا أطفأ الياقوت إشراق حسنها   فإن عنـــاء ما توخت عقودها

فكانت تجيبه على ذلك بابتسامة معسولة وبقولها :

« « ماذا أصنع ؟ .. إنى مولعة بالحلى ، هذا طبعى ، وتأبى الطباع على الناقل .. »

ثم تتناول فرائد عقدها وتلفها حول بنانها الرخصة اللدان ، وتستقبل بها أشعة الضوء فيتألق سناها ويتوهج بصيصها ، وتقول :

« تأمل يا حبيبى ! .. إنك لتكاد تقسم أنها حرة .. »

فيقول المسيو لانتين مبتسما :

« إن لك ميولا شاذة وذوقا همجيا يا حبيبتى »

وأحيانا كانت تجىء بجونة الأدم المشتملة على الزخارف الكاذبة ، فتضعها على مائدة الشاى تعكف على الجواهر المموهة بعين شغفة منهومة ، كأنها تجد لها فى أعماق صدرها فرحة خفية ولذة سرية ، وكثيرا ما كانت تطوق جيد زوجها على رغمه بإحدى القلائد ثم تصيح ضاحكة :

« لله ما أعجب منظرك فيها ! .. » ثم تلقى بنفسها بين ذراعيه وتنقب محياه بلثماتها الحارة .

فى إحدى ليالى الشتاء عادت من دار التمثيل مقرورة ترعش ، وفى الصباح أصابها سعال ، وبعد ثمانية أيام ماتت بالتهاب فى الرئتين .

وجزع عليها زوجها أشد الجزع ، وبلغ من فرط كمده وبثه أنه شاب فى ظرف شهر واحد ، وكان مدمن البكاء لا تجف له مقلة ولا ترقأ له دمعة . وكلما تذكر ابتسامتها الحلوة أو صوتها الرخيم أو عبثات طرفها الساحر تفتت كبده وتمزقت أحشاؤه .

ولم يخفف الزمن من لوعته ، فكان أثناء جلوسه فى الديوان بين زملائه ربما ذهل عما يخوضون فيه من أحاديث السياسية وغيرها فاغرورقت عيناه فجأة بالدموع ، ثم أرسل كامن أحزانه انتحابات وزفرات تكاد تنصدع من فرط حرها أضلاعه وتذوب حشاشته .

لقد أبقى كل شئ فى غرفة زوجته كما كان إبان حياتها ـ جميع أثاثها ومتاعها وثيابها على ما كان عليه يوم الوفاة .

وفى هذه الغرفة كان لايزال يخلو وينفرد مطرقا يفكر فى تلك التى كانت كنزه وذخره ، نزهة نفسه وريحانة روحه ..

وسرعان ما استحالت حياته جهادا وكفاحا ، فإن إيراده الذى كان بفضل تدبير زوجته يستغرق جميع النفقات المنزلية ، أصبح الآن لا يفى بحاجاته الضرورية ،

وجعل يعجب كيف كان يتسنى لزوجته أن تشترى من جيد الأنبذة وغيرها من طيبات العيش ولذائذه ، ما أصبح اليوم يعجز هو عن اشترائه بمرتبة اليسير .

فاقترضْ واستدان حتى آل أمره إلى الفقر المدقع ..

وفى يوم من الأيام وقد أصبح معدما لا يملك درهما ، عزم على مبيع شئ من أدوات المنزل ، وسنحت له فجأة فكرة التصرف فى بعض تلك الجواهر الكاذبة التى كانت تتحلى بها زوجته ، لأنه كان يستشعر فى أعماق قلبه نوعا من المقت والكراهية لتلك الخدع والأكاذيب التى طالما كانت تثير غضبه وتكدر صفاءه فيما سلف . لقد كان منظرها خليقا أن يشوه جمال ذكرى فقيدته ويمر حلاوتها ويرنق صفاءها .

فأحضر جونة الحلى وأخذ يقلب محتوياتها ثم اختار عقدا رزينا من الماس قدر فى نفسه أنه يساوى ستة فرنكات أو سبعة لأنه كان بديع الصناعة ، وغاية فى الإتقان .

ثم وضعه فى جيبه وعمد إلى دكان صائغ فدخلها مستحييا من إظهار فقره وفاقته ، ومن تقديمه للمبيع مثل ذلك الشيء الحقير التافه .

وقال للصائغ :

« سيدى ، أريد أن أعرف كم يساوى هذا ؟ .. »

فتناول الرجل العقد ففحصه ثم دعا كاتبه فهمس إليه شيئا ، ووضع الحلية على المائدة ، وجعل يتأملها من مسافة ليتبين مقدار وقعها .

وكان المسيو لانتين قد سئم من كثرة تلك المباحث والاختبارات ، وهم أن يقول للرجل « حسبك ! .. فقد أعلم يقينا أنه لايساوى شيئا » إذ أقبل عليه الصائغ فقال :

« سيدى ، إن هذا العقد يساوى ما بين اثنى عشر وخمسة عشر ألف فرنك ، ولكنى لا أستطيع اشتراءه ما لم تخبرنى من أين جاءك .. »

ففتح الأرمل عينيه ولبث فاغرا فاه لا يستطيع أن يفهم فحوى كلام الصائغ ، وأخيرا نطق متعلثما ..

« أنت تقول ... هل أنت مما تقول واثق ؟ .. »

فأجاب الصائغ بجفاء :

« اعرضه على سواى من الصاغة ، وانظر هل تجدن من بينهم من ينقدك فيه فوق ذلك . وعلى أية حال فلست أقومه بأكثر من خمسة عشر ألف فرنك على أقصى تقدير ، فإن لم تلق من يزيدك على هذا فعد إلى »

تناول المسيو لانتين العقد وإنه ليكاد يجن دهشة ومضى ، لقد كان بحاجة إلى مهلة من الوقت يتروى فيها ويتدبر .

ولما صار خارج دكان الصائغ ضحك ساخرا فى نفسه :

« تبا لذلك الأحمق ، إنه لا يميز بين الحر والكاذب من الجواهر » ..

وبعد خمس دقائق دخل دكانا آخر فى شارع « دى لابيه » وما كاد صاحب المحل يلمح العقد حتى صاح ..

« يا للعجب ! .. إنى لأعرف هذا العقد جيدا لقد اشترى من ههنا »

فاضطرب المسيو لانتين اضطرابا شديدا وقال :

« كم دفع فيه ؟ .. » فقال الصائغ :

« لقد بعته بعشرين ألف فرنك ، وأقبل أن أشتريه الآن بثمانية عشر ألفا ، بشرط أن تعرفنى ـ طبقا لاصول مهنتنا ـ كيف صار فى حوزتك »

فكاد المسيو لانتين أن يجن ، ثم قال :

« ولكن .. ولكن .. افحصه جيدا ، فلقد كنت إلى هذه اللحظة أحسب أنه تقليد » ..

فقال الصائغ :

« ما اسمك يا سيدى ؟ .. »

قال الأرمل :

« اسمى لانتين » - وإنى موظف بوزارة الداخلية ، وأسكن برقم ١٦ بشارع الشهداء »

فنظر الصائغ فى دفاتره فألفى بها تاريخ مبيع العقد ثم قال « هذا العقد أرسل إلى منزل مدام لانتين رقم ١٦ شارع الشهداء ، فى ٢٠ يوليو ١٨٧٦ » ..

ونظر كل من الرجلين فى عينى صاحبه - وقد أخرس الأرمل من فرط الدهشة ، وظن الصائغ أنه يستكشف لصا ، واستأنف الصائغ الحديث ، قال :

« أتسمح بإبقاء هذا العقد عندى مدة أربع وعشرين ساعة ، وأعطيك به وصلا ؟ .. »

فأجاب المسيو لانتين :

« نعم . بكل ارتياح » ..

ثم تناول من الصائغ الوصل ووضعه فى جيبه وانصرف .

مضى المسيو لانتين شارد العقل يهيم على وجهه فى الطرقات لايعرف لنفسه وجهة ولا قصدا ثم حاول أن يفهم ذلك الأمر ويستطلع ذاك السر ، لم تكن روجته من اليسار بمنزلة يمكنها من اشتراء مثل هذا العقد ، إذن فلا بد أن يكون هدية !- هدية !- هدية !- هدية ممن ؟ .. ولأى غرض أهدى إليها ؟ ..

وقف فى مسيره ولبث قائما وسط الطريق ، ثم طرأ على ذهنه شك شنيع - أيجوز أنها كانت ... إذن فسائر الحلى والجواهر قد كانت أيضا هدايا ! .. يالله ! .. لقد وجفت الأرض تحت قدميه ومادت ، كأن الشجرة التى أمامه تريد أن تنقض ، فرفع ذراعيه إلى السماء وهوى إلى الأرض صريعا ..

ولما أفاق من غشيته ألفى نفسه فى صيدلية ، كان قد نقله إليها المارة ، ثم طلب أن يحمل إلى منزله ، ولما صار بين جدران غرفته حبس نفسه فيها وطفق يبكى وينتحب حتى غسق الليل ، وكان قد نهكه التعب فاستلقى على فراشه ونام نوما عميقا .

وفى الصباح ألفى نفسه من الضعف والفتور واضطراب الأعصاب بحال لا تمكنه من مباشرة أعماله المصلحية ، فأرسل إلى رئيسه اعتذارا ، ثم تذكر أنه كان عليه أن يتوجه إلى الصائغ . وعلم الله لم يكن يرتاح لذلك ولكنه لم يشأ أن يترك العقد للصائغ ، فارتدى ثيابه وغادر الدار .

وكان الجو صحوا والسماء مصقولة الأرجاء ، صافية الأديم زرقاء ، تبتسم عطفا على المدينة وأهلها ، وأهل البطالة من المترفين يمشون الهوينا على أتم حال من الدعة والرخاء .

فقال المسيو لانتين فى نفسه وهو ينظر إليهم :

« حقا ، إن الأغنياء لفى نعيم ! .. حبذا المال إنه لينفى عن المحزون كل هم وعناء ، فبه يذهب الإنسان إلى حيث يشاء ، ويصيب فى السياحة من ضروب اللهو ما هو جدير أن يعد أنجع علاج للحزن وأحسم دواء ، ألا ليتنى كنت غنيا ! .. »

وأحس بالجوع ولكنه كان صفر اليدين ، ثم تذكر العقد .. ثمانية عشر ألف فرنك ! .. أى ثروة !

وصل إلى أمام دكان الصائغ ، ثمانية عشر ألف فرنك ! .. لقد عزم عشرين مرة على دخول الدكان فكان الخجل يمنعه ، ولكنه كان جائعا ، بل كان يوشك أن يموت جوعا ولم يكن فى جيبه سنتيم واحد ، فاستجمع قواه وأسرع إلى عقد نيته ، وانطلق يعدو نحو دكان الصائغ كيلا يكون لديه مهلة يتروى خلالها ويتردد ، ثم اندفع فى المكان .

فأقبل إليه الصائغ وقدم إليه كرسيا بكل حفاوة وتأدب ، وجعل موظفو المكان وكتابه ينظرون إليه نظرة العليم المطلع .

وقال الصائغ :

« لقد أجريت البحث اللازم ، فإذا كنت لا تزال مصرا على بيع العقد فإنى مستعد أن أنقدك فيه ما عرضت عليك بالأمس » ..

فأجاب المسيو لانتين متلجلجا :

« لا .. لاشك .. يا سيدى .. إنى لا أزال مصرا » ..

فعمد الصائغ إلى خزانته ، فاستخرج منها ثمانى عشرة ورقة من البنكنوت فعدها ثم قدمها إلى المسيو لانتين وأمضى الأخير الإيصال اللازم وأودع الأوراق جيبه بيد راجفة .

ولما هم بالانصراف التفت ثانيا إلى الصائغ الذى كان لا يزال يبتسم ابتسامته المعنوية ، وقال له وهو منكس البصر .

« عندى .. عندى .. جواهر أخرى قد جاءت من حيث جاء ذلك العقد ، فهل لك أن تشتريها أيضا ؟ .. »

فانحنى الصائغ قائلا :

« بكل ارتياح يا سيدى » ..

فقال المسيو لانتين برزانة :

« سأحضرها لك » ..

وبعد ساعة عاد بالجواهر فقومت شنوف الماس بعشرين ألف فرنك ، والأساور بخمسة وثلاثين ألفا ، والخواتم بستة عشر ألفا ، وسلسلة من الذهب وساعة مرصعة بأربعين ألفا ـ والجملة مائة وثلاثة وأربعون ألف فرنك .

وقال الصائغ مازحا :

« من الناس من يكنز ثروته فى الجواهر الكريمة » ..

قال المسيو لانتين بجد ووقار :

« ما هى إلا إحدى وسائل الادخار »

فى ذلك اليوم تناول غداءه فى « فوازان » أثرى مطعم بالناحية ، وشرب من أجود النبيذ ، ثم استأجر مركبة وطاف المدينة ومتنزهاتها .

ثم تذكر الديوان فمضى إليه فورا ودخل على رئيسه يترنح طربا وقال :

« سيدى ، إنى جئت لأقدم استقالتى ، لقد ورثت اليوم مائتى ألف فرنك » ..

ثم صافح زملاءه وأسر إليهم بما كان قد رسمه من الخطط المستقبلة ، وما كان

ينوى تنفيذه من المشروعات الضخمة الخطيرة ، ثم ذهب لتناول العشاء فى «الكافيه أنجليه » .

وهنالك أخذ مجلسه بجانب رجل من سراة الوجهاء والأعيان من طبقة الأرستقراطية ، ولم يتمالك أن أخبره أثناء الغذاء أنه ورث اليوم ثروة قدرها أربعمائة ألف فرنك .

وفى تلك الليلة أحب دار التمثيل لأول مرة فى حياته فذهب إليها ، ثم قضى بقية الليل فى مرقص .

وبعد ستة أشهر تزوج ، لقد كانت زوجته الثانية أنموذج الحصانة والعفاف ، ولكنها كانت شرسة شكسة وكم أورثته من كرب وجرعته من غصة .

الشعر

كانت الحجرة عارية الجدران ، ليس بها سوى نافذة واحدة ذات قضبان بعيدة المنال ، وكان الرجل المجنون - قاطنها - جالسا على كرسى من القش وقد جعل يرمقنا بمقلة شاردة مخبولة .

وكان شديد النحول ، أجوف الوجنتين ، أشيب الرأس ، يكاد بدنه المضنى النحيف يضيع بين طيات برده الفضفاض ، وكان يخيل إليك أن فكر هذا الرجل قد تسلط عليه فعصف به عصفا ونسفه نسفا ، وأن فكرة فتاكة تأكل حشاه كما تأكل الحشرة الخبيثة جوف الثمرة ، وإنك تكاد تحس هذه الفكرة أو هذا الجنون تحت جمجمته يصول ويطش ، ويجور ويطغى ، ويسرى فى جسده المكدود سريان الحريق البطىء فى العود - تلك الفكرة الخفية السرية ، اللامادية ، كانت تستفد مادته ، وتمتص عصارته ، وتشرب دمه ، وتأكل لحمه ، وتطفىء شعلته ، وتخمد جذوته .

ما أعجب حال هذا الرجل وما أغمض شأنه ! تفترسه فكرة ، وتقتله ذكرة . لقد كان فى هيئته ومنظره ما يثير الرعب والرحمة والألم ، فماذا عسى يكون ذلك الحلم الكامن وراء تلك الجبهة قد خددها غضونا ، وتركها وهادا وحزونا ؟

وقال لنا الطبيب :

« إنه لتعروه نوبات شديدة ، وإن إصابته لمن أغرب ما عاينت وعانيت ! إن جنونه جنون الغرام بسكان الدار الآخرة . هو من عشاق الموت . على أنه قد حرر مذكرات أماط اللثام عن غامض علته فجلاها أتم جلاء ، وها هى إن تشأ » ..

تبعت الطبيب إلى مكتبه ، وقدم إلى مذكرات ذلك الرجل المنكوب وقال :

« اقرأها ، وأبد لى رأيك »

وهاك المذكرات ..

* * *

لقد عشت إلى الثلاثين من عمرى عيشة هادئة مطمئنة ، لم أدر فى خلالها ما الهوى ولا مرارته وحلاوته ، وبدت لى الحياة إذ ذاك شيئا بسيطا طيبا هينا . وكنت ذا مال ، وقد توزعتنى رغبات شتى وميول كثيرة عصمتنى بتعددها واختلافها من أن تستبد بى شهوة غالبة ، فما كان أطيب الحياة يومئذ ! لقد كنت أنتبه صباحا لمباشرة لذاتى الجمة ، وأتوسد فراشي ليلا مطمئن الفؤاد مملوءًا بالأمل الوطيد فى مناعم الغد وطيباته ، وكان لى مع النساء غزل رقيق ودعابة لم تبلغ درجة العشق ولم تشرف على مصائبه وأهواله ، ولا أنكر أن الحب نعمة ، ولكنه أيضا نقمة .

وأغرانى الغنى والثراء بجمع التحف والطرف من شتى الصنوف والأشكال : من أثاث ورياش وغيرها من الآلات القديمة من مخلفات العصور الغابرة .وطالما كنت أفكر فى تلك الأيدى المجهولة التى كانت تلمس تلك الأشياء ، وفى تلك العيون التى كانت ترنو إليها لذة وإعجابا ، وفى تلك القلوب التى كانت تصبو إليها حبا . فإن الإنسان ليحب الجمادات أحيانا كما يحب الأحياء ، وطالما كنت أعكف على عقربى ساعة صغيرة من ساعات القرن السالف فأتأمل جمال صنعها ، ودقة تركيبها ، ورونق صقالها وبريق ذهبها ، وأعجب كل العجب أنها لا تزال تتحرك وتدأب فى مسيرها كما كانت يوم اشترتها تلك المرأة التى أولعت بها حينما رأتها . ترى من كانت تلك التى احتملتها من لدن تاجرها فحملتها على صدرها بين طيات حاشية حلتها الحريرية ؟ وإن قلب الساعة ليدق على دقات قلب المرأة ! وأية يد أمسكتها بين أناملها الرخصة وقلبتها ، ثم مسحتها فصقلتها ، وأيتا عينين رصدتا تينك العقربين ارتقاب الموعد المضروب ، والساعة المنتظرة .. الساعة المأمولة .. الساعة المقدسة ! ما كان أشد شوقى إلى رؤية تلك المرأة ! إنها من أهل المقابر ! ما أشد شغفى لنساء العصور الخالية ! إنى لأعشق ـ من بعيد ـ كل أولئك اللواتى قد عشقن فى القرون الذاهبة . إن تاريخ الغراميات السالفة ليفعم فؤادى أسى وأسفا ! واها لتلك الملاحات والمحاسن ! واها لتلك البسمات والنظرات ، والزفرات والعبرات ، واللثمات والرشفات !

واها لسلمى ثم واها واها ..   ياليت عينيهـــا لنـــا وفاها ..

وواها لتلك الآمال والعواطف والأمانى ! ألم تكن هاتيك كلها خليقة أن تدوم خلودا وتبقى سرمدا ! ويا طالما بكيت الليالى الطوال على نساء الزمن الماضى - صرعى الغرام وأسرى الصبابة ، أولئك الملاح الحسان الرقاق العذاب ، وارحمتا لهن إذ يفتحن أذرعهن ابتغاء القبلة . لقد عدن اليوم رفاتا ! وحبذا القبلة ! إن القبلة لخالدة ! إنها لتنتقل من شفة إلى شفة ، من جيل إلى جيل ، من حقبة إلى حقبة . إن بنى الإنسانية ليأخذون القبلة ثم يعطونها ثم يموتون !

ألا إنما للماضى اشتياقى وإليه حنينى ، وبه افتتانى وفيه رغبتى . أما الحاضر فله كراهيتى ومنه نفرتى ، إذ كان بريد أجلى ، ونذير منيتى ، وإنى لآسف على كل ما كان وجرى ، وأندب وأنوح على كل من كان ثم مضى . وبودى لو استطعت أن أقف مجرى الزمان ، وأقيد الساعة الحاضرة ، ولكنها تمضى فتفوت فتبيد ،وأرى كل دقيقة تمر تنقصنى ، وكل لحظة تنال منى ، وكل برهة تقربنى من أجلى ، وتدنينى من « لاشيئية » المستقبل . وتالله إن مت فما أنا بمبعوث أبد الآبدين ، فوداعا يا نساء الماضى إنى بكن لمشغوف وفيكن مستهام . إن لى بينكن حبيبة مازلت ألتمسها وأبغيها ، وها أنذا قد وجدتها . لقد هدانى كوكب الحب فى بيداء الصبابة إلى تلك التى ما برحت نفسى إليها مشتاقة ، ومهمتى منذ فجر الشباب صبة تواقة .

وذلك أنى بينما كنت أجوب طرقات باريز ذات صبيحة مشرقة ، أتأمل معروضات السلع فى شتى الحوانيت ، إذ بصرت بخزانة نفيسة من الخشب - تحفة أنيقة ، وملحة من ملح الصناعة دقيقة ، من آثار القرن السابع عشر ، فنسبتها إلى الفنان الإيطالى الشهير « فيتيلى » الذى يرجع عهده إلى ذاك العصر ، ثم مضيت فى طريقى .

واعجبا ! كيف تبعنى خيال تلك التحفة وطاردنى ؟ كيف تشبثت بنفسى ذكراها فلجت بها وألحت عليها ، حتى وجدتنى مدفوعا بقوة قهرية خفية إلى الرجوع لذلك الحانوت ، ومعاودة النظر إلى تلك الملحة ؟ لقد كنت أشعر أنها تغرينى وتستخفنى وتستهوينى ، ولله مثل هذا الإغراء والاستهواء ! إنك تنظر

إلى الشيء فلا يلبث أن يجذبك فيستميلك فيستصبيك ثم يملك عليك مشاعرك، كأنما هو وجه غانية ، وتسبيك منه فتنة عجيبة ، فتنة تنبعث من شكله ومن لونه ومن سحنته » فلا تلبث أن تحبه فتحن إليه فتشتاقة وتولع به ولوعا ، وكأن تاجره يستشف من خلال نظراتك تلك الرغبة الخفية الشديدة .

وكذلك اشتريت تلك الخزانة ، وذهبت مسرعا بها إلى دارى فوضعتها فى مخدعى ، ثم خلوت إليها ألهو بها وأستمتع ، كأنها عشيقة عقدت عليها وقد شرعت أقضى معها شهر العسل » . وإنى والله لأرحم كل من لم يذق تلك الحلاوة التى يجدها مقتنى النفائس فى « شهره العسلى » ، حينما يهرع بتحفته الجديدة إلى داره كمن ظفر بتاج مملكة ، فيخلو بها ثم يقبل عليها يغازلها بعينه وبكفه وبلسانه ، كما لو كانت من دم ولحم ، ثم لا يكاد يفارقها حتى يرجع . وإذا غاب شبحها عن بصره لم يغب عن فؤاده ، فهو فى السواد من مقلته وفى السويداء من مهجته أينما حل وارتحل .

وكذلك لبثت شهرا كاملا أعكف على تلك الخزانة الأثرية كالوتنى على صنمه ، ما إن أزال أفتح أبوابها ، وأسحب أدراجها . وفى ذات ليلة بينما كنت أجس تخانة لوح من ألواحها ، خيل إلى أنه لابد أن يكون وراءه درج مخبوء خفى ، فاشتد خفقان قلبى ، وقضيت الليلة أبحث عن ذلك الدرج عبثا ، وفى اليوم التالى نجحت بإيلاج نصل مدية رقيقة فى شق بالخشب ، فانفتح لى لوح ورأيت شبه وسادة صغيرة من القطيفة السوداء عليها لفافة رائعة من شعر أنثى ، أجل ، من شعر امرأة . لفافة ضخمة ، من شعر أدكن مشوب بحمرة قد جز مما يلى البشرة ، مربوطِ بحبل من ذهب ، فوقفت ثمت ذاهلا مبهوتا ، حائرا مضطربا ، واجفا راجفا ، وسرى من ذلك الدرج الخفى نسمة عطرة فى منتهى الضعف والفتور لا تكاد تحس ، فكأنما هى خيال نسمة ، أو روح رائحة .

فتناولت لفافة الشعر برفق ، بل بإجلال وتقديس فأبرزتها من مكمنها ، وسرعان ما انحلت فاستفاضت موجة من الذهب انسكبت إلى أرض الغرفة سلسالة لدنة الملمس ، غضة المكاسر وضاءة براقة كأنها ذنب كوكب .

فامتلكتنى عاطفة عجيبة ، ماذا أرى ؟ أين ومتى وكيف ولماذا أخفى هذا

الشعر فى هذه الخزانة ؟ أى نبأ حادث وأية رواية تنطوى فى غضون هذا التذكار ؟ من ذا الذى قصه ؟ عاشق فى يوم وداع ؟ زوج فى يوم ثأر وانتقام ؟ أو صاحبة هذا الشعر نفسها فى يوم بؤس ويأس ؟ وهل كان لدى دخولها الدير أن قذفت ثمت بذاك التراث الغرامى تذكارا منها لعالم الأحياء ، حين ضمها القبر وحال دون المليحة الحسناء جندل وصفائح ، احتفظ عاشقها الحزين بتلك الذؤابة من شعرها المحبوب - تلك البقية الحية من جسدها الميت - تلك الريحانة التى ليس للبلى والعفاء عليها من سبيل ، والتى لن يزال يستطيع شمها ولثمها فى نوبات بثه وشجاه ، وسورات حزنه وأساه ؟ أليس عجبا أن يبقى ذلك الشعر غضا يانعا على حين لم تبق ذرة من الجسد الذى أنبته ونماه ؟

لقد سال هذا الشعر على أناملى ، وحرك دمى وأعصابى ، وعرانى من مسه شجى ورقة فكأنى على وشك الإجهاش بالبكاء . وأبقيت الشعر فى يدى مدة طويلة ، ثم خيل إلىّ كأن شيئا من روح تلك المرأة لا يزال فى طياته كامنا مستكنا ، فأعدته إلى مخبئه وأغلقت عليه الخزانة ، ثم انطلقت فى شوارع المدينة كأنى فى حلم .

وجعلت أجوب السبل مفعما أسى وحزنا ، ومفعما كذلك عناء وكربا ، واجدا من برحاء الوجد واللوعة ما تجد فى قلبك على إثر أول قبلة غرامية ، وخيل إلى كأنى قد عشت فى الماضى ، وكأنى كنت أعرف تلك المرأة وكان بينى وبينها ألفة وصداقة ، وهنا جاش فى صدرى وثار إلى شفتى - كما تنبعث من الأحشاء زفرة المحزون ، أبيات الشاعر « فيون » حيث يقول :

« خبرنى بربك أين الآن من شعاب وادى المنون فتنة روما ؟

« فلورا » الحسناء - وأين « هيباركيا » وأين « تاييس » وأين « هاياشيا » وأين « إيلين » وأين زينة الدنيا وملحة الوجود « كليوباترا » ، وأين حورية « الصدى » تلك التى لم يرها إنسان ، وكل ما عرف منها صوتها الرنان ، على حفافى الغدران والخلجان ، خبرنى بربك أين كل هؤلاء ، وكيف تخبرنى بذاك ؟ إنك لا تعرف أين ذهبت ثلوج الأمس من قلل الهضاب ! »

وجعلت كلما طرقت منزلى أسرعت إلى الخزانة ففتحتها وبى كحنين الآيب

إلى الأوطان ، والإبل إلى الأعطان ، وكهزة المشتاق ، لو شك التلاق ، ولابدع فلقد أصبحت حياتى بذلك الشعر رهينة ، وأصبحت بى حاجة ماسة (مستمرة مبهمة غريبة ، شهوية) إلى غمس أصابعى فى ذلك الجدول الممتع اللذيذ الفتان ـ جدول ذلك الشعر الميت .

وعلى هذه الحال عشت شهرين .. ثم لا أدرى ماذا كان بعد ذلك ، لقد ملكنى هذا الشعر واستحوذ على وغمرنى غمرا ، وبقيت منه فى لذة وعذاب ، فى جنة وجحيم ، كحال العاشق المدله ، والصب الموله ، فسجنت نفسى معه منفردا ـ كيما ألتذ بمسه وجسه ، وبشمه ولثمه ، وبمصه وعضه ، فكنت أتقنع به وأنتقب ، وأثنيه على عضدى ومعصمى ، واستدنيه على جبينى وفمى ، وألف به يدى ، وأطوق به جيدى وأبرد به حشاى وكبدى ، وأغرق عينى فى أمواجه الذهبية كى أنظر الدنيا ملونة ببديع صفرته .

لقد عشقته ، نعم عشقته ، فلا حياة لى من دونه ، ولابقاء طرفة عين إلا به ، ثم لبثت أنتظر .. لبثت أنتظر .. وماذا أنتظر ؟ .. أنتظرها هى .. صاحبة الشعر !

فى ذات ليلة انتبهت من رقدتى أشعر بأنى لست وحدى فى الغرفة ، وعلى الرغم من ذلك كنت وحدى ، ما من أحد بالحجرة سواى ، وحاولت النوم ثانيا فلم أقدر ، فقمت إلى الخزانة لأستمتع بالشعر برهة ، وتناولته فخيل إلىّ أنه ازداد نعمة ولينا ، وطيبا وحسنا ، وكأنما نفث فيه روح جديد ، ترى هل ترجع الموتى ؟ وغمرته باللثمات فأسكرتنى تلكم اللثمات حتى كاد يغمى علىّ لذة وطربا ، فاحتملته إلى فراشى وأرقدته إلى جانبى وضممته إلى صدرى وشفتى أحتضنه وألثمه كأنه الحبيب المفدى . هل ترجع الموتى ؟ أجل ، ترجع الموتى ، لقد وافت ! لقد وافت صاحبة الشعر ، لقد رأيتها وملكتها ، هى هى ، كما كانت إبان حياتها .

هيفاء تكسى فتبدو وهى مرهفة　　　خود تعرى فتلفى وهى مبدان

فاشتملت عليها اشتمال الغمد على الحسام ، وامتزجت بها امتزاج الماء بالمدام ، ولبثت أنعم بها صباح مساء على مدى الأيام ، وفاق متاعى بها كل متاع ، لأنه متاع الظافر بحيازة الخفى والمجهول ، والمتعذر والمستحيل ، والذى قد طاح به

الموت وذهب به الفناء ! وأشهد الله ماذاق عاشق قط مثل ذلك الغرام فى حدته ووقدته ، وهوله وروعته ..

ولقد أبديت فرحتى ، وأعلنت غبطتى ، وإذ كنت لم أستطع فراقها لحظة جعلت أستصحبها أينما سرت ، أجوب بها أجواز المدينة وأذرع أقطار الضواحى كأنها زوجتى ، وأعرضها على الملأ فى دور التمثيل وفى المقاصف والملاهى .

تبا للإنسان ما أطغاه وما أظلمه ! لقد حسدونى عليها فأخذوها ، وأودعونى السجن ظلما وعدوانا ! لقد أخذوها منى ... فيالهفتى وياحسرتى !

* * *

وهنا انتهت المذكرات ، وبينما أرفع إلى الطبيب ناظرىّ المملوءين رعبا ، دوت فى أرجاء المستشفى صرخة منكرة ملؤها الغيظ والحنق ، فانتفضت فزعا ، ثم سألت الطبيب بصوت لجلاج ، وبلهجة تنم على الدهشة والرعب والرحمة :

« ولكن خبرنى عن ذلك الشعر ... هل له وجود فى الحقيقة ؟ »

ففتح الطبيب خزانة مملوءة بالأدوية والعقاقير ، ثم رمى بذؤابة من شعر أدكن إلى الحمرة طارت نحوى كأنها عصفور من الذهب ، فتناولتها بيد راجفة ومهجة خفاقة ، وقال الطبيب :

« ما أعجب الإنسان ، إن ذهنه لمصدر العجائب والمدهشات ! »

والد سيمون

فتح باب المدرسة إبان الظهيرة ، وانطلق الصبية فرحين يتزاحمون ويتسابقون ، ولكنهم بدل الذهاب توا إلى بيوتهم تجمعوا حلقات وأخذوا يتهامسون ..

فى ذلك اليوم كان قد أدمج فى سلكهم تلميذ جديد ، « سيمون » ابن « لابلانشوت » ـ امرأة تعسة شقية ، رزقت هذا الغلام بطريقة غير شرعية من رجل خدعها ، ثم تركها تقاسى السنين الطوال سوء عاقبة غرورها وزلتها . ولم يكن أولئك الصبيان يفقهون كل ذلك ولكنهم كانوا يسمعون أمهاتهم يذكرون اسم تلك المرأة « لابلانشوت » بلهجة احتقار واشمئزاز ، ويقلن إن غلامها سيمون » لا والد له .

فكان تهامسهم حين تجمعوا بفناء المدرسة طوائف وحلقات يدور حول هذا المعنى . « أتعرفون هذا التلميذ الجديد « سيمون » ؟ إنه بلا والد ! .. أليس ذلك بعجيب ؟ .. »

وبينما هم فى ذلك إذ نجم « سيمون » من باب المدرسة ، وكان صبيا صغيرا أصفر نحيلا ، نظيف الثوب حسن الهندام بين السابعة والثامنة من عمره ، حييا ، خجولا ، هيابا ، ثقيل الحركة ..

فرمقه الغلمان بأعين خبيثة شريرة ، تنم عن سوء النية وتدبير الكيد والنكاية بالصبى المسكين ، ثم زحفوا عليه من كل جانب وأحدقوا به إحداق السوار بالمعصم ، ووقف الصبى وسطهم حائرا مضطربا ، لايدرى ماذا عساهم صانعين به ، وهنا واجهه زعيمهم فسأله قائلا :

« ما اسمك يا هذا ؟ .. »

فأجاب الغلام ..

« سيمون » ..

« سيمون ماذا ؟ .. »

فأجاب الصبى ، وقد اشتد ارتباكه :

« سيمون » ..

فصاح به الزعيم صيحة منكرة « إن الإنسان ليسمى عادة «سيمون وشيء بعده » ، فأما سيمون » فقط فما هذا باسم يعرف ! .. »

فأجاب الصبى للمرة الثالثة وقد اشرأب دمعه أن يسيل :

« اسمى سيمون » ..

فتضاحك الغلمان ، ثم نظر إليهم الزعيم وخاطبهم قائلا :

« قد ترون يا إخوانى ، أن الصبى بلا والد » ..

أعقب ذلك فترة سكوت عميق ، وقد حير الغلمان وأذهلهم وهالهم وأدهشهم أن ينظروا بتلك العجيبة الخارقة المستحيلة - ولدا بلا والد .

أما سيمون فاتكأ على شجرة تفاديا من السقوط ، وكادت كبده تنصدع ومادت به الأرض وماجت ، وأخيرا صاح دفاعا عن نفسه :

« أجل إن لى والدا » ..

فسأله الزعيم قائلا :

« وأين هو ؟ .. »

فسكت « سيمون » وماذا يقول ؟ وإنه لايدرى ماذا يقول ، وهرج الصبية ومرجوا وهاجوا وماجوا ، وضجوا وعجوا .

هؤلاء الصبية الريفيون الذين لا يفضلون الوحوش بشيء ، تحركت فيهم إذ ذاك تلك الغريزة السافلة الوحشية ، الهمجية الجهنمية التى تدفع الطيور الدواجن إلى إهلاك أحدها إذا رأته جريحا تدمى كلومه ، وفى تلك اللحظة لمح « سيمون » صبيا كان جارا له ابن أرملة ، وكان لايزال يراه مثله منفردا مع أمه بلا رجل يدخل عليهما ، فقال لذلك الصبى :

« وأنت أيضا مثلى بلا والد ، أليس كذلك ؟ .. »

فقال ذلك الصبي :

« بل إن لى لوالدا » ..

قال سيمون :

« وأين هو ؟ .. »

فأجاب الصبي بعزة وكبرياء :

« والدى تحت التراب فى المقابر »

فعلت ضجة استحسان وإعجاب من أولئك الهمج الصغار ، من أولئك السفلة الذين لا تجد فى آبائهم إلا كل ساقط وغد لئيم ، وفاجر شرير ، بين لص وفاسق وسكير ، وزحفوا على « سيمون » فضيقوا عليه النطاق والخناق ، كأنهم يحاولون أن يطحنوه طحنا ويسحقوه سحقا ، لأنهم ذوو آباء وهو وحده من دونهم بلا والد .

والتفت إلى سيمون الغلام الذى كان ملاصقا له ، وأبرز إليه لسانه استهزاء وصاح :

« بلا أب ! .. بلا أب ! .. »

فانقض عليه سيمون فأخذ بناصيته ، وانبرى يركله بقدمه ، ثم عض وجنته عضة وحشية ، فحمل عليه الظلمة الصغار حملة شعواء فصرعوه وأوسعوه ركلا وضربا وجرحوه بأظفار وأنياب ، ولما نهض ينفض التراب عن معطفه وأعطافه ، صاح به أحدهم :

« هلم إلى أبيك فبثه شكواك »

فخارت قواه وأحس نفسه تتساقط ، ولاجرم فلقد كانوا أشد منه بطشا ، وقد ضربوه وأفحموه فلم يدر كيف يقول ، إذ كان يعلم حق اليقين أنه بلا والد . ثم خنقته العبرات فغالبها جهده وكافحها وكان عزيزا أبيا ، ولكنها تكاثرت عليه فهزمته وانهمرت على خديه سحا دراكا ، عند ذلك انفجرت من الغلمان صرخة طرب وسرور ، ثم أخذ كل بيد أخيه فأحدقوا بالغلام حلقة محكمة ، وانبروا يرقصون كعصابة من الهمج المتوحشين فى عيد بشع شنيع ويرددون :

« بلا والد ! بلا والد !

ولكن سيمون زجر مقلته ، وكف دمعته ، وقد طارت شياطين الغضب فى رأسه ، فانقلب وحشا ضاريا ، وسبعا عاديا ، وكان تحت قدميه حجارة فالتقطها ، ثم أرسلها على أعدائه قذائف كاوية وصواعق حامية ، فانهزمت عنه عصابة السوء واندحرت

وانثنت من مرنخ وصريع ومول مهتك النحر دامى

وما زال ذلك شأن كل جمهور ، يستطيل على الضعيف المستكين ويطول ، فإذا ثار ثائره انخلعت قلوبهم فطاروا .

لما ترك الصبى الصغير وحده اندفع يعدو نحو الحقول ، إذ هبت على خاطره فكرة عقدت نيته على عزم خطير ، لقد أصر على إغراق نفسه !

بلغ الصبى حافة النهر وكان اليوم والسماء صافية ، وقد سال ذهب الشعاع على زبرجد الروض ، وتلألأت صفحة الماء كالمرآة فى كف الأشل ، فشاع الطرب وسرى السرور فى جوانح الغلام لذاك المشهد العجب ، وأحس بخلسة من ذلك النعيم العذب والفتور اللذيذ الذى يعقب البكاء ، كما يعقب النسيم الغض البليل شؤبوب الحياة ، وأحس ميلا شديدا إلى الرقاد على ذلك العشب الندى تحت الأشعة الدافئة ، ثم تذكر منزله وأمه فحزبه الهم وعزه البكاء فانتحب ، وعرته هزة من فرعه إلى قدمه ، ثم إنه ركع يصلى ولكنه لم يستطع إتمام الصلاة ، إذ عرته قشعريرة شملت كل جسده وزلزلته ، فشرد عقله وسد طرفه وصم مسمعه

وهنا أحس بيد ثقيلة على عاتقه ، وسمع صوتا أجش يسائله :

« ما بالك يا صبى وما يبكيك ؟ »

والتفت سيمون فإذا رجل من العمال جسام طوال ملتح جعد اللمه ، يرنو إليه عن رقة وحنان .

فأجاب والعبرة تخنقه :

« لقد ضربونى ، لأنى - لأنى- ليس لى - لى - أب ، ليس لى أب »

قال الرجل مبتسما :

« ماذا ؟ ليس لك أب ؟ ويح نفسى ! ما رأيت كاليوم غلاما بلا أب ، كيف ذلك يابنى ما من غلام بل حيوان إلا له أب »

فأجاب الغلام بين شهيقة وزفيرة :

« ولكن - أنا - أنا - أنا - لا أب لى »

عند ذلك جد الرجل واتأد ، إذ عرف فى الصبى نجل المرأة « لابلانشوت » ، وكان على حداثة عهد حلوله بذلك البلد يعرف من أمرها شيئا

فقال للغلام :

« هون عليك يا بنى ، وهلم بنا إلى أمك ، وهناك يمنحونك - إن شاء الله - والدا »

وكذلك سار الرجل والغلام يدا فى يد حتى بلغا الدار الأنيقة الصغيرة البيضاء ، وصاح الغلام :

« ها هى ! أماه ! أماه »

وكان الرجل يرجو أن يصادف فى تلك المرأة إحدى أولئك الخليعات المتهتكات فيلعب دورا غراميا لذيذا ، وحسب أنها فرصة سنحت وصيد أمكن ، وثمرة جنيت وزهرة قطفت ، فتقدم نحو الباب مبتسما ، ولكنه ما كاد يلمح تلك المرأة ناجمة من باب دارها حتى فارقت شفتيه الابتسامة ، إذ أبصر فيها امرأة طويلة صفراء على جانب عظيم من الجد والرزانة والوقار ، قد وقفت على باب دارها عبوسا مكلاحا كأنها تحصن من الرجل القادم ذلك الحمى ، الذى استباحه وانتهك حرمته رجل آخر .

فتقدم الرجل وجلا هيابا ، وقال متلجلجا :

« سيدتى ، لقد جئتك بغلامك وكان قد أوشك أن يضل على حافة النهر »

ولكن سيمون هجم على والدته وطوق جيدها بذراعيه ، وقال لها وقد استأنف البكاء : .

« كلا يا أماه ، لم أضل الطريق ، ولكنى ذهبت عمدا إلى النهر لأغرق نفسى ، لأن الصبية ضربونى إذ كنت بلا والد »

فعلت وجنة المرأة الصغيرة حمرة ملتهبة ، وحز ذلك الخبر فى أحشائها حز المدى ، فاعتنقت الغلام أحر عناق ، والدموع على خدها الأسيل تستبق ، والتاع الرجل لذلك المشهد الأليم ، وتحرق فثبت مكانه لاحراك به ، وليس يدرى كيف ينصرف ، ولكن الغلام هرع إليه فقال :

« أما تحب أن تكون لى والدا ؟ »

فترة سكوت ... وكاد الخجل يقتل المرأة المسكينة فاستندت إلى الحائط وقد أمسكت بيدها أحشاءها خفية أن تنصدع ، وقال الغلام واستبطأ جواب الرجل :

« إذا لم تقبل أن تكون لى أبا ، عدت إلى النهر فأغرقت نفسى »

فحمل الرجل كلام الصبى على المزاح ، وقال يتكلف الضحك وفؤاده من الحزن ينفطر :

« لا بأس يابنى ، سأتخذك لى نجلا »

قال الغلام :

« ما اسمك ، حتى أخبر به الصبية إذا سألونى »

فأجاب الرجل .

« فيليب »

فأطرق الغلام مليا ليستظهر ذلك الاسم ، ثم مد ذراعيه بهيئة المغتبط المطمئن وقال :

« أنت أبى من الآن فصاعدا يا فيليب ! »

فرفعه الرجل بذراعيه المتينتين من الأرض ، فاحتضنه وقبله ثم أنزله ، ومضى مسرعا .

ولما عاد سيمون إلى المدرسة من غده ، استقبل برنة ضحك ساخرة ، ولما حاولت عصابة السوء لدى الانصراف استئناف غارتها ، قذف سيمون فى وجوههم بهذه الكلمة كما يقذف بالحجر :

« اسمه فيليب ، والدى »

فانبجست من الغلمان صيحات الطرب والفكاهة عالية وضجوا :

« فيليب من ؟ فيليب ماذا ؟ عمرك الله من هذا المسمى فيليب ؟ وما شكله وما لونه ؟ ومن أين ـ حفظك الله ـ التقطت فيليبك هذا ؟ »

لم يحر الصبى جوابا ، وثبت أمامهم كالطود الراسخ يرمقهم بعين حديدة نفاذة ، تتأجج فى لحظها جمرات الكفاح والمناوأة ، وقد أصر أن يموت شهيدا قبل أن ينهزم أمامهم .

وجاء ناظر المدرسة فأغاثه ، فانطلق إلى دار أمه .

ولبث الرجل « فيليب » ثلاثة أشهر يمر من حين لآخر على باب « لابلانشوت » وأحيانا يجترئ عليها فيخاطبها وهى جالسة إلى النافذة ترفو أو تطرز ، فكانت ترد عليه ردا جميلا في أدب وحشمة ، لاتمزح ولا تضحك ، ولا تسمح له بالدخول مطلقا ، على أن الرجل« فيليب »كان كسائر رجال هذا العالم لم يخل من الغرور والغفلة فظن ـ كذبا وسفاهة ـ أن المرأة تميل إليه ، وتوهم أن حديثه ليها كان يكسو وجهها نقابا من الحمرة .

وشاعت نميمة أن ـ فيليب ـ يختلف إلى دار ـ لا بلانشوت ـ وأن فى الأمر شيئا ، وذلك على الرغم من شدة ورع المرأة وفرط حيائها وتقواها . ولكن الشرف كالزجاج سريع انثلامه ، بطئ التئامه .

وأحب « سيمون » والده الجديد ـ فيليب ـ حبا جما ، وكان لا يزال يمشى إليه كل مساء بعد انقضاء الدراسة .

ورفع رأسه بين زملائه ، وكان يتحاشى ملابستهم .

فى ذات يوم عمد إليه زعيمهم فقال له :

« لقد كذبت إذ زعمت أن لك والدا يدعى فيليب »

قال سيمون مضطربا :

« لماذا تكذبنى ؟ »

فحك الغلام يدا بيد ثم قال :

« لأنه لو كان لك أب ، لكان لأمك زوجا »

فأفحم سيمون من صدق هذه الكلمة ، ووضوح تلك الحجة ، ولكنه أجاب

على الرغم من ذلك :

« إنه أبى على أية حال »

قال الزعيم الغشوم :

« قد يجوز ذلك فى مذهبك ومذهب أمك ، ولكنه لن يكون أباك بالمعنى الصحيح »

فأطرق الصبى المسكين ، استخذاء وانكسارا ، وذهب - تائه اللب فى بيداء الهواجس - إلى مصنع الرجل - فيليب - وكان حدادا .

كان المصنع فى وهدة من فوقها الأشجار كأنه مدفون تحت ظلالها ، وكان مظلم الأرجاء . فى وسطه نار حطمة ذات لهب ساطع أحمر يضئ ضرامه الوهاج خمسة حدادين يملأون فراغ المكان بدقات مطارقهم دويا قاصفا ، ولو رأيتهم متوشحين ملاحف اللهب القانية لحسبتهم الأبالسة فى لظى جهنم .

فدخل سيمون فى هدوء ، وسعى حتى وقف إلى جانب « فيليب » ولم يشعر به ، ثم جذب بمرفق صاحبه فالتفت الرجل ووقف دولاب العمل فى الحال ، وأقبل الخمسة الرجال على الغلام منصتين .

وقال سيمون :

« خبرنى يا فيليب ، لقد زعم أحد الصبية أنك لست بأبى على الوجه الصحيح »

قال الحداد :

« ولماذا ؟ »

قال الغلام بكل سذاجة :

« لأنك لست لأمى بعلا »

لم يضحك من هؤلاء الرجال أحد .

وقف « فيليب » شاخص البصر عازب اللب ، وقد ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وسدت فى وجهه المسالك فلم يجد من هذه الورطة مخرجا ، وأخيرا تكلم أحد زملائه معبرا عن شعور الجميع :

« فيليب ، إن والدة هذا الغلام لنعم المرأة ، ما شئت من عفة وكرم وحياء

على الرغم من مصابها الجسيم ، وهى نعم الزوجة ونعم شريكة الرجل الحر الشريف فى حياته »

فقال الثلاثة الآخرون :

« هذا حق صراح »

واستمر المحامى فقال :

« وهبها هفت مرة ، فهل كانت هى الجانية ؟ كلا ، فما كانت إلا ضحية غادر ، وفريسة أفاك ، وكم من فتاة مثلها قد هفت هفوتها وهى اليوم مثال للورع وقدوة للصلاح »

وعلى هذا أمن الثلاثة الآخرون .

واستأنف المحامى فقال :

« وكم كدت المسكينة بعد ذلك لتعول طفلها وكدحت ، وكم لها تحت أستار الظلام من دموع غزار ، وزفرات حرار ، ويعلم الله أنها ما غادرت بيتها منذ محنتها إلا إلى الكنيسة بيت الله ! » .

قال الثلاثة الآخرون :

« إى وربى إنه لحق »

ثم استؤنف العمل فلم يسمع سوى شهيق الكير ، وزفير السعير . والتفت فيليب بغتة إلى سيمون فحنى عليه قائلا :

« اذهب إلى أمك فبلغها أنى قادم عليها الليلة فى أمر ذى شأن »

ومضى الغلام

ولما طرق فيليب باب « لابلانشوت » ، خرجت فقالت له بصوت محزون متوجع :

« ما كان ينبغى لك أن تجىء فى مثل هذه الساعة ، وقد مضى من الليل موهن »

وحاول فيليب الكلام ولكنه أرتج عليه فألجم ، قالت لا بلانشوت :

« وقد تعلم ما كابدت من ألسنة الناس وسمومها ، فلن أطيق بعد ذلك سبابا »

« وماذا فى كلام الناس عليك وعلىّ إذا كنت عزمت أن أكون زوجك ! »

فى تلك الليلة ضم فيليب الغلام الصغير إلى صدره فقبله وقال :

« الآن خبر زملاءك الصبية أن أباك « فيليب ريميه » الحداد ، وإنه لخليق أن يصطلم آذان من يجرءون عليك بالأذى »

وفى الصباح لما اجتمع الصبية وحانت ساعة الدراسة ، وقف سيمون وقال بصوت جلى مبين ووجهه فى شحوب وشفتاه فى ارتجاف :

« والدى « فيليب ريميه » الحداد ، وقد صرح أنه ليصطلمن آذان من يجرءون علىّ بالأذى »

لم يضحك أحد هذه المرة لأنهم أدركوا ما هنالك ، وقد عرفوا أى رجل كان فيليب هذا ، لقد كان خليقا أن يفخر بأبوته أولاد السراة والسادة !

الحب والموت

أنا رجل أهتم بدرس أحوال المجانين ، وأعنى كثيرا بملاحظة أمور المخلوطين فى عقولهم والممرورين ، لأنهم قوم يعيشون فى عالم غريب من الأحلام ، ويحيون فى دنيا أخرى من صنع الخيال وعجائب الأوهام ، ولولا ذلك لما أطاقوا العيش ولا احتملوا عبء الحياة ، فإن جنونهم هو الذى أنجاهم ، والخيال هو الذى أمسكهم فى دنيانا هذه وأبقاهم ، ولست أشك فى أنهم لو انتبهوا فجأة من جنتهم ، أو صحوا على غرة من خبالهم ، فتبينوا الباعث الذى ذهب بعقولهم ، وأدركوا سر جنونهم ، لعادوا يطلبون الموت ، أو التمسوا الجنون مرة أخرى !

أولئك أناس خرجوا عن حدود الإنسانية ، وتحرروا من شرائع المجتمع كلها وسننه وقوانينه ، وطلقوا الفكر ونسوا الممكن وغير الممكن ، فلم يعد شئ فى نظرهم مستحيلا ، ولا أضحى أمر فى الدنيا وإن عز على أهلها أجمعين دون منالهم ، أو فوق إرادتهم ، فهم بوحى النفس أمراء ، وهم بإملاء الإدارة ملوك ، وهم فى أعينهم الآلهة والأرباب ، وما هو بمستحيل عندهم أن يظلوا الحياة كلها شبابا ، ولا فى غير الممكنات أن يقطعوا أدوار العيش جميعا الأصحاء الأقوياء ، الحسان الفاتنين المعشوقين العاشقين ، وهم أبدا السعداء المطمئنون ، الفرحون الراضوان ، لأنهم يحيون على الخبال ، ويسكنون عالم الوهم ودنيا الخيال ...

وقد اعتدت أن أتأمل عجيب هواجسهم ، وألاحظ تطورات أذهانهم ، وأتبين مناحى أوهامهم ، إتجاه أخيلتهم ، ولكم رأيت لهم من أفكار غرائب تدور وتحوم ، وتصورات عجائب تضطرب فى أحلامهم وتسكن حينا وحينا تثور ، منبعثة من مصدر مجهول ، ذاهبة إلى غاية غير معلومة ، ووجهة غامضة غير مفهومة ، فلكأنى أشهد هنالك زوبعة خفية رهيبة من قاع خليج عميق ، تزأر وتصطخب ، وتدوى وتضطرب ، وتتلاطم وتتضارب ، مختلطة ثائرة ، متدفقة طاغية .

فى ذات يوم ذهبت لزيارة أحد مستشفيات المجانين ، فمشى بى أحد الأطباء

ليطوف حول مساكن المرضى ومراقدهم .

قال بعد أن جُسنا قليلا خلال المستشفى : « والآن سأريك حالة من أغرب حالات الجنون » . ومضى يفتح بابا قبالتنا وأشار إلى داخل الحجرة ، فنظرت فإذا امرأة حسناء فى حدود الأربعين جالسة فى مقعد مستطيل ، وقد أمسكت بمرآة صغيرة تتطلع إلى وجهها على صفحتها الشفافة ، ولكنها ما كادت تلمحنا واقفين بالباب حتى وثبت من مقعدها مسرعة إلى أقصى ركن فى الحجرة ، فتناولت فى عجلة ولهفة قناعا فأرخته على محياها ، وغطت بطرفه رأسها مبالغة فى الحجاب ضاربة بخمارها على وجهها ، ثم عـــادت تمشى إلينا ســـاكنة هـادئة.

وإذ ذاك بادرها الطبيب قائلا : هيه ، كيف أنت اليوم يا عزيزتى ؟

فتنهدت من الأعماق وانثنت تقول : أواه ياسيدى إننى اليوم فى أسوأ حال ، لأنها قد أخذت تتكاثر يوما عن يوم وتزداد ظهورا .

قال فى لهجة مقنعة وصوت مؤكد : ولكنى لا أزال أقول لك إنك ياسيدتى مخطئة فى هذا التصور واهمة .

ولكنها تقدمت إليه قليلا قليلا حتى دنت منه ، وراحت تهمس له قائلة : كلا بل أنا متأكدة متيقنة ، وفى هذا الصباح وجدت عشر نقط جديدة قد ظهرت فجأة .. ثلاثا على الخد الأيمن وأربعا على الأيسر والثلاث الباقيات على الجبين ...شئ شنيع ، وأمر أنا منه فى خوف لا ينقطع ، ولست أطيق أن أظهر وجهى لأحد من الناس حتى ولا ولدى نفسه . وامصيبتاه ! ...لقد تشوه وجهى وقبحت خلقتى إلى الأبد ، فكيف الظهور على الناس بمثل هذا الوجه المنقر المشوه ، كلا يا سيدى إنى لأستحى أن أتراءى لك أو لغيرك وأنا على هذه الصورة القبيحة الشوهاء .

وتهالكت على المقعد وأخذت تنتحب طويلا .

وتناول الطبيب مقعدا فقربه منها ، وجلس إليها وأنشأ يخاطبها مرققا من صوته ، مواسيا مشجعا ، قال : دعينى أرى هذه النقرة فقط .. نعم هذه ليس إلا ...هكذا ... نعم ، هكذا ...خليك شاطرة لا مقاومة ، إن هذه النقرة البسيطة تنصرف حالا بقليل من الدهان ، ودعكة خفيفة بالمرهم .

ولكنها هزت رأسها متأبية ، وابتعدت عنه متمنعة ، فحاول أن يميط خمارها ولكنها أمسكت بأطرافه عاصية ، وقاومته غاضبة متأذية ، وشددت قبض الخمار بكلتا يديها حتى لقد كادت أظافرها تخرق قماشه ، وحاول هو تهدئة خاطرها وملاينتها وأخذها بالحسنى ، فجعل يقول لها : خليك لطيفة يابنت الحلال ، لم هذه المقاومة والمشاكسة ، ليست هذه بأول مرة أزلت فيها النقرات فى وجهك . ألست أنا الذى يزيلها واحدة بعد أخرى ، وما أزيله بيدى منها لايعود يبدو مطلقا ؟ ولكن بالله عليك كيف يتسنى لى معالجتها إذا أنت حجبتها عنى هكذا ، و « عصلجت » معى بهذه الطريقة ؟ ياشاطرة أنا الدكتور فلا حياء منى ولا خجل .. هيا يا عزيزتى ارفعى الخمار قليلا .

فغمغمت متألمة خجلى تقول : أنا لا أمانع فى رفع النقاب عن وجهى لك ، ولكنى لا أعرف هذا السيد الذى جاء اليوم معك . فضحك الطبيب وقال : أهذا إذن سر استحيائك أيتها الشاطرة ؟ ولكن هذا غير معقول ، بل هذا جنون محض لأنه دكتور أيضا وأبرع منى فى الصنعة ، ويمكنه أن يعالجك أحسن منى .

فحسرت فى الحال عن وجهها ولكنها ظلت فى خوف شديد واضطراب عجيب وحياء غريب ، من ظهور طلعتها الناضرة للعين مسفرة ، منكسة الطرف مطرقة الرأس تحاول إخفاء وجهها عن نظرنا وهى راعشة واجفة . ولشد ما كانت دهشتى إذ لم أر على محياها أثرا ما من بقع أو ندوب أو غضون أو نقر ، وراحت تقول لى وهى متولية عنى بوجهها :

ـ لقد كانت إصابتى بالعدوى ياسيدى خلال قيامى على تمريض ولدى .. لقد نجا هو من المرض وأصبت أنا بعدواه ، لأنى ضحيت بكل عزيز لدى المرأة ونفيس تحرص عليه فى سبيل فلذة كبدى . نعم ، أديت واجبى وأرحت ضميرى ، ثم لا أزال مع ذلك فى ألم شديد وعذاب لا يطاق ..

وكان الطبيب قد أخرج من جيبه فرشة دقيقة من فرش الرسم ، وأنشأ يقول : دعينى أزيل هذه النقطة اليوم . فعرضت له خدها ومضى هو يحرك الفرشة على صفحته كأنما يطلى بقعا ظاهرة ، ويعالج آثارا فى البشرة ، وكذلك فعل بالجبين والذقن والخد الآخر ، وانثنى يقول : الآن انظرى لم يبق شئ ، نعم لاشئ مطلقا .

فتناولت المرآة ولبثت لحظة طويلة تتأمل وجهها ، ثم تنهدت من الأعماق كأنما قد زال مابها من ألم وقالت : هذا صحيح ، ولست أرى شيئا الآن ! وأنا لك من صميم فؤادى شاكرة .

ونهض الطبيب ونهضت ، وسلمنا على المريضة المسكينة وخرجنا .

وأنشا صديقى يقول وقد أغلق الباب : والآن أنا مسمعك قصة هذه المرأة . قلت: ما أشوقنى إلى سماعها . قال : إنها تدعى مدام هرميه ، امرأة كانت فى زمانها حسناء فاتنة الجمال ، كثيرة العشاق مهوى الأفئدة ، فرحة بالحياة منشرحة للدنيا ، وكانت من النساء اللاتى يحرصن على نعمة الجمال أشد الحرص ويصنه مغاليات فى صونه ، تعيش لجمالها وتحيا لحسنها ، لا تحتفل من أمور الدنيا بغير الزينة ، ولا يشغلها من أمور الحياة سوى التجمل والتطرية ، والتطلع فى المرآة ، وكل خوفها أن يتأثر على الدهر جمالها أو تدول دولة حسنها ، تقضى معظم وقتها فى العناية ببدنها والإسراف فى الزينة والتحلية .. وقضى زوجها نحبه فبقيت أرملة ، ولبثت أما لولد أوحد وكانت توليه الحب كله ، فدفعت به إلى خير المؤدبين واعتنت بتنشئته وتثقيفه أكبر العناية ، فما لبث أن كبر وفرع منه القد ، شرعت تخاف وأخذت تلتاع وتضطرب ، إذ أدركت أنها قد راحت تدلف إلى الشيخوخة وأن جمالها مشرف على زوال ، فاصطلحت عليها المخاوف ، واجتمعت فى نفسها الأوهام والتصورات ، والأحزان والندامات ، وجعلت تقضى النهار ممسكة بالمرآة تتعقب أثر الغضون فى جبينها ، وتترقب ظهور المكاسر فى صفحتها ، وتوجس خيفة من طلوع تلك الأفاعى الدقاق التى تفسد على المرأة جنتها وتنساب فى فردوسها .. وأنشأت تقتنى جميع ما فى الأسواق من وسائل التجمل ومبتكرات المزينين والمزينات ، والمخترعات الطريفة فى الأصباغ والأدهنة والمساحيق والمراهم المنعمات الطاليات ، حتى امتلأ مخدعها من سائر الأنواع ومجموعة المركبات والمستحضرات ، وناهيك بامرأة تحاول أن تغش الطبيعة وتزور على الدهر ، كما نغش نحن الرجال الحياة ونخادع العيش ، وننصب على الزمان .

وكانت فى الخامسة والثلاثين يوم مرض ولدها فجأة ، ولم يستطع الأساة أن يعرفوا بادى الرأى نوع مرضه أو يشخصوا سبب وعكته ، وجعلت أمه تجئ

لعيادته صبحا وتزوره عشاء ، فإن جاءت أقبلت فى ثوبها الشفاف وزينتها الفاتنة وعطرها النفاح ، فوقفت بالباب تقول: هيه ياجورج كيف أنت اليوم ؟ وكان هو يقول والحمى مدنفته ، والعلة ملحة عليه : بخير يا أماه والحمد لله ... ومضت الأيام على هذه الزيارات العاجلات ، حتى كان ذات يوم فقيل لها : إن ولدك ياسيدتى مريض بالجدرى .. ! فلم تكد تسمع هذه الكلمة حتى صاحت من فرط الخوف ، وجرت تطلب الفرار . وفى صبيحة اليوم التالى جاءت خادمها لتوقظها كعادتها فهبت عليها من جوانب الحجرة روائح المطهرات ، وكانت سيدتها قد قضت أسوأ ليلة فأصبحت شاحبة اللون مكفهرة الجبين ، وانثنت السيدة تسأل خادمها راعشة واجفة عن حال ولدها ، فقالت الخادم إن العلة اشتدت عليه اليوم ياسيدتى ، فاضطربت لهذا النبأ أيما اضطراب ، وظلت فى فراشها حتى آذنت الظهيرة فنهضت كسلى فاترة ، وجلست إلى فطورها لا تكاد تمد إلى الطعام يدها ، وقامت إلى الصيدلى لتسأله ما أنواع الأدوية والاحتياطات التى ينبغى اتخاذها للوقاية من عدوى الجدرى ، وساءت حال الفتى فى اليوم التالى فلازمت حجرتها طول النهار تحرق البخور وتنثر المطهر ، وقالت الخادمة صبحا لأخرى فى الدار : إن سيدتنا قد قضت الليلة البارحة فى أنين لا ينقطع وتأوه مستمر . ومضت عشرة أيام فلم تكن تخرج من بيتها خلالهن غير ساعة من الأصيل ثم تعود ، وفى الحادى عشر أرسل مؤدب فتاها رقعة إليها يستنجزها لقاءها فأجازته ، ولما دخل عليها المخدع رأته واجما متألما لايريد جلوسا ، قال قبل أن تبادره بكلام أو حديث : إن ابنك يا سيدتى فى أسوأ حال وقد رغب لقاءك . فلم تكد تسمع ذلك حتى جزعت أشد الجزع وخرت راكعة تنادى الله وتبتهل ، وهى تقول : رباه ، رباه ، كيف العمل ، ولست أقوى على لقائه ، ولاجلد لى على زيارته .. رب أعنى بقوتك .

وقف المؤدب يقول : وقد أخبرنى الطبيب ياسيدتى بأن الأمل فى نجاته قد ضعف ، وجورج الآن فى انتظار دخولك عليه

وتركها المؤدب ومضى ..

وبعد ساعتين شعر الفتى بأن الخاتمة قد دنت فعاد يسأل عن أمه ، فذهب

المؤدب مرة أخرى إليها فى مخدعها فإذا هى لاتزال جاثية تبكى وتنوح قائلة : كلا ، كلا ، لا أستطيع .. إننى أكاد أموت خوفا ورعبا . فحاول تهدئة جأشها وإغراءها بالذهاب معه ، فلم يفلح فى إقناعها ولم ينجح فى إغرائها فاضطر إلى جرها من ذراعها ، ولكنها ظلت متشنجة صائحة صارخة لاتريد ذهابا ، وجاء الطبيب فجعل يشدها بالقوة ويجرها بالعنف صوب الباب ، وهى تتمنع وتصيح واجفة ، حتى إذا بلغت الباب أمسكت بمصراعه وقاومت أشد المقاومة ، فاجتمع الرجلان على حملها من مكانها حملا ، ولكنها تراخت إذ ذاك وراحت تجثو عند قدمى الطبيب وتسأله فى بكاء وتشنج أن يغفر لها قسوتها ، ويسدل ستر الصفح عن جبانتها وخستها ، وتقول والهة مولهة : أنقذه ناشدتك الله أيها الطبيب ، ينبغى أن يعيش ! ينبغى أن يعيش !

وكان المريض فى تلك اللحظة يعانى عذاب المحتضر ، وقد دنا الأجل وآن المرتحل ، وفى تلك الصحوة التى تستبق الموت أدرك المريض سر امتناع أمه عن رؤيته ، فقال وهو فى حشرجة الموت : أريد أن أودع أمى قبيل الرحيل ، فإن لم تشأ علىّ الساعة دخولا فاسألوها أن تقف قبالة النافذة فى هذه الشرفة المطلة علينا ، حتى تودعها عيناى قبل الذهاب !

فعاد المؤدب والطبيب إليها فقالا : لاخطر عليك ولا ضرر ، وبينك وبينه هذه النافذة . فامتثلت لهما وراحت تغطى رأسها وتتناول قنينة النوشادر فى يدها ، ولكنها لم تكد تسير بضع خطوات حتى دفنت وجهها فى راحتها وجعلت تئن وتقول : لا أستطيع ، إننى خائفة ، واخجلتاه من قسوتى ، واعاراه من خستى ! فحاول الرجلان جرها ولكنها أمسكت بقضبان الشرفة مستميتة ، ورفع الفتى المحتضر وجهه إلى النافذة وأجهد عينيه الذابلتين الحسيرتين ليخطف آخر نظرة من وجه أمه الحسناء العزيزة الغالية ...

ولبث طويلا يعالج سكرة الموت وينتظر الأم الرءوم الحنون ، حتى أقبل الليل فأغمض عينيه وولى وجهه إلى الجدار ولم يتكلم .. !

وطلع الصباح على فتى ميت . وأم مجنونة !

النافـــذة

عرفت مدام « دى باريل » شتاء العام الماضى فى باريس . فلم أكد ألقاها فى المجامع مرتين أو ثلاثا حتى ملت إليها أشد الميل . ثم ما لبثت أن عرفتها حق المعرفة فإذا هى امرأة ساحرة للنفس سباءة للفؤاد ، جمعت من الخلال نقائض فهى الجريئة المتخلصة من الآداب المألوفة ، والمراسيم المتكلفة ، والعادات والمجاملات المعروفة . ثم هى مع ذلك الحبيبة المنزوية الرقيقة المتناهية فى الرقة واللطف والحنان ..

وكانت مدام دى باريل أرملة نصفا عوانا . وأنا أشد الناس حبا للمرأة العوان الممتلئة الناضجة ، ولطالما عاهدت نفسى على الإمساك آخر الدهر عن الزواج ، فإن لم يكن بأرملة فلا ، لا ..

فلما لقيت تلك الأرملة الحسناء انثنيت من فورى إلى التحبب لها والتغزل بها والاجتهاد فى اكتساب رضاها ، وما لبثت أن وجدتنى فى كل يوم أزداد حبّاً لها وهياما بها ، ومعرفة لأخلاقها ، وكلما عرفت من خلالها جديدا ، تمادى بى الحب شديدا ، وراح يطلب مزيدا ، ولم أطق آخر الأمر صبرا على ما بى فكاشفتها بلوعتى ، وأعلنتها فى الزواج نيتى ، فسكتت لحظة مستطيلة خلتها من قلقى وتشوقى حقبة مديدة من الدهر ...

ولكنها لم تلبث أن قالت فى رفق وتؤدة « يلوح لى يا سيدى أنك مستعجل ! إننى إلى الآن لا أعرف حقيقة عاطفتى نحوك ولا أدرى حتى الساعة هل أحبك أم لا ، ولكنى عن طيب خاطر لا أجد ما يمنع من إعطائك فرصة لتجربتك . فدعنى أختبرك مليا وأمتحنك فى رفق . إنك مقبول شكلا وأما موضوعا فهذا مالا علم لى به اليوم . ولابد لى من معرفة خافية نفسك وخلقك وطباعك وعاداتك ، إن أكثر ما يعقد اليوم من عقود الزواج جرائم ،أو إن لم يكن كذلك فجنون وضلال بعيد. وعلة هذا أن الفريقين يقدمان عليه وكل منهما يجهل حقيقة أخلاق الآخر ، ولا يعرف

من حقيقة امرئه قليلا ولا كثيرا . فإذا تزوجا وتم العقد ووقع القران ، فلا يلبث أقل خلاف بينهما فى الرأى على شئ حقير أو موضوع تافه أو عادة ينكرها أحدهما من صاحبه أو طبع لا يروقه من قرينه ، أن يزيل الغشاوة الأولى عن عينيه فتتبخر المحبة التى كانت بينهما فى مبدأ الأمر ، وتتبدد كما يتبدد الدخان فى الفضاء .. وقد عاهدت نفسى ألا أقدم مرة ثانية على الزواج حتى أدرس أخلاق الرجل الذى سأشاركه حياتى أتم الدراسة ، وأختبر ميوله وطباعه وعاداته كل الاختبار ، إذ كفانى ما رأيت من مرير الخيبة ، وما تجرعت من الغصص فى حياتى الزوجية الماضية » .

وتمهلت لحظة ثم استطردت تقول : لقد خطرت لى فكرة أقترحها عليك يا سيدى ، لم لا تجئ لقضاء الصيف معى فى دارى بالريف وموطنى ، وهناك يجرب كل منا صاحبه ، وفى خلال العزلة الساكنة يمتحن بعضنا بعضا حتى نعلم هل خلقنا للزواج ، وهل توفرت فينا شروط القران الهنيءالسعيد .. أراك تبتسم لهذه الفكرة ، أفتحسبنى أريد مزاحا ؟ ألا فاعلم يا سيدى أننى لو لم أكن واثقة من نفسى لما عرضت عليك هذا الاقتراح مطلقا ، إننى أحتقر يا سيدى أشد الاحتقار ، وأسخر كل السخرية من الحب كما تفهمونه معاشر الرجال ، ومن معناه الذى تواضعتم عليه ، ويستحيل على امرأة مثلى أن تسقط فى فخاخه ، أو تخدع فى أمره ، فهل فهمت الآن ياسيدى مرادى ، وهل تقبل فكرتى أم لا .. ؟ !

فتناولت كفها فقبلتها وسألتها : متى تسافر .. ؟ !

قالت : فى العاشر من مايو . أفهذا الموعد يناسبك ؟ » قلت : جدا .

وفى الشهر التالى كنا معا فى الريف ..

وقد كانت فى الحق امراة ولا كل النساء ، إنسانة غريبة الأخلاق عجيبة الأطوار ، فقد جعلت تراقب حركاتى وسكناتى من الصباح إلى المساء . وكانت تجيد ركوب الخيل فكنا نقضى الساعات راكبين نقطع الأشواط البعيدة ونتغلغل بجوادينا فى صميم الآجام ، ونتجاذب أطراف الحديث فى كل شىءيخطر بالبال ، وكانت تجتذبنى إلى الكلام اجتذابا ، وتغرينى به إغراء لكى تمتحن منطقى ، وتختبر مبلغ فهمى ، وعمق مداركى ، وتسبر غور فكرى وعلمى .

أما أنا فقد ألفيتنى كل يوم أشد حبا لها من قبل وأبعد هياما ، ولكنى تبينت

من مراقبتها لى أنها المدققة المتحرية لكل صغيرة ودقيقة من خلقى ، لايغريها شيء بترك رقابتها ، أو العدول عن نيتها ، أو الاستماع لصوت العاطفة . ومالبثت أن أدركت أننى موضوع تحت المراقبة فى خلواتى أيضا وسكناتى ، وفى منامى ويقظتى ، فقد عرفت أن هناك إنسانا فى غرفة صغيرة لصق حجرتى ، وأن هذا الشخص يدخل الغرفة فى جنح الليل مترفقا متسللا خشية أن أستيقظ على حركته .

وما لبث هذا التجسس المستمر على أحوالى أن ضايقنى ، فأردت أن أنتهى إلى النتيجة فى أقرب وقت . ففى ذات مساء تشجعت قليلا ولكن مدام « دى باريل » صدتنى فى الحال فلم أجترئ على مواصلة التشجع ، وعدلت عن الخطة التى كنت أنوى تنفيذها ، ولكن شعرت أمام هذا الصد المؤلم برغبة تدفعنى إلى الانتقام منها على هذه المراقبة الثقيلة التى أحاطتنى بها ، فلم ألبث أن فكرت فى خطة بديعة لتنفيذها .

لقد كان لمدام « دى باريل » وصيفة تدعى « سيلشبنى » فتاة مليحة من بنات جرانفيل ـ وبنات جرانفيل كما تعرفون ملاح حسان الوجوه ،وكانت « سيلشبنى » هذه تشبه سيدتها ملاحة وجمالا ، وكل ما هنالك من فرق بين الوصيفة ومولاتها أن هذه سمراء ، وتلك شقراء .

ففى ذات أصيل دعوت الوصيفة الشقراء الحسناء إلى غرفتى فدسست فى كفها مائة فرنك وأنا أقول : لا تخافى يابنية فكل ماأريده هو التشفى من مولاتك ، دقة بدقة ، والبادئ أظلم .

فابتسمت الفتاة ابتسامة لا تخلو من خبث ، ولم تقل شيئا .

قلت : إننى عالم بأن هناك شخصا يتجسس حولى ويترصد لى ليل نهار ، ويراقبنى آكلا شاربا ، وأنا أحلق أو ألبس جوربى أو أنتعل حذائى . أنا عارف ذلك ومتأكد .. فلا تحاولى إنكارا .

فتلعثمت « سيلشبنى » وحاولت أن تتبرأ أو تعتذر ، ولكنها أمسكت مضطربة مأخوذة .

قلت : لا تنكرى أنك تنامين فى هذه الحجرة الملاصقة لحجرتى لمراقبتى فى نومى ، حتى تعرفى إن كنت أغط فى النوم أو أتكلم فى سباتى .. !

فضجت ضاحكة وهي تقول : ولكن ياسيدى ، أنت ترى ..ولكنها لم تستتم..

قلت غاضبا : أليس من العدل أن يعرف عنى كل شئ يختص بى ، ثم لا أعرف أنا شيئا عن المرأة التى ستصبح زوجة لى . ولست أنكر أننى أحبها كل الحب ، فقد أوتيت كل ما كنت أشتهيه وأتمناه وأحلم به ، من ملح الجمال والحسن والرقة والحنان والذكاء الوقاد ، وأنا والله بها أسعد المخلوقات طرا .. هذا مالا أنكره . ولكن هناك أشياء أريد أن أعرفها ، فاسمعى الآن يا عزيزتى « سيلشبنى » . إن الرجل فينا يهتم ببعض مسائل معينة قد لاتمنع المرأة من أن تكون كاملة الفتنة ساحرة الجمال ، ولكنها على كل حال تقلل من قيمتها فى عينه ، مسائل تتعلق بجسمها وتكوين بدنها ، وإنما أرجوك ألا تظنى بهذا أننى أريد أن أسألك عن أشياء لا يليق السؤال عنها ، معاذ الله ، لست أقصد ذلك وليس فى خاطرى أن أحملك على إخبارى بعيوب سيدتك ، وما ينقص بدنها وتقاطيعه من جمال وملاحة ، حاشا لله أن أفكر فى شىء من ذلك !

قالت متخابثة : وأى شئ تريد أن تسألنى عنه ؟

قلت : أريد الجواب الصريح على بضعة أسئلة بسيطة ، فأنت تعرفين مدام دى باريل معرفتك لنفسك لأنك أنت التى تلبسينها ثيابها وتخلعينها عنها ليل نهار .. خبرينى بالله عليك هل هى فى الحقيقة بضة ممتلئة كما تلوح للعين ؟.

فلم تحر الفتاة جوابا .

قلت : أنت تعلمين أن هناك نساء يحشون ثيابهن فى مواضع معينة ليتراءين بضات ملفوفات ..

فنكست «سيلشبنى» طرفها وراحت تقول على استحياء : امض يا سيدى فى أسئلتك إلى النهاية ، لأنى سأجيبك عليها بالجملة ..

قلت : أعرف بعض نساء غير مستويات السوق ولا ملفوفات الأوراك ، ونساء باديات العظام ، ناحلات عجافا هزيلات ، ولكنهن يحتلن على إخفاء أولئك كلها بالتحشيات واللفافات ، ولهذا أحب أن أعرف من أى صنف تكون مولاتك . خبرينى بالله تجدى كل ما تطلبين .

فنظرت إلىّ - سيلشبنى - وضجت ضاحكة .

قالت : اسمع ياسيدى إذن جوابى فى كلمة واحدة ، إن سيدتى مثلى تماما غير أنها سمراء وأنا كما ترى شقراء ..

وانفلتت هاربة . .

ولبثت فى مكانى مغيظا محنقا .. لقد استهزأت بى وضحكت منى خادمة صغيرة ، وأكلت عقلى بكلمة ومضت . واشتد بى الانفعال فأجمعت رأيى على أن أنتقم من هذه الخادمة الصغيرة الجريئة الهزاءة المتخابثة .

وانتظرت ساعة حتى هدأ ما بى ، وقمت متسللا خلف - سيلشبنى - لأضبطها وهى قائمة عند مرصدها الذى اعتادت الاختلاف إليه لمراقبتى .

ورأتنى أمامها فجأة فهمت بالصياح ، لولا أن عاجلتها فوضعت يدى على فمها فسكتت .

وما لبثت في تلك الخلوة القصيرة أن أدركت أن مدام - دى باريل - لابد على هذا القياس أن تكون بديعة الجسم شهوة المشتهى ومنية المتمنى إن صح أنها مخروطة على قالب خادمتها .

ومن ذلك اليوم أصبحنا أنا - وسيلشبنى - صاحبين متحابين ، وتوكدت بيننا المحبة وقام الوداد وكانت مرهفة معتدلة القوام ، فتانة ذات دلال ولعب . وأنستنى علاقتى بها ذلك القلق الذى كنت أشعر به ، وأزالت بعض اللهفة التى كنت أحسها على معرفة نية مدام - دى باريل - وقرارها النهائى

ورأتنى مدام « دى باريل » مستسلما صابرا ساكنا مطيعا ، فأخذت تظهر لى جانب الرضا ، وراحت تفهمنى إشارة وتلميحا أنى قد دخلت مخها ! وعما قليل ستصدر قرارها المنتظر ، وسيكون فى مصلحتى بإذن الله !

وفطنت أنا لذلك كله ، فأصبحت فى منتهى السعادة أنتظر كلمة المرأة التى أحبها ، وأتلهى مؤقتا بأحضان الفتاة المليحة الحسناء التى تحبنى .

ففى ذات صبح استيقظت مبكرا وأنا أشعر بنشاط وقوة وانشراح لامزيد عليه . فارتديت ثيابى كعادتى وخرجت من حجرتى لأدخن قليلا قبل أن يحين

موعد الإفطار ، وما لبثت قدماى أن أدتا بى إلى البرج الغربى من القصر ، وهو برج يصل إليه الإنسان بسلم تعتليه نافذة رحبة .

ففيما كنت أتقدم مترفق الخطى وأنا منتعل خفا رقيقا ، إذ لمحت - سيلشبنى - حيالى وهى مطلة من تلك النافذة ، غير أنى لم أستطع رؤية جسمها كله وإنما لاح لى منها فقط نصفها الأسفل .

فمشيت إليها بكل خفة متسلل الخطو فلم تشعر بحركتى ، وشجعنى هذا على التقدم فدنوت منها رويدا رويدا وهى لا تزال مشغولة بالإطلال من النافذة .

وما كدت أبلغ مكانها حتى أخذتها على غرة فطوقت عنقها بذراعى ، وأهويت عليها لثما وتقبيلا ..

وكنت أعرف أن - سيلشبنى - قد اعتادت أن تتعطر بماء اللاوندة ! ولكنى فى تلك اللحظة التى عانقتها فيها لاحظت فى مثل خطف البرق أن العطر الذى يفوح منها لم يكن من ذلك النوع ، ولكنه كان عطر البنفسج .. !

غير أنى لم أشعر إلا بلطمة عنيفة قد هوت على وجهى وكادت تهشم أنفى ، وسمعت صيحة لم أكد أتبينها حتى وقف شعر رأسى من هول مارأت عينى .. فقد أبصرت أمامى مدام - دى باريل - وهى تضرب الهواء بذراعيها مشرفة على الإغماء .. ! ياللهول .. ! لقد وقعت فى مصيبة لا أدرى كيف الخروج منها ، لقد أردت « سيلشبنى » وأراد القدر مولاتها . ياللنكبة ويا للمصيبة العظمى ... !

ووقفت مدام دى باريل حيالى لحظة تزفر وتلهث ، ثم استدارت وانطلقت هاربة ...

وما هى إلا دقائق معدودات حتى رأيت سيلشبنى قادمة نحوى تحمل إلى رقعة من سيدتها .

فتناولت الرقعة فإذا هى تحوى هذه الكلمات :

« ترجو مدام باريل إلى المسيو دى بريف أن يترك دارها فى الحال ! »

فلم أستطيع البقاء ، بل غادرت القصر من « سكات ! » حزينا أتعثر فى أذيال الخيبة والعار . وإلى اليوم لا أزال بحسرتها ، فقد حاولت كثيرا أن أسترضيها وألقى معاذيرى وأستغفر لزلتى ، ولكنها لم تصغ إلى كلمة واحدة منى . وهى بالطبع على حق لأننى كنت .. مذنبا !

ومنذ ذلك اليوم ، وأنا أكره الناس لشيئين : النوافذ ورائحة البنفسج . ! ؟

الجبان

كان الفيكونت جوزيف شابا ظريفا رقيق الحاشية ،وضىء الطلعة حلو الشمائل ، خلاب الحديث محببا إلى النساء ، وقد ورث عن أبيه مالا كثيرا، وكان له شهرة ذائعة فى فنى الرماية والمسابقة ، وكان يقول « إذا ساقنى القدر يوما إلى مبارزة لأختارن المسدس ، فإنى به أمهر وأحذق »

فى ذات ليلة وقد خرج من دار التمثيل مع سيدتين وزوجيهما ، دعاهم جميعا لتناول « الجيلاته » فى مقصف « تورتونى » ، وما كادوا يأخذون مجالسهم بذاك المكان حتى ظهر للفيكونت جوزيف أن رجلا بإزائهم كان يحدد بصره إلى إحدى صاحبتيه، لايصرفه عنها طرفة عين حتى آلمها وآذاها فأطرقت حائرة مرتبكة ، ثم قالت لزوجها :

« إن بإزائنا رجلا يدمن إلى النظر ولست أعرفه ، أتعرفه أنت ؟ »

فنظر الزوج إلى ذلك الرجل وقال :

« كلا ، لا أعرفه مطلقا »

قالت الزوجة بين الغضب والابتسام :

« شد ما آلمنى بنظراته ! لقد أفسد على (الجيلاته) »

« أعرضى عنه ودعيه وشأنه ، ولو شغلنا أنفسنا بسفهاء الناس وأوغادهم لحملناها ما لا تطيق » ولكن الفيكونت جوزيف نهض من مكانه فجأة ، ودلف إلى الرجل حتى وقف عليه وقال :

« إنك ياسيدى لتنظر إلى هذه السيدة نظرات لا أرضاها ، وتلك منك فظاظة أرجو أن تقلع عنها فى الحال .. »

فأجابه الرجل قائلا :

« دعنى وشأنى »

فقال الفيكونت مغضبا :

« احترس يا هذا ! وإلا ألجأتنى إلى معاملتك بمنتهى القسوة »

فأجابه الرجل بكلمة واحدة – كلمة خبيثة ملأ دويها أرجاء المكان ، وأدهشت كل إنسان ، فليس من أحد إلا انتفض فى مكانه من فظاعة تلك اللفظة ، فاشرأبت الأعناق نحو ذلك الرجل وامتدت الأبصار ، ووقف معظم الحاضرين ..

وساد السكون ، وقابل الفيكونت كلمة الرجل بلطمة على وجهه سمع لها رنين ، ثم تداعى الرجلان للبراز بتبادلهما بطاقتيهما

ولما ذهب الفيكونت إلى داره أقبل يتمشى فى غرفته جيئة وذهابا ، وكان من فرط الاضطراب بحيث تعذر عليه أن يصل ما بين أفكاره ويسلسل خواطره فى نظام منسق ، وإنما تملكته واستولت عليه فكرة واحدة – المبارزة ...

ثم إنه قعد وشرع يتدبر شأنه ، لقد كان عليه أن يستدعى شاهدين عند شروق الشمس فمن يختاره ؟ وهنا أقبل ينتقى من بين أصحابه أعظمهم نفوذاً وأعلاهم مكانة ، فوقع اختياره على المركيز « دى لاتورنوان والكولونيل « بوردان» من كبار الضباط وأشرفهم .

وأحس ظمأ شديداً يلتهب فى أحشائه فشرب أربع زجاجات من الماء ، ثم استأنف المشى فى أنحاء الغرفة وجعل يقول فى نفسه :

« لئن أبديت لخصمى منتهى الثبات والشجاعة وصحة العزم على مبارزة جدية ، فلربما تولاه الرعب منى فتراجع وقدم المعذرة وانسحب »

وكان قد ألقى بطاقة خصمه على المائدة لدى دخوله الغرفة ، فتناولها ثانيا فقرأها للمرة الثلاثين بعد أن كان قرأها أولا حين تناولها من خصمه . ثم بعد ذلك تحت كل مصباح من مصابيح الطريق أثناء عودته إلى داره ، « جورج لاميل ، شارع مونسى ، رقم ١٥ » من الرجل ؟ وما حرفته ؟ ..وما الذى أغراه بالنظر إلى السيدة ؟ أليس من البلاء الأعظم أن رجلا غريبا مجهولا يصطدم بالإنسان فجأة فيقلب نظام حياته رأسا على عقب ، لغير سبب سوى أنه بدا له أن ينظر إلى امرأة ؟

« بؤسا لذلك الفظ السمج ! »

ثم وقف مطرقا لا حراك به ، مدمن النظر إلى البطاقة ، وثار فى صدره الغضب الشديد والغيظ المحتدم ضد هذه الورقة ـ غضب مشوب بالاضطراب والقلق ، وقال فى نفسه « إنه لحادث سخيف فى منتهى السخافة » . ثم تناول من فوق المائدة سكينا وغرز حده فى وسط الاسم المكتوب على البطاقة كأنه يطعن إنسانا فى صميم قلبه .

وكذلك أصبح حتما عليه أن يبارز ! فماذا يختار من السلاح ؟ السيف أم المسدس ؟ ألا إن السيف أقل خطرا من المسدس ، ولكنه إذا اقترح المسدس فلربما خاف خصمه فانسحب معتذرا . وعند ذلك يخرج هو من الأمر فائزا مرفوع الرأس منتصرا ، دون أن يعرض نفسه لأخطار المبارزة .

ثم قال فى نفسه :

« على أن أظهر الثبات والجرأة ، فذاك خليق أن يلقى الروع فى روع خصمى »

قال ذلك بصوت مسموع ، ومن العجب أنه فزع وارتاع من سماع صوت نفسه ، فأقبل يتلفت حواليه فى قلق واضطراب ، وأحس انحلالا فى قواه وتراخيا ، فشرب زجاجة خامسة من الماء ثم شرع ينزع ثيابه تهيؤا للرقاد ...

ولما صار فى الفراش أطفأ النور وأطبق أجفانه ..

وقال فى نفسه :

« إن لدى النهار بأكمله غدا أنظم فيه شئونى ، فمن الحزم أن أنام من اللحظة لأكون هادئ الأعصاب متى جاءت الساعة العصبية »

وكذلك اطمأن تحت اللحاف ونال ما يبتغى من الدفء والراحة ، ولكنه لم ينم وطفق يتقلب ويتخبط ، ثم لبث خمس دقائق على ظهره ثم تحول إلى جانبه الأيسر ثم انقلب إلى الأيمن .. ثم عاوده الظمأ فقام ليشرب ، وهنا عرته رعشة فقال فى نفسه :

« أيجوز أن أكون خائفا ؟ »

لماذا كان يخفق قلبه أشد الخفقان لدى كل صوت مألوف فى غرفته ! فصرير

الساعة الذى يسبق دقها كان ينفض أحشاءه نفضا ، ويتركه مقطوع النفس بضع ثوان من فرط جزعه وهلعه .

وأعاد على نفسه السؤال السالف :

« أيمكن بحال ما أن أكون خائفا ؟ »

« كلا ، من المحال أن أكون خائفا ، وكيف ولقد عزمت على المضى فى الأمر إلى النهاية ، وكيف ولقد عزمت على مبارزة الرجل بلا تردد » .

ولكنه كان مع كل ذلك يعروه من شدة اضطراب الذهن والبدن ما جعله يسائل نفسه :

« هل من الممكن أن يخاف الإنسان على الرغم من نفسه ! »

وهذا الشك الأليم ، هذا السؤال المخيف استولى عليه واستحوذ على مشاعره ، فجعل يناجى نفسه « إذا كان قد قدر على أن أبتلى بقوة خفية قاهرة أشد من قوتى ، تتسلط على فتفل من بأسى وتوهى جلدى وتثلم عزيمتى ، فماذا تكون الحال ؟ لا ريب أنى سأذهب إلى المكان المحدد للمبارزة ، فإلى هذا الحد تدفعنى إرادتى ، ولكن هب أنى بعد مصيرى هنالك أصابتنى رعدة أو إغماء ؟ أليس فى ذلك مضيعة لكرامتى وشرفى وسمعتى ؟ وكيف أرفع رأسى بعد ذلك أمام الناس وأسير بينهم ؟ »

ثم عزم بغتة على القيام إلى المرآة ليتأمل فيها نفسه ، فأشعل شمعة ، ولما أبصر خياله فى المرآة لم يكد يعرف نفسه ، وكأنما كان يرى إنسانا أخر لا عهد له به ولم تقع عليه عينه من قبل . لقد كان أصفر شاحبا ، وقد اتسعت عيناه اتساعا منكرا .

ولبث واقفا إزاء المرآة ، ثم أخرج لسانه ليختبر حالته الصحية ، وإذ ذاك خطرت عليه خاطرة مزعجة ...

« فى مثل هذه الساعة من اليوم التالى ربما صرت جثة هامدة تعلوها صفائح القبر وجنادله »

واشتد خفقان قلبه ..

« نعم ، ربما صرت رهينة اللحد فى مثل هذه الساعة من اليوم التالى ، هذا الشخص الماثل الآن أمامى ، هذا (أنا) الذى أراه فى المرآة ربما انعدم وانمحى ! يالله ! ها أنا ذا ، أنظر إلى نفسى ، وأشعر بنفسى حيا عائشا ، ومع ذلك فلعلى بعد أربع وعشرين ساعة أكون منطرحا على هذا الفراش مغمض العينين مسجى ميتا ، كتلة باردة جامدة ! »

ثم استدار نحو الفراش فخيل إليه أنه يرى نفسه رأى العين ممدودا على السرير ، مسترخى اليدين شاحب المحيا .

فارتاع من فراشه وتحاماه ففر منه إلى غرفة التدخين ، ثم تناول سيجارة فأشعلها ، وأقبل يجوس خلال الغرفة جيئة وذهابا ، وكان مقرورا فخطا خطوة نحو الجرس ليوقظ الخادم ولكنه توقف ويده مرفوعة تلقاءه وقال فى نفسه :

« كيف أظهر أمام خادمى وأنا على هذه الحال من الاضطراب ؟ سيرى أننى خائف مذعور »

وبدل دقة الجرس أوقد نار الصلاء بنفسه وكانت يداه ترجفان كلما لمستا شيئا ، ثم أصاب رأسه الدوار واختلطت عليه أفكاره ، وتشوشت خواطره وتشردت ، وأصاب روحه نوع من الفتور والتحذير كأنما كان يسكر وقد صدمته حميا الكأس .

كان طول هذه المدة لايزال يردد فى نفسه :

« ماذا أصنع ؟ ماذا سيكون من أمرى ؟ كيف تكون خاتمتى ؟ »

وكان ينتفض انتفاضا من فرعه إلى قدمه ..

ثم نهض وتقدم إلى النافذة فأرخى ستائرها ..

وكان الصباح ـ صباح يوم صائف ـ قد أسفر وقد ألقى الأفق الوردى وهجا أرجوانيا على المدينة وسقوفها وجدرانها ، واستفاض الضياء على العالم المستيقظ يلفه فى بردة من السنا الوضاح ، إشفاقا عليه وحنوا ، وأشعل وميض الفجر فى صدر صاحبنا الفيكونت آمالا جديدة ، فقال فى نفسه :

« ما أشد حماقتى وسخفى إذ أستكين لعوامل الخوف وأستسلم ولما يحدث

شئ ألبتة ، ولا جرت أية مفاوضة بين الشهود ، ولا ضرب ميعاد ولا حدد مكان ولا عرف بعد هل الخصم يريد البرازة أو يأبى ! »

ثم إنه استحم وارتدى ثيابه وغادر داره بقدم ثابتة .

وجعل يقول لنفسه « يجب على أن أستشعر الثبات والرزانة .. الثبات والرزانة .. يجب على أن أتظاهر بأنى لست خائفا »

ولقيه شاهداه المركيز والكولونيل وصافحاه بحرارة الإخلاص ، وابتدأت المناقشة فى أمر المبارزة .

قال الكولونيل :

« تريد مبارزة جدية ؟ »

فأجاب صاحبنا الفيكونت :

« نعم .. جدية للغاية »

فتدخل المركيز قائلا :

« تريدها بالمسدس ؟ »

« نعم »

« وتترك لنا سائر الإجراءات والتصرفات ؟ »

فأجاب الفيكونت بصوت ملجلج يابس :

« المسافة عشرون خطوة - والإطلاق على إثر إشارة تعطى - وتكون الذراع مرفوعة لا مخفوضة - تتبادل الطلقات حتى يصاب أحدنا بجراحة بليغة »

فقال الكولونيل بلهجة ارتياح :

« هذه وأيم الله شروط مرضية ، وأنت - بلا شك - نعم الرامى المسدد ، وأخلق الرجلين بالنجاح والظفر »

ثم افترقوا ، وعاد الفيكونت إلى داره ليبقى فى انتظارهما

ولما احتواه منزله عاوده من اضطرابه ما كان زايله ، ولكنه عاوده مضاعفا ، وما برح على مر اللحظات ، فأحس فى ذراعية ورجليه وصدره ارتعادا - رعشة

دائمة مستمرة ، ولم يرحه الوقوف ولا الجلوس ، بل كان في كلتا الحالتين متألما ملتاعا ، وقد يبس من شدة العطش حلقه ، وجعل من حين لآخر يطقطق بلسانه كأنما يحاول انتزاعه من سقف حلقه وكان به لاصقا .

ثم حاول أن يتبلغ بلقمة من الزاد فلم يجد للطعام شهية

ثم خطر له أن يلتمس الشجاعة في الشراب ، فتناول إبريقا من - الروم — فتجرع منه ست زجاجات متوالية .

وأعقب ذلك حرارة متقدة في جسده يتلوها خمود في قواه النفسية - ثم قال في نفسه .

« إني أعرف كيف أخوض غمرات هذه الورطة ، سأبلغ مرامي على أية حال »

ولكنه عاد بعد ساعة (كان قد استنفد في خلالها كل ما في الزجاجة) إلى أسوأ حال من القلق والاضطراب ، وأحس رغبة شديدة تدفعه إلى أن يطرح نفسه على الأرض فيعض بساطها ويضج ويصرخ .

وأقبل الليل .

ودق الجرس فأطفر الرعب أحشاءه ، وجمد مكانه فلم يستطع أن ينهض لاستقبال شاهديه .

ولما دخلا عليه قال له الكولونيل :

« لقد تم كل شئ كما تشاء ، وقد قبل خصمك الشروط كما أمليتها - بمزيد ارتياح – أما شاهداه فمن طائفة الجنود »

قال الفيكونت :

« جزاكما الله خيرا »

وقال المركيز :

« نرجوك أن تسمح لنا بالانصراف فإن لدينا مهام كثيرة ، مثل اختيار طبيب ماهر إذ أن المبارزة لن تنتهي إلا بحدوث جرح خطير ، وأنت تعلم أن جراحات الرصاص ليست مما يستهان به — ومثل اختيار موضع يكون على مقربة من منزل

أحد الأصدقاء ليتسنى لنا نقل المصاب إليه إذا اقتضت الحال ذلك »

قال الفيكونت :

– جزاكما الله خيرا .

قال الكولونيل :

« لعلك بخير حال ، وفى غاية الثبات والهدوء »

قال الفيكونت .

« بخير حال وفى غاية الثبات والحمد لله ، جزاكما الله خيرا »

وانصرف الرجلان .

ولما ترك وحده أحس كأنه يوشك أن يجن . وكانت مصابيح البيت قد أوقدت فجلس إلى المكتب ليحرر بضع رسائل .

تناول صحيفة بيضاء وكتب عليها « هذه وصيتى الأخيرة » وما كاد يفرغ من هذه الكلمة حتى وثب من مكانه مذعورا مشرد العقل .

وقال فى نفسه :

« وكذلك قضى الأمر وحم القدر ، أصبح حتما على أن أبارز لا مفر ولا مناص ، لا مراء أنى أريد أن أبارز وسوف أذهب للمبارزة ، وقد عقدت النية على ذلك ولكن ما هذا الذى يعرونى ؟ إنى على الرغم من تحفزى لهذه المعركة واستجماع قواى وبذل كل ما لدى من قوة الإرادة والعزيمة ، أجدنى مسلوب القوة مسترخى الأوصال مفكك المفاصل ، ترعد فرائصى وتصطك أسنانى من آن لآخر »

ثم أراد أن يعمل تجربة للمبارزة ليطمئن على نفسه ، فعمد إلى صندوق فأخرج منه مسدسا ثم وقف وقفة الرماية ، ورفع بالسلاح ذراعه ولكنه ظل يرتعش من قدمه إلى قمته ، والمسدس يرتج فى قبضته .

وحينئذ قال فى نفسه « مستحيل ، مستحيل ، لا أستطيع المبارزة وأنا على هذه الحال »

ثم نظر بطرف المسدس فى ذلك الثقب الأسود الضيق قاذف الحمام ولافظ

المنية ، وفكر فى العار وضياع الشرف والمروءة ، وفى تهامس الناس عليه بالأندية والمجامع ، وابتسامات الازدراء أثناء السهرات فى الحفلات والسوامر ، وفى احتقار الغانيات وتهكم الصحف وتنديد الجرائد ،وفيما سينهال عليه من شتائم الجبناء والأنذال .

واستمر ينظر إلى المسدس ، وأخيرا رفع الزناد وكان المسدس معمرا بطريق الصدفة أو السهو ، فسر لذلك من حيث لايدرى علة سروره .

لقد علم أنه إن لم يبل فى المبارزة أحسن البلاء ويبد أقصى منتهى الرزانة ورباطة الجأش ، سقطت مروءته وضاع شرفه وذهبت كرامته أبد الآبدين ! ثم لينبذن فى أسفل السافلين !

وعلم أيضا أنه لن يستطيع أن يبدى ساعة البراز تلك الرزانة والثبات ، ولكنه كان مع ذلك يعهد فى نفسه الشجاعة بدليل أنه - لم تتم فى ذهنه الجملة ! وذلك أنه فتح فاه فأغمد فيه أنبوبة المسدس إلى حلقومه ، ثم جذب الزناد .

ولما هرع الخادم مذعورا إلى الغرفة وجد سيدة مجندلا على أرضها وقد لوث الصحيفة البيضاء المستقرة على المائدة شؤبوب من دمه ، وأحدث بقعة كبيرة حمراء تحت هذه الألفاظ « هذه وصيتى الأخيرة »

الشيطان

وقف الرجل الفلاح أمام الطبيب ، وإلى جانب فراش المرأة المحتضرة التى كانت عجوزاً متهدمة محطمة ، ولكنها هادئة مستسلمة للقاء حتفها تصغى إلى حديث الرجلين ، وكانت فى الثانية والتسعين من عمرها .

ومن خلال النافذة والباب المفتوح كانت أشعة شمس يولية تتدفق وتنهمر ، ورائحة الحشيش الدافئ والبرسيم المحترق فى الشمس تفد على أجنحة النسيم العليل ، وكنت تسمع دوى النحل وطنين اليعاسيب وصرير الفراش والصراصير .

وقال الطبيب :

– اسمع يا « أونور» ينبغى لك ألاّ تترك أمك وحدها على هذه الحال ، فإنها عرضة للوفاة ، وقد تموت فى أية لحظة .

فأجابه الفلاح بعناد وإصرار :

– ولكن لا بد لى من تفقد أحوال زراعتى ، إنى أترك أمى المتحضرة وحدها ، .. على أنى علم الله قد أهملته طويلا وحسبى ذلك وكفى .

ثم التفت إلى أمه وسألها قائلا :

– ما رأيك يا أماه ؟

وكانت الأم كسائر أهل جنسها من فلاحات « نورماندى » شديدة البخل والجشع، فأومأت إلى ابنها بما يفيد أن استمر فى حصاد القمح ودعنى أمت وحدى .

ولكن الطبيب استشاط غضبا وقال للفلاح :

– كيف تبلغ بك القسوة هذا المبلغ ؟ إذا كان لابد لك من جمع قمحك اليوم فامض لذلك ، ولكن استحضر المرأة المسماة « لارابيب » للعناية بوالدتك . أسامع أنت ؟ وتالله لئن لم تفعل ذلك لأتركنك تموت وحدك كالكلب الضائع

إذا جاء دورك .

وظل الفلاح نهبا موزعا بين شتى عوامل البخل والوهم والخوف من الطبيب ، فبقى مترددا يحسب ويقدر ، وأخيرا قال متلجلجا :

– وكم ترانى أدفع لتلك المرأة « لارابيت » ؟

قال الطبيب :

– ومن يدرينى ؟ ذاك يتوقف على مسافة العمل الذى تريدها لأجله ، ولابد من الاتفاق معها على هذا ، وعلى أية حال لابد أن تكون المرأة ههنا فى ظرف ساعة .

قال الفلاح :

– سكن من سورة هياجك وغضبك أيها الطبيب ، سأستحضر المرأة ههنا بلا أدنى شك .

وكانت « لارابيب » هذه عجوزا تستأجر للقيام بالأعمال السخيفة المضجرة المسئومة ، كانت تخيط أكفان الموتى ، وتغسل ملابس الأحياء ، وكانت مغضنة البشرة مشنجة الأديم كأنها تفاحة العام الفائت ، سيئة الخلق ضجورا برمة ، حسودا حقودا ، تمشى مقوسة القناة يكاد ذقنها يضرب أطراف قدميها ، وكانت تكتسب رزقها من شتى أساليب مدهشة وطرق عجيبة .

وكانت لا تكاد تتكلم إلا عن الموتى ومن هم فى سكرات الموت ، وتروى قصص الوفيات والدفنات وتشييع الجنازات ، كما يروى الصياد حكايات مصايدة ومقانصة .

ولما وفد عليها الفلاح « أونور بونتام » وجدها تكوى ثيابا .

فقال لها فى أدب ورقة :

– عمى صباحا مدام لاربيب ، كيف حالك :

فأجابته قائلة :

– عم صباحا مسيو بونتام ، إنى بخير حال ، أشكرك ، وأنت كيف حالك ؟

– أما أنا فكما تودين .. على خير حال ، وإنما المبتئس والدتى

– وما خطبها ؟

– إنها تحتضر .

فبرقت فى مقلتيها الهرمتين المائيتين بارقة سرور ، وقالت :

– وقد بلغ بها الأمر ذاك ؟ عجبا !

– أجل لقد يئسنا منها وسلمنا فيها الأمر لله ! اسمعى يا مدام لاربيب ، كم تتقاضين منى أجرا على عنايتك بها وقيامك عليها إلى النهاية ؟ إنى لست مثريا ولا بنكيرا ، إنى من الفقر والفاقة كما تعلمين ، وهو الفقر الذى قد انتهى بوالدتى المسكينة إلى هذه الخاتمة المحزنة ..

قالت العجوز :

– ليس عندى سوى أجرتين « تسعيرتين » : واحدة للأغنياء وأخرى للفقراء ، الأولى شلنان نهارا وشلنان ليلا ، والثانية عشرة بنسات نهارا وشلن ليلا

فأقبل الفلاح يتروى ويتدبر ، لقد كان يعلم أن أمه صلبة العود متينة قوية ، وأنها على رغم ما زعم الطبيب ربما استغرقت حالة النزع معها أسبوعا كاملا ، وعلى ذلك التفت إلى العجوز وقال لها مساوما :

– اسمعى يا هذه .. إنى أوثر أن نجعل الاتفاق على المدة جميعا ، ومن حسن حظك أن الطبيب هدد أن الوفاة قد تحصل من دقيقة لأخرى ، وفى هذه الحالة تكونين أنت الرابحة وأنا الخاسر ، وأما إن مد الله فى أجلها قليلا فيكون لى الغنم وعليك الغرم ، ..

فاندهشت العجوز من هذا الاقتراح ، لاسيما أنها لم يسبق لها قط المقامرة على أرواح العباد ، .. على روح سيدة طيبة ، ووالدة رجل طيب ، ولكن تلك المساومة أثارت فى نفسها غريزة الجشع فقالت: إنه على كل حال لايأتى الاتفاق إلا بعد أن أرى حالة المريضة .

قال الفلاح :

– اذهبى معى لتريها .

ولما اقتربا من البيت قال الفلاح فى نفسه :

– ما أقدر الله أن يكون قد أماتها الآن وأراحنا من دفع هذا المبلغ !

ولكن العجوز لم تمت ، وإنما كانت لاتزال راقدة على فراشها فى غاية الهدوء والأمن والطمأنينة ، يداها المعروقتان الشبيهتان بمخلبى سبعة منشورتان فوق اللحاف وأنفاسها تنبعث ثقالا كثافا ، وتقدمت العجوز الأخرى « لاريب » ، فأقبلت تجس النبض وتصغى إلى حركة التنفس ودقات القلب .

وبعد إعادة الفحص على المرأة المحتضرة والكشف الدقيق المستقصى ، غادرت الحجرة يتبعها الفلاح ، وكانت قد عملت حسابها بما لا يحتمل مراجعة ولا مناقشة ، ثم قررت أنه لن تكون وفاة فى تلك الليلة على أية حال .

وقال المسيو « أو نور » :

– خيرا ؟

قالت العجوز :

– سيستغرق الأمر يومين ، وأجرتى ستة فرنكات – (مكفى) -

فشهق أونور شهقة رعب وفرق ، وقال :

– ستة فرنكات ! أمجنونة أنت ؟ ستة فرنكات ! عجبا ، عجبا ! إنها لن تستمر أكثر من ست ساعات .

واستمر يقاول ويساوم ، ويساوم ويقاول ، ويجتهد ويتشدد ، حتى بح صوته وتفصد جبينه عرقا ، وأخيرا لما رأى إصرار المرأة ، وتذكر أن القمح وراءه قبل على مضض ، وقال :

– الأمر لله – لاجرم – ستة فرنكات ! فلتكن ستة فرنكات ، والمدة إلى الانتهاء من دفن الجثة ، لا تنسى ذلك .

ومضى « أونور » لجمع الغلال ، وأخذت العجوز مقعدها بجانب المرأة المحتضرة ، وكانت أتت معها بما كانت تخيطه من الثياب كيلا تضيع لحظة من وقتها سدى ، ثم إنها التفتت فجأة إلى المرأة المحتضرة وقالت :

– هل جاءوك بالقسيس يا سيدتى ؟

فهزت العجوز رأسها نفيا .

عند ذلك نهضت « لاربيب » مسرعة .

– الله أكبر ! كيف يهملون مثل هذا الأمر العظيم ؟ إذن لابد لى من الذهاب لاستحضار القسيس .

وجاء القسيس يسبقه غلام له يدق جرسه إيذانا بمصعد بعض الأرواح إلى عرش الله ، وفى أثناء مروره بالحقول والمزارع جعل الفلاحون يخرون سجدا إلى الأذقان .

وشاهد ذلك الفلاح « أونور » وهو يجمع القمح فى حقله ، فأدرك الأمر ، ولكنه لم يبد أقل دهشة ولا أدنى عاطفة .

وحضر القسيس المعروف فراش الموت ، واعترفت المرأة المحتضرة ونالت الغفران ، وذهب القسيس وبقيت العجوزان في الحجرة الصغيرة وحدهما .

وجعلت « لاربيب » تعجب للعجوز كم من الزمن تستغرق في النزع وكم يمضى عليها قبل أن تموت . لقد ولى النهار وأقبل الغسق تتسلل من خلال النوافذ ظلاله – كل ذلك والسيدة الهرمة مدام « بونتام » مضطجعة على فراشها هادئة ساكنة وادعة مطمئنة ، مفتوحة العينين محملقة النظرات ، بيد أن أنفاسها كانت تزداد ضيقا وكربا ، وسرعان ما تجد نساء العالمين قد نقص منهن واحدة تذهب غير مأسوف عليها .

وجاء الفلاح « أونور » عشاء ، ودنا من الفراش فأبصر أمه على قيد الحياة ، فأطلق سراح المرأة « لاربيب » وأمرها أن تبكر الغداة من الساعة الخامسة . وفى الصباح ، لما انتهى « أونور » من تناول الفطور والحساء الطيب الذى كان صنعه لنفسه ، دخلت عليه العجوز « لاربيب » فابتدرته سائله :

– كيف حال أمك اليوم يا أونور » ؟

قال الفلاح بسوء نية ولؤم :

– حالها أحسن والحمد لله .

ثم غادر البيت إلى المزراع .

وأجرت العجوز عملية فحص دقيق أسفرت لها على أن المرأة المحتضرة ربما

بفيت يومين آخرين ، بل أربعة ، بل ربما استمرت أسبوعا ، فثارت غريزة الجشع فيها ضد هذه الفكرة ، فكرهت الفلاح « أونور » من أعماق قلبها لأنه خدعها وغبنها ، بل لقد حقدت على العجوز أشد الحقد لإصرارها على البقاء وعنادها بلا أدنى مبرر لذلك ،ولكنها على الرغم من كل ذلك جلست إلى شغلها وبذلت أقصى جهدها فى سبيل التصبر للخطب والتجلد لحر المصيبة .

وجاء « أونور » تلك الليلة فرحا جذلان منشرح الصدر إذ كان قد وفق إلى جمع محصوله ، ولكن العجوز « لاربيب » جعلت ترى أن كل دقيقة تمكثها إنما كانت خسارة عليها فى الزمن وفى الأجر ، فكانت تتمنى فى أعماق قلبها لو استطاعت أن تقصف رقبة العجوز .

ولكن فى اليوم التالى حضرتها فكرة بديعة ، فأقبلت تضحك لنفسها وتقهقه وكأنها نسيت أنها فى حضرة امرأة محتضرة . ثم إنها كتمت ضحكها واقتربت من الفراش وسألت المريضة قائلة :

– هل رأيت الشيطان قط ؟

فنبست العجوز قائلة :

– كلا .

وانبرت « لاربيب » تقص عليها أخوف القصص وأروع الأحاديث عن الشيطان الرجيم ، لتستطير لب العجوز المسكينة وتنخب فؤادها ، فمما حدثت أن إبليس عليه لعنة الله إلى يوم الدين ربما ظهر لعباد الله وهم على فراش الموت فى آخر لحظاتهم ، ثم يبدو لهم مقنع الرأس بحلة سوداء حديثة عهد بالكوائن وفى يده مكنسة طويلة ويصيح أنكر الصيحات وأهول الصرخات ، ومن رآه لفظ النفس الأخير وفارق الحياة للتو واللحظة ، لايعيش بعد ذلك ثانية .

وشرعت تتلو حكايات خاصة عما حدث من هذا القبيل لنساء بأعينهن كن من أترابهن فيما سلف .

فارتاعت الأم بونتام العجور ، وتحركت يداها ولــوت عنقها ورأسها لتدور بعينها فى أنحاء الحجرة .

واختفت « لاريب » فذهبت إلى حجرة « أونور » فطفقت تفتش فى خزانة ثيابه ، ثم ذهبت إلى المطبخ فتناولت حلة صغيرة فلبستها على رأسها ، وهنالك برزت أرجل الحلة فوق جبهتها كأنها قرون إبليس اللعين حذوك النعل بالنعل ، وتناولت بعد ذلك مكنسة ،وأخذت يد الهاون فقذفت بها الوجاء فأحدثت ضجة هائلة لتوهم المرأة المسكينة أن إبليس قد هبط المنزل .

ثم إنها مضت إلى حجرة المريضة فأماطت ستار الباب ، وظهرت للمرأة المحتضرة على تلك الصورة الشنعاء ، وأقبلت تصيح وتعول ، وتضج وتولول ، وتنطوى وتنتشر ، وتلتوى وتتمطى ، وتهز رأسها وتلوح بيديها ، .. وهنا طار عقل المرأة المحتضرة وجن جنونها ، فبذلت مجهودا هائلا للنهوض من فراشها والهرب .

ولكن ذاك المجهود كان فوق ما تطيق وتتحمل ، فسقطت على الوسادة جثة هامدة وقد لفظت آخر أنفاسها .

ونزعت « لاريب » الحلة عن رأسها ، وأعادت المكنسة إلى مكانها بكل تؤدة وسكون كأن لم يحصل شئ ألبتة ، ثم سجت المرأة المتوفاة وأغمضت أجفانها بمهارة فنية ، وركعت عند أسفل الفراش وشرعت تتلو صلاة الوفاة التى كانت تحفظها ظهريا .

ولما عاد الفلاح « بونتام » وألفى أمه ميتة أدرك في الحال أن المرأة لاريب قد غبنته فى المساومة بما لا يقل عن عشرة بنسات ، لأن وفاة أمه جاءت مبكرة عن الموعد المحدد بمقدار نهار .

كيف جُنّت

على مقربة من الضفاف الزاهرة التي يغمرها نهر اللوت باللثمات الخضرة الرطبة من لجته البلورية الشفافة ، تحت ذوائب الدوح المنشورة ، كان يستكن كوخ صغير ، هنالك في صباح يوم من أيام الربيع الضاحكة كانت تجلس فتاة صغيرة في غمرة من التفكير والإطراق . في تلك الساعة كانت تعمل القرعة لتجنيد الفتيان ببلدة تونين المجاورة ، وكان فريق من هؤلاء يترقب نتيجة الاقتراع التي عليها يتوقف حظه في هذا العالم . وهذه النتيجة كانت الفتاة ترقبها أيضا . لقد رفعت إلى السماء عينا حيرى مولهة تجول على زرقتها دمعة كلؤلؤة الطل على البنفسجة الغضة ، وأصعدت إلى الله دعوة ملهوفة من كبد حرى مصدعة ، فما ترى يكون معنى ذلك كله ؟ أو ليست مليحة حسناء ؟ أو لم يصورها البارئ كما تود وتشاء ؟ أو لم تجمع فيها يد القدرة ماوزعت على سائر البشر من فتن ومحاسن ؟ كذلك كان يراها الناس وكذلك كانت ترى نفسها . وإلا فما هذه المرآة الصغيرة المعلقة على جانب فراشها ؟ على أنها – والحق يقال - لم تنظر اليوم فيها ولا مرة واحدة .

بينما الفتاة على هذه الحال من القلق والإشفاق ، والهم الناصب والكرب والأليم ،دخلت عليها تربها وجارتها الفتاة أنيتا » وكانت أيضا في كربة . ولكن لوعتها كانت تحوم حول القلب ، بينما لوعة الفتاة « مارثا » كانت تهتك حجابه وتذيب حبته .

قالت مارثا : إنك لسعيدة يا أنيتا . خبريني هل سحبت القرعة ؟ هل نجا الفتيان ؟ هل هو حر طليق ؟

قالت أنيتا : لم أعرف بعد شيئا ، ولكن اتئدى يا عزيزتي ، ستعلمين عما قليل ، شد ما ترجفين وترعدين وإن وجهك ليخيفني . هبي صاحبك جاك قد أصابته القرعة ، ماذا تصنعين ؟ إذن والله تهلكى على أثره كمدا » .

مارثا : « ربما كان ذلك » أنيتا ضلة لك ! أية طفلة أنت ! تقولين إنك تهلكين لو اقترع ؟ هذا هو السخف بعينه . قد تعلمين أنى أحب يوسف . أفإن اقترع فارتحل أكنت قاتلة نفسى من جراء ذلك أسفا ؟ كلا ! وحسبه والله منى زفرة فعبرة ، ثم انتظار أوبته ، ولا موجب للموت بعد ذلك ، وهل رأيت أو سمعت بفتى مات من فـرقة خليلته ؟ فلم تموت الفتـاة من فرقة خليلها ؟ ويل لك ! خففى عنك وهلمى نستطلع حظنـا من ورق اللعب . لقـد استفتيت الورق عن حظى اليوم فأسفر لى عن الخير محضا ، ولعله مسفر لك عن مثل ذلك .

تجلس الفتاة اللعوب المرحة وهى تكفكف من حدة طربها وغلواء نشاطها وميعتها ، ثم تنشر رقعة من الديباج الأخضر المتألق وتهز الورق فى يديها ، وقلب الغادة مارثا أثناء ذلك يخفق وتارة يسكن ، وترص أنيتا الأوراق فتستقر أحشاء مارثا هنيهة ويشيع روح الأمل فى جوانحها وتقبل على الورق المرصوص .

يكوم الورق ثلاثة أكوام و« يفنط » ثم يقطع ثلاثا . بشرى خير ! ملك (إحدى الأوراق) . انظر إلى الغادتين تبصر منظرا عجبا . ثغرين حلوين لا نفس ولا صوت ، يبتسمان فى خوف وإشفاق ويتبعان حركة الأوراق ، وعلى شفتى مارثا تستقر الهوينا ابتسامة عـذبة كالأقحوانة الندية . ثم يظهر « ولد » ثم « بنت » ، والآن إذا لم يظهر « اسباتى » أسود الوجه كريه الطلعة خبيث النية ، فالفتى جاك حر طليق بإذن الله سبحانه وتعالى . وبعد فلقد سحبت الفتاة ست ورقات من « الاسباتى » والحمد لله فلا خوف ولا خطر . وإنها « أنيتا » لتضحك وتمزح . ويل الفتاتين ماذا تنظران ؟ لقد طلعت ملكة « الاسباتى » تنذر بالشر والبلاء كما تقذف بجمجمة ميت فى حفلة عرس . صه ! على سواء الطريق تقرع الطبول لها صيحة كأنها ضحكة ساخرة ، وكانت هذه الطبول تتقدم الذين نجوا من القرعة وقد تجاوز عنهم شيطان الحرب حنانا ورحمة بآبائهم وأمهاتهم . وهاهم يتقدمون صفين يثبون ويطفرون ومن حولهم طائفة من الأمهـات بين محبورات ضاحكات ومحزونات باكيات .

ما أهولها لحظة على الغادتين اللتين أنذرهما الورق بالشقاء آنفا ! وتريد مارثا

أن تقطع الشك باليقين فتهرع إلى النافذة ، ولكنها لا تلبث أن ترتد فتصيح فتسقط مغشية عليها إلى جانب أنيتا التى كانت ترعد من الرعب أيضا . قاتل الله « الأوراق » تالله ما نافقت ولا كذبت . وها هو ذا يوسف بين الذين نجوا لبلادهم ، ولكن جاك ؟ لقد أصابته القرعة .

بعد أسبوعين من هذا اليوم المشهود تخرج أنيتا إلى سدة الكنيسة المزخرفة بالأزهار زوجة ليوسف بينما جاك الحزين يودع فى دار البكاء والأسى خطيبته مارثا وتودعه بما يفتت الأكباد رقة وشجى .

قال جاك : « لقد فارقتنا السعادة ، ولكن لاتهلكى أسى وتجملى ، واعلمى أن الجنود قد تعود من الحروب الطاحنة سالمة . إنى فى هذه الحياة منفرد مالى سواك من عون ولا ناصر، فلئن أخطأ الموت حياتى فهى ملك لك ، ومالنا لانعلق آمالنا بيوم لعلنى أحدوك فيه إلى مناسك الزواج كما لو كنت طاقة من الريحان »

* * *

ألا حبذا شهر مايو وهواؤه السجسج العبق النسيم ، وجوه المنبلج الصافى الأديم ، ومجامر شقائقه النفاحة ، ومباسم أقاحيه اللماحة ، وأراقم الجداول فى انسيابها ، ومناصل المسابل مصقولة فى انسكابها ، وقيان الأراك على أرائكها هاتفة ، وأنامل النسيم على أعواد الأيك عازفة .

شهر مايو الذى يملأ الدنيا بهجة ونورا ، وغبطة وسرورا . لقد جاء شهر مايو وكم على السفح والقاع من فؤاد مبتهج يديم شكره ، ولسان منطلق يردد ذكره . ما ألطف قدومه وأحلاه ، وما أسرع نصوله وأمضاه .

فى أخريات فصل الربيع كان يسمع من ناحية ذياك الكوخ الصغير صوت شجى فريد يترنم بهذا النشيد « لقد آب الطير إلى شجره ، والحمام إلى وكره ، وقد اجتمع الإلفان على وفاق ، والتأم الصنوان فى عناق ، وها أنذا أناديهما فيهبطان ، وهذا الحب من كلتا يدى يلتقطان ، وعليهما طوق الحرير الذى طوقها جاك تذكارا ليوم ميلادى . لقد كانا يحبان جاك وأراهما عنه يبحثان ، فعبثا تفعلان . لن تجدا سواى فابكياه لى وبترجيع الحنين فاسعفانى ، ولا تفارقانى ما أشرق النيران ، وحدثانى عن جاك وبذكرياته العذاب أطربانى ، وهنيئا لكما العيش

الرفيه في ألفاف الجنان ، بنجوة من شر فتكات الإنسان ، وما بين الطيور أحقاد ولا أضغان ، ولا تسفك دم أخيه من بينها كف جان ، إنما السفك للآدمى شيمة ودَيدان ؟

واحر قلباه ! لقد انقطعت عنى رسائل جاك وكأنى بنعيه قد جاء ، وأرانى أرجف فزعا وأحس رهبة الفناء وحمى القبور تلتهمنى التهاما ، فخفف اللهم مابى وكفكف من سورة عذابى . »

بأمثال هذه المراثى طفقت مارثا تقطع الأيام والشهور وعمها الكبير يقطع نفسه حسرة عليها والتياعا ، وكانت تراه يبكى فتكتم عنه شجوها وأساها ، وقد حاولت إخفاء بثها عن العالم — ذلك العالم السخيف المضلل المستهوى المتعلق بأهداب الخدع والأباطيل ، الفظ الغليظ الفؤاد المتشاغل عن عيوبه بعيب غيره ، السريع إلى اتهام الأبرياء لايقبل عذرا ولا شفاعة . لقد أقبل هذا العالم يضحك منها ويسخر لايرثى لحالها ولايرق لمصابها ...

وأخيرا أبصر الناس ذات ليلة شمعتين مشعلتين بالكنيسة إيذانا بوفاة . وقال القس « سبحان من له الدوام ، لقد رنق الحمام بجناحيه على فراش صبية معذبة شقية ، فيا عباد الله صلوا على روح مارثا ! »

فنكس القوم الرءوس وجلا وخجلا ، وصعد الدعاء من أعماق القلوب مغموسا في مدامع الندم والتوبة .

ولكنها لم تمت ، وارتد الحِمام من دونها خزيان مصرقا .

لقد أقبل عليها عمها وهى فى سكرة الموت فأسر فى أذنها كلمة مفردة ، كانت كالدرياق للسم القاتل فانجلت غمرتها وتبددت غشاوتها . هذه الكلمة العذبة المعسولة رسبت فى أحشائها الملتهبة فثلجت صدرها ، وأطفأت أوارها ، وردت إليها روحها . لقد نجت .

فياحسنها إذ ذاك وقد أومض بريق الحياة فى عينها الدعجاء ، وتدفق تيار الحياة تحت بشرتها البيضاء ، وارتدت إليها الحياة فى مد زاخر من أمواج الضياء . قال عمها مبتسما لقد اتخذنا للأمر عدته يابنيتى » فأجابت « أجل والله ، فهلم إلى العمل »

عادت مارثا إلى الحياة . ومما أدهش الناس وحير ألبابهم أنها تبدلت من حبها المعهود حبا آخر – ذلك هو حب المال . لقد نهمت بالمال نهما شديدا ، لقد أصبحت شحيحة جشعة ، فقد آض المال بغيتها المنشودة وشغلها الشاغل ، فلو استطاعت لصاغته من دمها دنانير ودراهم .

من هذه الفتاة بضاحية القرية قد اتخذت حانوتا تبيع فيه وتشترى ، وتوقظ الناس بلجبها وضوضائها ؟ هذه مارثا . لقد أحرزت رضا الناس أجمعين وباءت بثنائهم طرا . فكم من قائل « لله الفتاة ما أملح وما أسمح ، وما أطيب وما أعذب » لقد تكاثر عليها ذوو الحاجات تكاثر الخيل فى مكرّها ، والديم فى مدرّها ، والنجوم فى مجرّها ، وقد انهال عليها اللجين انهيالا ، وانثال العسجد انثيالا ، وكان عملها بالسرور مقرونا ، إذ كان جاك لايزال على قيد الحياة ، بذلك كانت لاتغبها الأنباء .

قال لها عمها ذات يوم : « إنك تحتاجين ألف ريال لإدراك بغيتك ، وأراك عما قريب محرزة هذا المبلغ دون اضطرار إلى بيع كوخنا ، فعدّى وفرك تعلمى أنه مع ماتنتظرين من ريع كرمتنا يربى على نصف المبلغ المطلوب ، فلا ترهقى نفسك وتريثى ستة أشهر تبلغى مرادك ، وحسبى أن أراك بخير قبل موتى . »

يرحمه الله لقد خاب ظنه ، إذ قضى نحبه بعد شهرين من ذلك اليوم ، وكم ذرفت عليه الفتاة من عبرة .

وناجت الآنسة ذات ليلة بهذه الكلمة : « عماه ! أيها الروح المقدس فى جوار ربه . يشهد الله وملائكته أن قد فنى جلدى ، وفل حدى ، ومالى على الصبر بعد اليوم من طاقة . سأبيع كل شئ ، وقد استصدرت بذلك فتوى من القسيس » .. ثم شرعت لتوها وساعتها فى تنفيذ هذه النية ، فباعت الدكان والبضاعة والبيت والفرش والأثاث وكل ما ملكت ، إلا صليبا من الذهب وحلة أرجوانية كان جاك يحب أن يراها عليها .

وبذلك اجتمع لها الألف . فواعجبا .. لِمَ تجمع هذا المبلغ ، وفيم تنفقه ؟ .. انطلقت الفتاة فى سبيلها كالريح الشاردة وكأنها إحدى ملائكة الحزن تسمو صعدا إلى أفق السعادة . تالله ماهذه ببارقة تومض وتخفق ، إنما هى قدمها تنهب الأرض نهبا وتطوى بساطها طيا .

دخلت على القسيس داره فجثت بين يديه وابتهلت إليه تقطعها العبرات : « أبتاه لقد جئتك بكل ما أملك ، أفلا تكتب الآن إلى أولى الشأن فتشترى لى حرية جاك ؟ لاتعلمنه أنى أنا التى قدمت فديته ، سيحدثه بذلك قلبه الحساس المطلع على أعمالى من وراء حجب الغيب . لاتذكرن له اسمى فى رسالتك ، ثم لاتخافن على عادية الإملاق والفاقة . إن فى ذراعى هاتين لقوة . حنانيك أيها الأب القديس واردد إلى جاك فلا عيش لى من دونه . »

وكان القسيس قد علم بعد البحث والتحرى أن جاك بإحدى الكتائب المعسكرة بباريز ، وقد مهد السبيل لإخراجه من سلك الجندية ببذل ما تقدمه مارثا من وفرها المدخر ، فوعد خيرا وانصرف .

دع القسيس الآن لما يحاوله من محمود المبان ومشكور المساعى كرامة للفتاة وإبقاء عليها ، ومل بنا إلى ذلك الكوخ الحقير حيث « مارثا » تكد وتكدح لتنال من القوت مسكة الرمق ، شتان بين غابرها وحاضيرها !

بالأمس كانت مثرية تفيض بالذهب خزائنها ، واليوم لا تملك سوى الإبرة والمغزل تدأب بكليهما كدا لاتنى ولاتفتر ، ولكن لابأس عليها من ذلك ولا مضض . لقد كانت دائمة البكاء فى ثرائها وهى فى فقرها الآن دائمة التبسم . سينجو جاك لحياة سعيدة مديدة ، وسيكون الفضل فى استمتاعه بهذه الحياة وبهذه السعادة وبكل ما سواهما من مناعم العيش ومطاربه راجعا إليها — إليها وحدها دون سواها ، وهذا خليق أن يضاعف لها الحب فى قلبه ، وحيثما يكون الحب متبادلا فالفقر مفلول السلاح ضعيف النكاية ! ما أسعدها وما أرغد عيشها . لقد أترعت لها يد الأقدار كأس النعيم حلو المزاج عذب المذاق ، وقد احتست من سلسل رضابه أول رشفة . لقد أشرق لها أفق الرجاء متألقا سعوده ، وأسفر لها صبح الصفاء متبلجا عموده ، وأزهر من حولها روض المنى متأرجا أقاحيه وورده ، وكذلك دأبت الكد شهرا شهرا ، وهى بين ذاك تحتسى حسوات من الشهد المصفى تحت نفحات العنبر الذكية .

وبينما كان مغزلها دائم الحركة ، كان مغزل الأمل يحوك لها من ساعات السرور المنتظرة ما هو أطول من خيوط غزلها مدى ، وأكثر من غرز إبرتها عدا

وكان أهل القرية قد علموا بنبئها فانتصروا وانحازوا لجانبها ، فكانت الأناشيد تنشد على بابها وتعلق الأزاهير فى ليالى القمر ، وتغشاها الصبيات ضحوة فتهديها هدايا صغيرة من الحنان والعطف والإجلال .

وبينا هى على هذه الحال إذ يجيئها القسيس البار ذات صباح متهللا ابراق الأسرة وفى يده رسالة ، وإنه ليرعش ولكن من الفرح لا من الهرم . قال القس : « عمى صباحا أيتها الصبية واسجدى لله شكرا . لقد أسبغ الله عليك منته وأجاب دعائى إذ كلل بالنجاح مسعانا ، ومنّ على جاك بالخلاص والحرية ... وسيكون ههنا يوم الأحد القادم ، وهو حسب رغبتك لايعرف شيئا عما بذلته فى سبيل استنقاذه ، وكل ما بلغ إليه ظنه وتخمينه أن أمه التى ما لبث يجهلها ويجهل مكانها قد ظهرت من طى الخفاء مثرية غنية ، وأنها استخلصته بدفع فديته . فليقدم عليك ، ومتى عرف من كان سبب خلاصه ونعمته ، ضاعف لك الوداد ، وحمل لك بين جوانحه من الحب والحنان مالم يحمله امرؤ من قبله ولا من بعده .

يزعمون أن الأبرار فى الفردوس إذا سمعوا رنين النغم القدسى من الملكوت الأعلى غمرهم السرور عمرا . كذلك كان سرور مارثا حين استقرت فى فؤادها هذه الكلمات الشهية .

برق فجر ذلك اليوم الموعود طلقا مبتلجا ؟

وتجلت عروس الطبيعة ترفل فى حلتى ذهب وسندس ، وتوافد الناس من كل ناحية ، وأقبل القسيس بالفتاة الطاهرة النقية وقد أسبلت أهدابها على نجلاويها الساحرتين وقد عقل الخفر لسانها فلا تنبس ، وحفها من الجماعات كالجيش العرمرم وكأنهم حشدوا لمقدم أمير الكرم أو مليك معظم ، ثم تقدم الجمع حتى أشرف على مرقب الطريق المعبد .

وما هى إلا هنيهة حتى تبدت على جانب الأفق من أقصى مدى هنة دقيقة سوداء كالذرة أو الهباءة ، ثم جعلت تتزايد وتتحرك . إنها لشبح رجل - بل رجلين - جنديين ، أحدهما جاك . ما أحسن هيئته ! لقد نما فى سلك الجندية وكبر ، ومازلا يتقدمان ، ولكن من يرى هذا الشخص الآخر ؟ ليخيل أنه امرأة . حقا إنه امرأة . لله ما أجمل وما أرشق ! فماذا عسى أن يكون تأويل هذا ؟

على شخص هذه المتأبطة ذراع جاك تستقر عينا الفتاة مارثا ملؤهما الحزن كأعين الموتى . بل القسيس ذاته يقف مبهوتا يرتعد من ذؤابته إلى قدمه ، وقد خرس القوم وجمدوا فلا حس ولا حراك .

يتقدم الرفيقان يتضاحكان ويتغازلان ، ولكن جاك يبهت فجأة وعلى وجهه ترتسم أشد آيات الألم . لقد أبصر مارثا !

ولايلبث جاك أن يقف خزيان يرتجف ، ولا يملك القسيس كتمان مايفعم قلبه فيصيح « جاك ، من هذه المرأة ؟ » ويقول جاك – كالمجرم الأثيم - بصوت خافت « هذه بارك الله فيك زوجتى »

حينئذ تسمع صرخة شديدة تصدع أديم الجو ، ويلتفت القسيس إلى مارثا : « تجلدى أيتها الفتاة . نحن بنى الدنيا كلنا هدف بنكباتها » .

ولكن مارثا جمدت مكانها وحصرت فهى لاتفوه ولا بزفرة ، والكل يرمقونها ويحسبون أنها ستلفظ النفس الأخير لتوها وساعتها . ولكنها لم تمت بل يخيل أنها تروض نفسها على العزاء والسلوى ، وأقبلت على جاك تحييه وترحب به ، ثم أرسلت ضحكة جنون عالية . لها الله ! سوف لاتضحك غير هذه الضحكة : لقد جنت .

ولما وقف جاك على حقيقة الأمر خرج من القرية هائما على وجهه ، ويزعمون أنه عاد إلى الجيش متطوعا ، وأنه سئم الحياة لما ألح على حشاه من لذعة الندم ولوعة الألم ، ولما رزح تحته من فادح هذا الإثم الجلل ، فقذف بروحه المعذبة فى فوهة المدفع .

وماذا أصاب مارثا ؟ رحم الله مصرعها ، وبرد الله مضجعها . لقد أفلتت من حراسة أوليائها ذات ليلة وتشردت فى الآفاق ثلاثين سنة كانت تظهر خلالها بقريتنا حينا بعد حين ، فإذا أبصرها الناس قالوا « لقد أظهر الجوع مارثا » ثم يطعمونها . والحق أنهم ليحبونها وإن لم يعلموا من أمرها شيئا ويحسنون عشرتها . إلا الأطفال أولئك القساة الغلاظ الأكباد الذين لايرحمون مخلوقا ويضحكون من كل ما يستوجب البكاء – أولئك كانوا يطاردونها صائحين « الجندى وراءك يامارثا ! » وإذ ذاك كان يحفز الرعب أحشاءها فتضرب فى الأرض اعتسافا .

وأنا أيضا كم صنعت بها صنيع أولئك الأطفال ، وكنت مثلهم طفلا ولم أك أعرف من أمرها شيئا . فلما كبرت وبلغنى حديث مأساتها وددت لو أنى لقيتها فتناولت أطراف أطمارها الممزقة بأحر اللثمات استغفارا ، وجثوت تحت قدميها استقالة واعتذارا . ولكن لا أبصر من أثرها سوى قبر بقفرة ، سأنثر عليه الزهر معطارا ، وأستنزل السماء مدرارا .

مشعوذ العذراء

زعموا أنه كان ببلدة « كومين » بفرنسا فى عهد الملك لويز ، مشعوذ فقير اسمه « بارنابى » يتجول من بلدة لأخرى لالتماس القوت من ألاعيبه .

كان فى أيام الأسواق يفرش بساطه البالى القديم فى الميادين العمومية ، فيستدرج أطفال البلدة وعاطليها بخطابة فكاهية كان قد تعلمها من أستاذه فى الصنعة – مشعوذ من أعتق المشعوذين وأمكرهم - فإذا أحدقت به حلقات الأطفال والعاطلين أقبل يتلوى أمامهم أشكالا ، ثم يضع صينية من الصفيح على طرف أنفه ، ولكن جموع المتفرجين كانوا لايظهرون عظيم اكتراثهم لذلك ، فإذا ما وقف لهم المشعوذ الماهر على يديه مكبا بوجهه ، وتناول ست كرات نحاسية تتلألأ فى شعاع الشمس فقذف بها فى الهواء ثم تلقفها بقدميه - أو إذا ما انطرح إلى الوراء حتى يلتقى قفاه بعقبية فيبدو جسده كالعجلة ، ثم تناول وهو على هذه الحالة اثنى عشر خنجرا فلعب بها ألاعيبه المدهشة ، – حينئذ تنبعث من الجموع ضجة عجب وإعجاب ، ويمطر البساط القديم بوابل من الدراهم .

على أن هذا المشعوذ النابغة كان كسائر النوابغ الذين يعيشون بذكائهم وعبقريتهم ، يكابد العناء الأكبر فى سبيل إحراز قوته .

وكانت لا تزال تعترضه العقبات والحوائل – لقد كان ضوء الشمس وحرارتها ضروريين لإظهار أعاجيب ألاعيبه ، كضرورتهما للشجرة إذا كان ينتظر منها الزهرة والثمرة ، لذلك كنت تراه فى الشتاء كالشجرة المجردة العارية – بل كالشجرة الميتة ، ولا غرو فالأرض المثلوجة بلية على المشعوذ، لاتجود عليه إلا بالجوع والقرة ، ولكنه كان لسذاجة طبعه يضطلع بالخطب ، ويصبر على البلوى .

ولم يكن قط قد بحث فى موضوع الثروة ولا فى أصلها ومنشئها ، ولا فى تفاوت أحوال الناس يسرا وعسرا . لقد كان يعتقد أرسخ اعتقاد أنه إذا حرم الإنسان فى هذه الحياة الدنيا ، فإنه لابد واجد أحسن العوض والجزاء فى الآخرة ،

وهذه العقيدة كانت تؤيده وتشد من أزره . إنه لم يكن من قبيل السفلة الأدنياء المشعوذين الذين قدْ باعوا الشيطان أرواحهم ، ولكنه كان برا صالحا تقيا على صراط مستقيم ، وكان – وهو الأعزب – لا ينظر إلى جارات بيته نظرة منكرة ، وما عرف قط أنه سعى لريبة .

والواقع أنه كان عزوفا عن الشهوات التناسلية وإن أحب الشراب أحيانا ، وكانت بغيته فى الكأس أكثر منها فى الساقية ،– وعلى أية حال ، لقد كان رجلا فاضلا يخاف الله ويمجد العذراء ، فكلما دخل كنيسة خر راكعا أمام تمثالها الميمون ورفع عقيرته بهذا الدعاء :

إليك أضرع أيها البتول أن تشمليني بعين رعايتك فى الدنيا وترزقينى الشفاعة فى الآخرة »

* * *

فى ذات مساء غب سماء ، بينما كان المشعوذ « بارنابى » يسعى فى مناكب الأرض يبتغى مستظلا يأوى إليه ، أدرك راهبا فحياه وسارا معا ، وسرعان ماتجاذبا أطراف الحديث ، قال الراهب :

« خبرنى أيها الرفيق ، مامعنى ارتدائك هذا اللباس الأخضر ، أممثل أنت وقد أعطيت دور الماجن فى بعض الروايات الهزلية ؟ »

فأجاب « بارنابى » :

« كلا أيها الأب المبارك ، إن اسمى « بارنابى » والشعوذة مهنتى ، وإنها وأبيك نعم المهنة لو كان كسبها متداركا ، ورزقها متلاحقا »

قال الراهب :

« صديقى « بارنابى » ، احذر ماتقول ، تزعم أن الشعوذة نعم المهنة ولست فى ذلك بمصيب ، وإنما حق هذا الوصف أن يسند إلى الرهبنة فإن أسعد العيش عيش الراهب ، الذى لاهم له ولا عمل ولا صناعة إلا تحميد الإله وتمجيده ، ثم الصلاة على المسيح والعذراء والحواريين والشهداء ، فما حياة الراهب إلا نشيد متصل غير منقطع ، يرفع إلى مالك الملك جل جلاله .

قال بارنابى :

« أيها الأب الطاهر لا أنكر أنى لم أوفق فى كلمتى هذه ، فإن مهنتكم لتجل والله عن أن تقارن بمهنتى وتوازن ، وإنه وإن كان ثمة شىء من الفضل فى استطاعة المشعوذ أن يرقص وعلى طرف أنفه قضيب قد استقر بأعلاه درهم ، فإنها – بعد – فضيلة لا تدانى فضيلة مهنتكم ، ولا تكاد تشق لها غبارا ، وبودى والله ياسيدى الراهب لو ألتحق بزمرتكم فأقضى بقية أيامى أرتل الأدعية والأناشيد ، ولا سيما ما كان منها خالصا لوجه العذراء وليتى وسيدتى ، ومن آليت أن أكون لها على الدوام مخلصا وفيا ، وإنى – ابتغاء الترهيب - لراض أن أنبذ ذلك الفن الذى ظفرت فيه بالصيت الطائر فى أرجاء الأقطار الفرنسية ، قاصيها ودانيها »

فتأثر الراهب بسذاجة المشعوذ وإخلاصه ، ولما كان صادق الفراسة بدا له فى شخص « بارنابى » أحد أولئك الذين قيل عنهم فى الكتاب المقدس :

« بارك الله فى الدنيا لكل صادق مخلص النية »

ومن ثم قال للمشعوذ :

– صديقى « بارنابى » .

هلم معى إلى الدير الذى أنا رئيسه ، فإن ربك الذى هدى مريم المصرية فى مجاهل الصحراء ، قد ساقنى إليك لأهديك صراطا سويا »

كذلك صار المشعوذ « بارنابى » راهبا ، وكان من عادة الرهبان الذين انضم إليهم « بارنابى » أنهم لايزالون يتنافسون فى عبادة العذراء ، كل يتوسل إليها بجميع ما أوتى من حذق وبراعة فى صناعته .

فكان رئيس الدير يؤلف الرسائل فى إظهار فضائل العذراء ومناقبها.

والأخ « موريس » ينسخ بخطة البديع تلك الرسائل على صحائف الرق .

والأخ « إسكندر » يزخرف تلك الصحائف بالمعجب الأنيق من دقيق الصور ، التى كان من بينها صورة العذراء جالسة على عرش سليمان يربض تحت قدميها – حراسة وخفارة – أربعة أسود غضافرة ، وترفرف حول هالتها سبع حمائم تمثل السبع المواهب الروحانية : الخشية ، والتقوى ، والعلم ، والقوة ،

والمشورة، والفهم ، والحكمة ، ومع العذراء صواحبها ست أبكار من ذهب شعورهن ، وهنّ : التواضع ، والحزم ، والعزلة ، والخشوع ، والعفاف ، والطاعة .

وتحت قدميها شخصان عاريان ناصعان ، على الركب جاثيان ، وإلى السيدة العذراء ضارعان ، ـ وهذان روحان يرجوان الشفاعة يوم الدين ، وليس عبثا يرجوان .

وعلى صفحة أخرى حيال تلك الصفحة صوّر الأخ اسكندر حواء فى سقوطها ، وبذلك يستطيع الناظر أن يبصر الزلة والنجاة فى وقت واحد ، يبصر حواء ذليلة صاغرة ومريم العذراء عزيزة ظافرة .

وفى هذا السفر فوق ذلك صور تمثل بئر المياه الحية ، والينبوع ، والزنبقة ، والشمس ، والقمر ، والبستان ، الوارد ذكره فى لحن الألحان ، وباب السماء ومدينة الله ، وهذه من رموز العذراء .

وكذلك الأخ « ماريود » كان من أخلص عشاق العذراء .

كان يقضى أيامه ينحت دقائق الدمى والتماثيل — فى حب مريم - من الحجارة ، فكانت لمته ولحيته لاتزالان مبيضتين من الغبار ، وعيناه من دموع الوله والهيام مقروحين ، على أنه كان يجد لتلك الدموع حلاوة فى حسه ، وأنسا فى صدره ، وبردا على كبده ، وما برحت العذراء تؤيد خادمها الأمين ، وتمده فى شيخوخته بروح من لدنها ، وكان « ماريود » هذا يمثل العذراء جالسة على عرش ، تحف جبينها هالة مرصعة باللآلئ ، وكان يحرص على أن يجعل لباسها سابغا إلى ما تحت قدميها ، عملا بوصية النبى « ألا إن أوليائى كالحدائق المسورة » .

وأحيانا يمثلها فى صورة طفل برئ نقى ، كأن لسان حاله يقول « أنت إلهى مذ كنت فى أحشاء أمى جنينا »

وكان فى الدير أيضا كتاب وشعراء يصنعون الأناشيد باللاتينية نثرا ونظما ، فى حب العذراء مريم ، ومن بين الجماعة راهب من « بيكاردى » كان دأبه أن يتغنى بمعجزات البتول ، بأشعار مقفاة موزونة .

ولما كان المشعوذ « بارنابى » مطلعا على هذه المنافسة الحادة فى التزلف إلى العذراء ، وعلى ما كان يجنيه المتنافسون من عظمى الفوائد الروحانية بسبب مجهوداتهم الفنية ، جعل يأسف لجهله ويندب سذاجته وأميته .

وفى بعض جولاته بحديقة الدير تنهد وقال :

« واحسرتا ، وواكمدا ! .. والهفتا أن لا أكون كإخوانى قادرا على تحميد العذراء وتمجيدها بطرائف الفن ونفائسة ، وا أسفاه ، ووالهفا ! إن أنا والله إلا رجل جلف ، جاهل بضروب الفنون والصناعات ، لا أستطيع أيتها السيدة العذراء أن أهدى إليك خطبا ولا مواعظ ، ولا صورا ولا تماثيل ، ولا دمى ولا أشعارا ولا ألحانا ! »

ثم تنهد من أعماق قلبه ، وأسلم نفسه للهم والأسى .

وفى ذات صباح ، بينما الرهبان يقضون فترة استراحتهم بالحديث والمحاورة ، سمع المشعوذ أحدهم يتلو قصة رجل متعبد كان لا يحسن شيئا مما يتزلف به إلى مقام العذراء سوى أنشودة الغروب المعروفة « آف ماريا » فكان إخوانه في الله يحتقرونه لجهله ، غير أن هذا الرجل الساذج الجاهل لما حضرته الوفاة وأسلم النفس الأخير ، خرجت من فمة خمس وردات رمزا للخمسة الأحرف المؤلف منها لفظ « ماريا » اسم تلك الأنشودة التى كان لا يعرف غيرها وسيلة للتقرب إلى العذراء ، وعند ذلك ظهرت كرامته وعرفت مكانته .

فلما سمع « بارنابى » هذه القصة راعه وأدهشه من سماحة العذراء وسجاحتها ، ومن حنانها ورحمتها ، تلك الدلالة الظاهرة ، والآية الباهرة ، ولكن ما تضمنته هذه الوفاة المباركة من تلك العظة البالغة ، والحكمة النابغة ، لم يكن بها عزاء له ولا سلوى ، إذ كان لا يزال جد مولع بأن يقدم إلى العذراء من نفائس الهدايا ما يصلح أن يكون أصدق عنوان على رفعة مقامها ، وعلى فرط محبته وإجلاله .

فماذا يصنع لبلوغ هذه الغاية ؟ لقد أدمن الفكرة ولكن بلا جدوى ، ولم يزده توالى الأيام إلا هما وإطراقا .

وفى ذات صباح هب من نومه فرحا مستبشرا ، فأسرع إلى كنيسة الدير ولبث ثمة وحده زهاء ساعة ، وبعد الغداء عاد إلى الكنيسة كرة أخرى .

ومنذ تلك الآونة جعل يتردد كل يوم إلى الكنيسة فى فترات خلوها ، فيقضى بين جدرانها جانبا عظيما من ذلك الوقت الذى كان سائر إخوانه من الرهبان ينفقونه في صناعة تحفهم الفنية للعذراء ، ولم يلبث أن زال همه وسرى عنه كربه وغمه ، وأصبح يروح ويغدو قرير العين ناعم البال .

وتعجب الرهبان من تبدل حالة ، فتساءلوا ماذا عسى أن يكون قد طرأ على أخيهم « بارنابى » فشغله عنهم ، وأغراه بطول العزلة والانفراد .

وكان من واجب رئيس الدير أن يشدد الرقابة على أبنائه فى الدين حتى لا تخفى عليه من سلوكهم خافية ، فعزم على مراقبة « بارنابى » أثناء خلواته بالكنيسة ، وعلى ذلك ذهب ذات يوم مع اثنين من شيوخ الرهبان – حينما كان « بارنابى » منفردا هنالك كدأبه - لينظر من فروج الباب ماذا كان يجرى داخل الكنيسة .

فماذا أبصروا ؟ أبصروا عجبا عجابا ! لقد شاهدوا « بارنابى » أمام هيكل العذراء ، رأسه إلى الأرض وقدماه فى الهواء ، وإنه ليلعب ألاعيبه المدهشة بست كرات من النحاس واثنى عشر خنجرا ، لقد كان يصنع فى حب العذراء تلك الأعاجيب التى أكسبته الفخار والشهرة ، وغاب عن الشيخين الراهبين أن الرجل الساذج إنما يحاول بذلك أن يضع بين يدى العذراء كل ما أوهبه الله من حذق وبراعة ، فصاحا يعلنان كفره ومروقه .

أما الرئيس وكان أعلم منهما بصدق إيمان الرجل وصحة دينه - فلم يعد أن اتهمه فى عقله ، فقال لرفيقيه « لقد أصيب صاحبنا بمس من خبال » . وفيما هم يتأهبون لحمله من الكنيسة ، ما راعهم إلا انحدار صورة العذراء على درج الهيكل وتقدمها نحو المشعوذ ، حتى إذا دنت منه تناولت ذيل مئزرها اللازوردى فمسحت به العرق المتصبب من جبين خادمها .

فخر رئيس الدير ساجدا ، وصاح :

« طوبى للسذج البسطاء ، فلهؤلاء يتجلى الإله » .

الأسف

ظل مسيو « سانال » مستلقيا على مضجعه مترددا لايدرى أينهض أم يبقى على فراشه ، وكان اليوم مدجنا ممطرا عاصفا ، وقد كسا الغثاء مناكب الأرض ، وكان الوقت صميم الخريف والشجر عارى الأفنان ، يابس القضبان ، ينثر ورقه ، ويتجرد من رونقه ، ولم يشأ المسيو « سانال » أن ينهض فيواجه يوما عبوسا قمطريرا كهذا .

وكان فى الثانية والستين من عمره ، ولم يك تزوج قط .

وكذلك ظل على مضجعه يفكر فى ماضيه ويعجب كيف امتد به نفس العيش ، وتراخت به إلى هذه السن الحاكمة أسباب الحياة خالية فارغة ، قفرة موحشة ، ولقد علم لتأتين يوما منيته فيفارق هذا الوجود ، منفردا وحيدا لا أحد يغمض له أجفانه .

لم يكن الشيخ « سانال » شقيا بعزوبته مبتئسا لأنه عاش معظمها بين أحضان أمه ، ومنذ قضت نحبها ما زال الحزين البائس المنغص .

وكان « سانال » كثيرا ما يسائل نفسه متعجبا علام يبتهج الناس بالحياة ويمرحون فيها ويرتعون ، ويلهون ويقصفون ؟ لا حافلين ولا آبهين ، وهم يعلمون أن الموت كامن لهم بالمرصاد ، وأمر من ذلك وأدهى أنهم لا يعلمون متى وأين يدركون الموت ، وعلى أية حال يقضون .

لقد كان « سانال » يخشى الموت ولا عجب ، فلو أنه كان قد استمتع بالحياة وأحس بنعمة الوجود لما هاله ذكر الموت ولا وجل لدنو الأجل ، ولكنه فى الحق لم يشعر بلذة العيش ولا أدرك معنى الحياة ، بل لقد مضى يومه وغده كيومه خلوا من تجدد اللذات وتنوع المتعات ، فالحياة عنده يوم واحد مستمر متعدد الصور ، حتى لكأنه لم يحيى فى هذه الدار العاجلة سوى أربع وعشرين ساعة

ولم يتزوج .. ولماذا ؟ .. لماذا لم يقدم على الزواج وقد كان غنيا موسرا ؟ ألم تسنح للزواج فرصة ؟ كلا ! ... ولكن الرجل الجسور يخلق لنفسه الفرصة خلقا ، فلماذا ترك هذا الرجل الحياة تمضى خلوا من الفرص ؟

كل ما فى الأمر هو أنه لم يكن يعبأ وكان متبلدا مكسالا ، فلم يهتم بأمر الزواج ولكنه هزأ وسخر .

وقد طلع فى ثنايا الحرم وما أصاب بين النساء متعة الهوى ولذة الصبابة ، فلم تمل قط على صدره ذات سوار ميلة الهوى ، ولا توسدت حشاه فى استسلامة الشوق والجوى ، ولم يعرف قط ما فى مغازلة الغيد من ملذات وآلام ، وصحة وسقام ، ورى وأوام ، ولم يذق طعم القبلة الأولى ، تلك القطفة الحلوة المعسولة التى لاتعادلها فى حلاوات اللذات حلاوة ، ولا جرب اشتباك الذراع بالذراع والتفاف الساق بالساق ، وتمايل الأعناق ، وهيام العاشق بالمعشوق ، وإدلال الشائق على المشوق .

وها هو ذا الشيخ « سانال » قد نهض من فراشه فجلس حيال الموقد متبذلا فى ثياب النوم ، وقد مد ساقيه استدفاء من وخزة البرد القارس .

أنقول سانال لم يحب يوما ، ونزعم أنه لم يعشق ، ولم يك مغرما ، لقد كذبنا والله على الشيخ ولم ننصفه ، وقلنا عليه زورا وظلما .. فلقد أحب مرة .. وأحب سرا ولم يحب جهرا ، وكانت التى أحبها مدام ساندر زوجة صديقه القديم ، وصاحبه الحميم .. واحسرتاه!.. لقيته ولقيها فى عهد الشباب ، ياليتها كانت له .. ياليتها ! ، ولكن واأسفاه .. لقد كان اللقاء متأخرا بعد فوات الفرصة وذهاب الأوان .. عرفها زوجة ، ولم يعرفها صبية عذراء .. وكذلك ذهبت حياته سدى وهباء ..

لقد أحبها من أول وهلة .. بل هام فى حسنها من أول نظرة .. وقد عاد اليوم يتذكر كيف كان شعوره لما رآها ، وكيف راح حزينا لما قام منصرفا من مجلسها .. وراح يذكر كذلك الليالى التى قضاها مسهدا يساهر النجم ، ويرعى القمر ، يفكر فيها ويحلم بها ويتمناها ، ويناجيها ويتمثلها ذات روعة وجلال ، فإذا طلع الصبح ازداد وجدا ، ولم يعرف إلى أين هو مسوق والهوى ..

ما كان أملحها .. والله لم تكن فى الحق تصلح لساندر ذاك الذى تزوجته ، ولا كان هو لها يصلح .. وها هى اليوم قد بلغت الثامنة والخمسين ثم لا تزال تلوح سعيدة مغتبطة .. فوا أسفاه .. ليتها كانت أحبته .. ليتها أحبته .. ياعجبا ، كيف لم تحببه وهو الذى كان بها صبا مستهاما ؟

أتراها حزرت شيئا وفطنت إلى لمعة من ذلك الحب ، وإذا كان ذلك فماذا كان رأيها فيه ؟ ولو أنه تكلم وأعلن ، وأظهر يومذاك ما أبطن ، فبماذا عمرك الله كانت مجيبته ؟ .

ذلك ما خطر ببال سانال ، فعاد يجد فى كل كلمة كانت يومئذ تقولها معنى جديدا لم يدركه من قبل ، أيام كان يقضى الليل معها فى حديث وسمر ، ويخرج بها إلى النزهة على ضفاف النهر .

واختلطت الذكريات عليه وتشابهت ، ولكنه ما لبث أن وقف به الخاطر عند أصيل يوم معين ، وقد خرج مع الزوجين فركبوا زورقا يمخر بهم العباب ، ثم نزلوا منه فراحوا يمشون فى الغاب .. ثم انتقلت به الذاكرة إلى ذات صبح عبق النسمات ، فى إبان الربيع المزخرف الجنبات ، وقد خرجوا جميعا إلى غدوة فى الفضاء ، فمدوا خوانهم بجانب النهر تحت الدوح الوارف ،وكان الهواء لينا فى رونق الضحى وقد أكل ساندر حتى امتلأ فاستلقى على العشب وقال : لقد آن النوم ووجب ، وراح ينشر منديله على وجهه ، وما لبث أن غاب فى سبات .

وهنا انصرفت الحسناء عن زوجها النائم ، وأقبلت عليه هو فتناولت ذراعه وانطلقا يتمشيان ، واستندت إلى كتفه وهى تضحك فرحة من مشهد الطبيعة الساحرة فى ذلك الربيع البسام الجميل ، ومضى هو يتأملها وقد اصفر وجهه من فرط الانفعال والهياج ، وهو خائف وجل لئلا تنم عيناه عن سره ، ويفضح صوته المتهدج الراعش هواه .

وانثنت هى تجمع لها إكليلا من أزاهر الغاب ، حتى إذا جمعته ونظمت عيدانه وناسبت بين ألوانه ، توجت به رأسها وهى تقول :

— هل تحبنى وأنا هكذا ؟

فلم يحر جوابا وقد اختنق صوته ، وجف حلقه من شدة التأثر وفرط الصبابة ونشوة الغرام ، عند ذلك انثنت ضاحكة وأشاحت بوجهه ساخرة وهى تقول :

– أنت غبى .. ألا تقول شيئا ؟ .. !

ذلك كل ما كان يومذاك ، ولكنه وقد عاد اليوم يذكره راح يتخذ فى خاطره معنى جديدا لم يستشعره قبل ، ومغزى آخر لم يفطن إليه فى ذلك العهد الغابر ، فلماذا تراها قالت له ذلك ؟ ولماذا استندت إلى كتفه استنادة اللعب والدلال ؟ ومالت عليه ميلة الحنان والعطف ؟ .. وإذ ذاك تذكر كيف شعر وهما يمشيان تحت معارش الأغصان ، ومشتبك الأفنان بحرارة أنفاسها تهب على صفحة وجهه .. وتذكر كيف تراجع فى الحال مخافة أن تتهمه بأنه قد لاصقها عمدا ، وقرب خده من خدها قصدا ..

ولما قال لها أما حان أن نعود ، رمقته بنظرة غريبة ... حقا لقد كانت نظرة عجيبة قاسية مباغتة .

قالت : كما تشاء وإن شئت إن تبقى فلا بأس ، هلم نرجع .

قال : وما بى ملل ..ولكنى أخشى أن يكون زوجك قد استيقظ .

فهزت كتفيها استخفافا .

قالت : فهمت .. أ إذا استيقظ زوجى ، خفت الغياب وأردت الإياب ؟

ورجعا فى صمت ولم تستند إلى كتفه فى هذه المرة ، فلماذا لم تفعل كما فعلت فى الغدوة ، بل لماذا أبت أن تستند إليه فى الأوبة .. هل يمكن أن تكون ..

وهنا أمسك سانال عن المضى مع نجواه والذهاب مع خواطره ، وقام من مجلسه وقد تحلب عرقا ، والتهب تحرقا .. لقد كان يومذاك فى الثلاثين من عمره ، فماذا كانت تكون حاله لو أنها راحت تقول له ، سانال .. إنى أحبك !

وهنا جعل الشك يقدح الشك فى فؤاده ويمزق حشاه ، وا أسفاه ، لماذا ترك السعادة تفلت من يديه ، بل لِمَ لم يمدد إليها يدا قبل أن تبعد عن مناله ..

ولم يكد هذا السؤال يدور فى خلده حتى أنشأ يقول مضطربا واجفا : يجب أن أعرف .. بل سأعرف !

وقام إلى ثيابه فارتداها مسرعا ، وهو يحدث نفسه بقوله : إننى الآن فى الثانية والستين ، وهى فى الثانية والخمسين ، فلا بأس اليوم من سؤالها فى ذلك ولا ضر فلأسألنها ولأنظرن ماذا يكون جوابها . وخرج من بيته يريد لقاءها .

وكانت دار ساندر حيال داره ، فمشى إلى الباب فدق جرسه .

وجاءت الخادمة فقالت : من الطارق ، ولما رأته عجبت له كيف جاء مبكرا هكذا قبل أن يقوم الناس من المضاجع .

قال : أريد مقابلة مولاتك فى الحال . قالت : ولكن مولاتى لم تتهيأ بعد لمقابلة الزوار !

أنبئيها أننى أريد محادثتها فى أمر عاجل خطير للغاية .

فانصرفت الخادم لتنبئ مولاتها .

وجعل سانال يذرع الحجرة جيئة وذهابا بخطوات طوال فساح ، مضطرب الأعصاب ، ثائر الإحساس .

وفتح الباب ودخلت ربة البيت .

وكانت مدام ساندر قد ترهلت على الشيخوخة . ولكنها لاتزال وديعة رقيقة الحاشية .

قالت مبهوتة : ماذا جرى ياعزيزى هل أنت مريض ؟

قال : كلا ، ولكن أمرا قد شغل بالى ، وهاج بلبالى ، وأنت مستطيعة أن تزيلى ما عرانى ، وتريني شكى من يقينى ، فهل أنت مجيبتى بكل صراحة عما أريد أن أسألك عنه ؟

فابتسمت .

قالت : إننى طول عمرى صريحة ، فما سؤالك ؟

قال : هو هذا ، لقد أحببتك من أول يوم رأيتك فيه ، فهل تراك أدركت ذلك وفطنت إليه ؟ ..

فابتسمت : يالك من غبى ، لقد فطنت إلى ذلك من غير شك ، بل عرفته فى الحال وشعرت ببوادره منك .

فبدأ سانال يختنق ، وراح يقول بلسان متلعثم وصوت متحشرج : أحقا كنت تعرفين ذلك .. إذن .. ؟ . . ولم يستتم .

قالت : إذن ماذا ؟

قال : إذن ماذا كان رأيك فى أمرى ، وما كنت قائلة لو أننى تكلمت وأعلنت ؟

فضحكت مدام ساندر ملء فؤادها ، وقالت : أنا .. ولكنك لم تقل شيئا .. ولم يكن منتظرا منى أنا أن أبدأ القول ، إذ ليس من كرامة المرأة أن تكون فى التكاشف بالحب البادئة . فتقدم خطوة أخرى منها .

قال : خبرينى .. خبرينى .. أذاكرة أنت ذلك اليوم الذى راح فيه ساندر فى النوم على العشب عقب الغداء ، ورحنا نحن ..

وأمسك عن الكلام وأمسكت هى فى تلك اللحظة عن الضحك ، ووقفت تجيل فى وجهه النظر .

قالت : نعم أذكر ذلك بالطبع ولا أنساه .

فاضطرب وتلعثم ، وغمغم وتمتم .. قال : إذن ... لو كنت ... فى ذلك .. اليوم .. لو كنت قلت لك شيئا ..فماذا عساك كنت فاعلة .

فابتسمت ابتسامة امرأة راضية عن نفسها مطمئنة ، وانثنت تقول فى صراحة وبساطة تخالطها سخرية : لو كنت قلت لى شيئا ، ..لو كنت فاتحتنى لكنت سلمت إليك واستسلمت . وتولت عنه منصرفة ، وتركته ذاهلا مبهوتا .

وغادر دارها غير شاعر بما حوله ، ولا دار أين وجهته ، .. وأخذ المطر يتساقط عليه ويقطر من أردانه ، وهو لايعى شيئا ، ولا يخشى بللا ، وراح الماء يسيل من قبعته خيوطا وأمراسا ، وهو لا يزال يغذ السير لا يقف ولا يلتفت ، حتى أتى على متكأ من رخام بجانب النهر ، فاقتعده وأرسل بصره إلى البواخر المواخر ، ولم يلبث أن أجهش بالبكاء ، وكانت دموعة خليطا من فرح وحزن ، على ما فرط فيه من قبل ، وما نعم به لحظة من الدهر ..

النزهة

خرج « لاراس » الكاتب فى شركة لابوز من محل عمله فى وقت الانصراف ؛ فتلقت عيناه الحسيرتان ضياء المغيب ، وبهر ناظره الكليل أرجوان الشفق ، فقد لبث طول النهار يشتغل على نور المصباح فى ركن مظلم من الحانوت لاتنفذ إليه الشمس ، ولا يطالعه من ضياء النهار شعاع ولا بصيص . وكان « لاراس » فى ذلك اليوم بالذات ملولا يخال النهار على غير العادة موحشا جهم الطلعة عبوسا ، وقد أذكره هذا الملل الذى شفه من العمل فى ذلك المتحر ما كان من ماضيه ، فأدرك أنه قد لبث أربعين سنة فى ذلك المحل وهو دائب على عمله ، مكب على دفاتره .

وكان المحل رطبا مظلما ، تطل النافذة القائمة خلف منضدته على حيشان خلفية لصف مستطيل من المنازل فى زقاق ضيق ، وكان صاحبنا يشتغل فى هذا السجن الصغير ويكب على رصد حساباته وتقييد شوارد المصروفات والإيرادات فى سجلاته ، من الثامنة صباحا إلى السابعة من المساء . وكان راتبه فى مبدأ الأمر ستين جنيها فى العام ، فما زال يرقى به الراتب حتى بلغ أخيرا وبعد كل تلك السنين الطوال ضعف هذا القدر ، وقد ظل أعزب خلالها لأنه لم يكن بذلك الراتب الضئيل يستطيع زواجا ، وكأنما قد ألف هذا العيش الخلى من الهناء واللذات ، فلم يعد يتلهف على شىء من ذلك أو يحسبه بحاجة إليه ، ولكنه فى بعض الأحايين إذ يتزايد به الملل ويتعكر المزاج ويثور فى نفسه السخط على العيش . يتثنى يناجى نفسه قائلا : ألا ليت لى خمسة آلاف من الجنيهات فى العام فأنعم بلذات العيش ، ولا أدع من مسرات الحياة شيئا إلا تمتعت به ولهوت ! فقد مضت به الحياة فاترة بليدة لايشع عليها أمل ، ولا تطالعها بارقة رجاء . وكان أبدا فى شغل شاغل بالرصد والقيد والتدوين فى الدفاتر ، فلم يكن ليجد فسحة من نهاره للتفكير فى الحياة أو تأمل العيش ، أو التطلع إلى مستقبل حسن

ومعيشة أطيب وأحفل بالمتع واللذات ، وقد قطع شبابه جميعا فى العمل بمحل لابوز وشركائه ، ومات أبوه من زمن طويل ، ولحقت بأبيه أمه كذلك ، فأضحى من بعدهما يقوم بشئون البيت بنفسه ، يكنس الغرفة وينظمها ، ويغسل الثياب وينشرها ، ويهيء الفراش ويعد المرقد ، ويطهى الطعام ويمسح البلاط ، وينظف النحاس والمواعين بيديه .

أما الحب الذى يستمتع الناس بجناه المعلل ، ويرشفون رحيقه وينعمون بشرابه المصفى وعسله الماذى ، فلم يقع له منه شيء طول الحياة ، بل كان ما عرفه من العيش عمل رتيب يقضى عليه نهاره ، والنوم العميق إذا جاء ليله ، ولكنه كان فى بعض الأوقات يقف أمام المرآة لينظر إلى شعره الذى وخطه الشيب فلا ينى يزفر زفرة مستطيلة غامضة ، وقد ظل كذلك يعيش ذلك العيش الممل الثقيل حتى شاب شارباه ، وصلع رأسه ..

واها لذلك المسكين ! أربعون سنة فارغة خلية من أدنى أثر للهناء ، أربعون عاما سود المطالع مجردة من كل لذة أو متعة .

إنها لحياة شقية والله وعيش أليم !!

ولم يكد لاراس يخرج إلى الشارع فى ذلك المساء بالذات حتى تلقاه ضياء الشفق الأحمر ، فذهب بألمه وأنعش منه الخاطر ونفى عنه الملل ، ففكر فى النزهة قليلا قبل أن يحين موعد عشائه .

وصح منه العزم فمضى يطلب الضاحية حتى أتى التوارع الظليلة ، والبساتين الألفاف ، فإذا الناس يسيرون هنالك على مهل تحت الأفياء ، متأبطين متخاصرين ، وكان المساء بديعا فى صميم الربيع ، والجو رائق النسيم يملأ القلوب سحرا ، ويستثير فى النفوس الحنين إلى الحب والرغبة فى اللذة والهناء . فلم يلبث « لاراس » نفسه وهو المسكين المحروم من سعادة الحياة وأمانى الحب أن شعر بتأثير ذلك المساء البديع ، والجو الصحو اللطيف ، فراح يمشى منتعشا منفرج الخطو ، مفعم النفس خفة ومراحا .

ولكنه ماعتم أن شعر بجوع فعطف على أحد المطاعم ليأكل ، وهنالك طلب قطعة من الجبن وزجاجة من النبيذ وفنجانا من القهوة

وذهب الشراب بخواطره الأليمة وهز نفسه هزا ، فمضى يقول : حقا ما أبدع الجو فى هذا المساء ، يحسن بى أن أستطيل النزهة أيضا لأستمتع من هذا المساء ما أمكن .. !

ونهض يطلب الطريق .

وما لبث أن اتجه صوب غابة بولونيا ، وإذا به يسمع حوار العشاق ، وغناء أهل الحب ، وأناشيد الغرام تملأ الفضاء وتتجاوب بها الأصداء ، فجعل يرهف سمعه لتلك الأغانى وقد لاحت له غريبة فى سمعه ، وهو الذى طالما سمعها ولم يتأثر ، وأنصت إليها ولم يحفل ، كأنما قد لبست معانى جديدة ، وحلت فى الأذن ترنيما ووقعا .

وشهد المركبات قادمات والسيارات رائحات غاديات تحمل العشاق ، وتحوى الحسان الملاح مع الشباب الصباح السماح ، وقد لمح فى إحداهن رجلا وامرأة متعانقين .

وخيل إليه أن الغابة غاصة بالعشاق ، مفعمة بكل مشتاقة ومشتاق . أجل لقد كانوا مبثوثين فى أرجائها ، منتشرين فى أقطارها وأنحائها ، وكانوا متلاصقين فى صمت وسكون ، وأحشاؤهم من تحت ذلك فى وجيب واضطراب ، وكل قلب من تلك القلوب فى اضطرام والتهاب ، وأفئدتهم لأشعة الغرام تتفتح تفتح الأزاهر لأشعة ذكاء ، وكأن شفاههم مفترة تترقب كئوس السعادة مشمولة صهباء ، وخيل إليه أن الهواء الدافئ كان باللثمات مفعما ، وكأن الجو ذاته من كثرة الأنفاس والزفرات قد أصبح صبا مغرما .

وأخيرا أحس « ليراس » بالجهد والإعياء فافترش بعض المقاعد استرواحا واستراحة ، ولم تكد تمر عليه دقيقة حتى ألمت به امرأة فجاورته قائلة :

– ألا عم مساء أيها الصديق .

ولما لم يجبها استمرت :

– لم لا تدعنى أحبك ياحبيبى ، لعلك ترى أية حبيبة مشفقة حنانة فى استطاعتى أن أكون !

فأجابها قائلا :

– لعلك قد أخطأت النظر يا سيدتى .

فلفت ذراعها حول خاصرته وقالت :

– لا تحمق ولا تسخف .. اسمع ، أقل .

فنهض من مقعده وتولى عنها وقلبه بالألم مفعم ، غير أنه لم يذهب بعيدا حتى نادته امرأة أخرى قائلة :

– تعال اجلس إلى جانبى برهة يا حبيبى .

فأجابها قائلا :

– ما معنى هذا الكلام ، ولماذا به تواجهيننى ؟

فصوبت إليه نظرة حنق واغتياظ ، وقالت بصوت تشوبه سخرية وتهكم :

– ليس حبا فيك ولا لسواد عينيك كما يقولون فى الأمثال ، ولكنى أريد أن أرتزق (والمعايش تحب) .

وتولت عنه تغنى دورا قديما .

واستمرت النساء عليه غاديات رائحات ، مقبلات مدبرات وهن له رانيات ملاحظات ، باسمات ضاحكات ، وفى أذنيه هامسات نابسات ، داعيات مغريات ، محرضات مستثيرات .

وعاد فجلس على بعض المقاعد ، وأحس كأن جمال العشى وبهجة المساء قد أفسدهما عليه مفسدات العوامل ، وود لو أنه لم يكن غادر مأواه فى ذلك الأصيل .

ثم بدأ يفكر فى الحب ، فى ذلك الحب الثائر المتأجج الذى كأنما هو من أمس احتياجات النفس البشرية مما لا تطيق عنه غنى ولا صبرا ... والذى لابد للإنسان سواء أناله هبة من معشوقته بلا أجر ولا منحة أم دفع فيه ثمنا ... كل ما يبتغى المرء هو الحصول على ذلك الحب بأية وسيلة وعلى أية صورة . وشرع يفكر فيما قد ضاع عليه من فرص الحب المقرونة بالنعيم والسعادة . أجل يفكر فى حياته القفرة الخلاء الجدبة الماحلة القاحلة ، السخيفة التافهة الحقيرة التى لاتساوى ملء أذنك

نخالة ! وبدا له فى مثل لمح البرق أى شقاء وبؤس قد كان يكون عيشه فى هذا الوجود وحياته ، بلا ذكرى يطيب بها ماضيه ، وبلا أمل يطيب به مستقبله .. بلا شيء ... لاشيء ألبتة !

وما برح العشاق يمرون به ...ياويله ! ما أشد وحدته بينهم ووحشته ، وما أشد غمه وكربته ! وما كفى القدر الظالم الغشوم أنه أبقاه منعزلا فريدا فيما مضى حتى سيجعل عليه ذلك ضربة لازب مابقى ، وأحس إذ ذاك بتعب وإعياء كأنما قطع فراسخ وأميالا ، واجتاز بطاحا وجبالا ، وقال فى نفسه : ألا ما ألذ أن يؤوب المرء مساء إلى زوجة له وأطفال ! والهرم والشيخوخة ليست بمحنة فى صحبة القرينة الصالحة والعيال .

ولما فكر فى حجرته الضيقة الخاوية التى لم يعمرها أحد سواه ، ارتعش جسده وارتعدت فرائصه ، ورآها أشد وحشة وإقفارا من ركنه المظلم بحانوت عمله ... وكان فى مجرد تفكيره أنه مضطر إلى سكنى هذا الجحر الخرب ما أظفر قلبه رعبا وحفز أحشاءه روعا ، ولكى يهرب من هذه الفكرة السوداء نهض ثم تغلغل فى أعماق الغابة ، وارتمى على العشب الندى فتمدد .

وكان يسمع حواليه طنين أصوات الخلطاء والأخدان ، والعشراء والخلان ... أصواتا ممتزجة مشوشة فرحة طربة ، تشوبها صيحات هياج وضجات هرج ومرج وثوران ... ومن أقصى المسافة تسمع ضجة ضوضاء باريز .

وجاء بعد ذلك على باريز يوم صحو آخر صافى الأديم لازوردى الغلائل ، وكانت شمسه تتألق ضحى وتتلألأ ، وقد ولجت غابة بولونيا بضع مركبات ، وكان فتى وفتاة يتمشيان بإحدى الطرقات الخالية .

وإذا بالفتاة تبصر شيئا متدليا بين الأغصان ، وسرعان مانبهت إليه رفيقها .

— انظر ! ماذا عسى يكون ذلك ؟

ولما تبينت هى نفسها حقيقة ذاك الشئ ، أرسلت صيحة ذعر منكرة ، وأغمى

عليها بين ذراعى صاحبها ، وبعد بضع دقائق استنزل الخفراء (وكانوا قد استدعوا لذلك الحادث) جثة شيخ هرم قد شنق نفسه .

وقد ظهر من أوراق فى جيوبه أنه هو عين ذلك الكاتب الموظف بشركة « لابوز » والمدعو « ليراس »

تمبكتو

كان اليوم رائق السماء مشمسا مصحيا ، وشوراع المدينة مزدحمة بالناس ، والوجوه ناضرة باسمة ، ومعاشر المولعين بجلسة القهوة والاختلاف إلى المشارب قد جلسوا صفوفا متراصة على الأفاريز وهم يحسون أشربة مثلجة ومرطبات منوعة مختلفة الألوان ، تلوح فى الكئوس والأكواب ، كسلاسل الذهب المذاب ، أو ككرائم الدر والياقوت والزمرد والمرجان استحالت إلى شراب .

وفى مشرب من تلك المشارب جلس بين القوم رجلان يتحدثان ، وقد اجتذبا جميع الأنظار بروعة ثوبهما العسكرى ، وفخامة لباسهما الحربى ، وهما يتكلمان بسرعة متلهيين بالكلام عفو الخاطر ، غير مفكرين فيما عسى أن يقال ، بل كلام مجلس وحديث أنس ، ومناجاة نفس لنفس ، وقد جعلا يرقبان فى أثناء ذلك وجوه السابلة بين رجال يتمشون الهوينا فاترين ، ونساء مسرعات ساريات غير متلفتات .

وما لبث أن مر أمامهما زنجى ضخم عملاق فى ثوب أسود حسن الهندام ، مضبوط « القيافة » بسام الثغر كأن وجهه قد جاء لتوه وساعته من متحف ، وكأن المثال البارع قد فرغ اللحظة من نحته وتلميعه وصقله . ومشى بادى التواجد ينظر إلى السابلة ويلتفت إلى باعة الصحف ، ويرنو إلى الحوانيت ويرفع البصر إلى السماء ، وينقل العين فى باريس كلها كمشتاق نعم بفرحة اللقاء . وكان ذا قد مديد يشرف به على رءوس المارة ويطل به على هام النظارة ، وقد لفت منهم الأبصار واستحوذ على الأنظار ، وجعل الناس كلما مروا به تلفتوا وراءهم لينظروا ثانية إليه ، ومضى الذين مشوا خلفه يرسلون أعينهم فى إثره محملقين مندهشين .

وما كاد هذا الزنجى المارد البسام يمر أمام هذين الضابطين الجالسين فى القهوة حتى لمحهما بين جموع الجالسين ، وراح ينظر إليهما نظرة السرور

والخيلاء ، وقد فغر فاه فبدت أسنانه التواصع كاللآلى ، ورأى الرجلان هذا الزنجى العملاق ، بل هذا الأبنوس الضخم يحملق البصر فيهما ويبتسم ، فاندهشا وعجبا لابتسامه ، ولم يفهما سر حملقته وباعث مسرته .

ولم تطل دهشتهما أكثر من لحظة خاطفة ، إذ سمعا الزنجى يصيح فجأة بصوت أذهل جميع الجالسين فى القهوة ، فرفعوا رءوسهم ليروا من أين انبعث هذا الصوت الفجائى العجيب .

« طاب يومك يا سيدى ! »

وكان أحد الضابطين برتبة الكبتن وكان الآخر برتبة الكولونيل

وكانت التحية موجهة إلى الأول ، فقال هذا مستنكرا « لا أظنني أعرفك فهل من شيء تود أن تقوله لى ؟ »

فأجابه الزنجى بقوله « لقد كنت أحبك دائما يا مسيو « فيدى » ... حصار « بيزى » ألا تتذكر ؟ »

ولكن الضابط ظل مدهوشا يطيل النظر إلى مخاطبة حائرا ، يعالج الذاكرة ويكد الخاطر ليستعرض المكان الذى كان آخر العهد فيه برؤية هذا الوجه الأسود .

وما لبثت أن صاح فجأة قائلا : أى نعم .. أى نعم ... لقد تذكرت « تمباكتو ؟ ؟ » أهلا وسهلا ، « سلامات » كيف أنت ، وحشتنا ... . كيف حالك ؟ ؟

وفى الحال شاع السرور فى وجه المارد فجعل يضرب فخذه بكفه ، وانثنى يصيح من شدة الفرح قائلا : نعم .. ياجناب الكبتن .. أنا تمباكتو ، والحمد لله على أنك قد تذكرت تمباكتو المسكين .

فمد الكبتن إليه يده فتصافح الأبيض والأسود مصافحة قلبية حارة وهما يضحكان مسرورين بهذا اللقاء العجيب ، ولكن لم يلبث الزنجى بعد السلام أن تجهم وعلت صفحته السوداء أمارات الوجوم والغم ، وكأنما قد عاودته فى تلك الوقفة ذكريات الماضى ، فأمسك بكف الضابط وأكب عليها يلثمها فى خشوع واحترام ، قبل أن يتمكن الكبتن من سحبها من يده .

وارتبك الكبتن لهذه المظاهرة الغريبة فى قلب باريس ، فصاح بالزنجى قائلا : « دع لثم اليد يا تمباكتو فلسنا الساعة فى إفريقية . تعال اجلس بجانبى وحدثنى كيف جئت إلى هنا » .

فامتثل الزنجى الأمر وهو يبتسم منفرج الشفتين على سعة ، وقال بسرعة وفى لهجة متلاحقة متدافعة : جمعت فلوسا كثيرة ... اكتسبت طيب ... اغتنيت ، سرقت ونهبت ، شئ كثير لا يحصى ، رستوران تمبكتو ... مطعم فرنسى عال ... ألست تتذكر ؟ ... مائتا ألف فرنك فى جيب محسوبك ... ها ... ها ... ها ... !!

وجعل يضحك ملء فمه وهو من فرط الضحك يتلوى وينفرد فى سرور صبيانى لا يستطيع كتمانه .

وبعد أن سأله الكبتن بضعة أسئلة انثنى يصرفه قائلا : والله طيب يا تمبكتو ... أرى وجهك بخير ، دعنى أراك قريبا .. !

وانطلق مفعم النفس مسرورا منفرج الشفتين ابتساما ، هازا عطفيه جذلا حتى لقد ظنه السابلة معتوها .

وما كاد يختفى بالحجاب حتى انثنى الكولونيل يسأل جليسه قائلا :« من يكون هذا الوحش ؟ »

قال صاحبه « جدع طيب ابن حلال » وجندى ماهر بطل ، وأنا محدثك بما عرفت عنه وإنه لحديث عجب ، فاسمع إذن قصة ماجرى ...

— ٢ —

فى إبان الحرب البروسية كنت مقيما فى بلد يدعى « بيزيبير » وأحسبك تذكر أن هذا الزنجى أشار إلى ذلك البلد مسميا أياه « بيزى » على سبيل الاختصار ، ولكنا فى الواقع لم نكن محاصرين فحسب بل سجناء فى ذلك الموضع ، منقطعى الصلة بالدنيا وقد أحاط بنا البروسيون من كل مكان ، وإن كانوا مرابطين بعيدا عن مرمى بنادقنا وكانت نيتهم إماتتنا عطشا وجوعا !

وكانت حاميتنا مؤلفة من شراذم ملحقة بنا من مختلف الكتائب ، ومن جنود استغنى الحال عنهم فى أسلحتهم ...حقا لقد كانت تلك الواقعة عجيبة فى ظروفها غريبة الأطوار من أولها إلى آخرها ، ولكن ما علينا من هذا الآن فإن هذه مسألة فنية أخرى ، وليس هذا مجال البحث فيها ، وإنما أريد ن أصف لك كيف كان مركزنا فى تلك الظروف الحرجة .

وكان أغرب من فى رجال الحامية جميعا أحد عشر زنجيا مجندا جاءوا ذات مساء ، ولا يعلم إلا الله من أين هبطوا ، جاءوا سكارى شعثا غبرا مهلهلين جياعا ، فالتحقوا بالحامية لتزداد بهم على البلاء بلاء . وما لبثت أن عرفت أنهم العصاة الفجرة ، الخونة الغدرة ، نزاعون إلى التمرد مدمنون الشراب ، معربدون أهل خسة وفرار ، لايروعهم السجن ولا يصلحهم التأنيب ولا يزجرهم العقاب ، وكانوا فى بعض الأحايين يختفون عن العيان كأنما قد انشقت الأرض فابتلعتهم ؛ ثم لا يلبثون أن يظهروا فى عالم الوجود فإذا هم من فرط السكر يتحاملون ترنحا وعياء .

وكنت أعجب لأمرهم وأسائل النفس كيف يتيسر لهم ذلك ولا مال عندهم ، وأين كانوا ولا يعلم أحد مخبأهم ، وترى من نداماهم على الشراب ورفاقهم ...واشتد بى الفضول فأجمعت النية على استكشاف سرهم وحل لغزهم .

فجعلت أراقبهم وأترصد لحركاتهم وسكناتهم ، فعرفت أن زعيمهم والحاكم بأمره فيهم هو ذلك الرجل العملاق المريد الذى رأيته الساعة ، فقد كان هذا الزنجى الضخم رئيسهم الذى لا ينازع ، وسيدهم الذى لايدافع ، لايصدرون إلا عن أمره ولايتحركون إلا بإشارته ولا يعملون إلا بنصيحته، فاستدعيته فى ذات يوم وألححت عليه بالسؤال والاستجواب وقضيت ساعتين فى حديثى معه ، إذ كان من الصعب على أن أفهم أسلوبه الغريب فى التعبير عن مراده ، ومنحاه العجيب فى شرح معانيه وتفسير أغراضه ، على الرغم من أنه جعل يجاهد بكل قواه فى تفهيمى معناه ، وكلما ازداد شرحا ازددت حيرة فى فهمه ، وارتباكا فى التقاط مرمى كلامه .

وتبين لى أنه ابن زعيم قبيلة زنجية معروفة فى تمبكتو ، ولما سألته عن اسمه

ذكر لى اسما أطول من ليالى الشتاء ، وما أحسب آدم ناطقا به وهو الذى تعلم الأسماء ، شيئا مستطيلا معجما مبهما ، ولفظة مركبة من ثلاثين حرفا ... فقد قال : اسمى « شارفاكاريبو نهليكوا نافوتا بولارا .. ! » يا حفيظ ، اسم لو حمله مخلوق غيره لناء بحمله ، بل اسم يحتاج إلى مركبة ضخمة لثقله ، فرأيت من باب الاختصار أن أدعوه باسم بلده فجعلت أناديه « تمبكتو » ولم يكد يمضى أسبوع حتى اشتهر بهذا الاسم فى الحامية كلها .

ولكنى ظللت فى عجب منه لا ينقطع ، لأننى لم أكن أدرى من أين يجد هذا الأمير الإفريقى شرابه ، وعلى أية مائدة يتعاطى المدام وصحابه ، غير أنى ما لبثت أن عرفت السر بطريقة جد غريبة ، فقد كنت واقفا فى ذات صبح فوق الأسوار أستشرف الجوار وأستكشف الفضاء ، وإذا بى ألمح شيئا يتحرك خلال معارش كروم قريبة من الموضع ، وكان قد غاب عن بالى أننا يومئذ فى موسم جمع الأعناب ، وقد نسيت أن المعارش بالعناقيد والدوالى مثقلات ناضجات القطوف دانيات ، فلم أتصور إذ ذاك سوى أن فرقة من الكشافة أو الأرصاد والجواسيس قد جاءت تتجسس حول البلد وتترقب حركتنا وترصد ، فبادرت إلى تنظيم حملة صغيرة للقبض على أولئك الجواسيس .. وتم الاتفاق على أن يخرج أفراد الحملة من أبواب متفرقة ليحاصروا الموضع الذى رأيت فيه القوم رصدا مختبئين ، وخرجت مع الخارجين وجعلنا نتسلل زاحفين ، فلم نكد ندنو من الموضع حتى أعطيت الإشارة التى اتفقنا عليها فانقض رجالى بجمعهم ...فإذا بهم حيال هذا العملاق العجيب تمبكتو جالسا على الثرى ، مادا ذراعيه إلى العناقيد ، يقطف ويأكل .. ! فحاولت أن أحمله على النهوض من مجلسه ولكنه ما كاد ينهض على ساقيه حتى ترنح من فرط السكر وسقط من حيث نهض ، وكلما حاول قياما تهدم ، وكلما هم بأن ينهض تحطم ، ولم أكن رأيت فى حياتى منظر سكير أعجب من ذلك المنظر ، فاضطررنا إلى حمله والرجوع به ، وكذلك عرفت السر وأدركت جلية الخبر ، لقد كانت معارش الكروم القريبة من المعسكر هى (النادى) الذى يغشاه أولئك النفر الأحد عشر ليمكثوا به الأيام والليالى المتوالية سكارى من فرط العنب ، ناعمين بشراب بطاش شديد السورة وإن لم

يتخمر ، مثلهم في ذلك مثل أكلة الأفيون أو النيلوفر ، أو مضغة الحشيش أو المنزول ، ومن حالفهم من أهل « الكيف » الذين يفرطون في شهوة واحدة لا يتعدونها .

وفي مساء ذلك اليوم بذاته جاء الجند في طلبي فجأة ، قائلين إنهم قد لمحوا شيئا ضخما يتحرك من بعيد قادما نحونا ، أشبه شيء بأفعوان عظيم ينساب صوبنا ، أو تجريدة من جند وحملة من عسكر ، فأرسلت رهطا من رجالي ليروا ما الخبر ، وإذ بنا نشهد تمبكتو في تسعة من رجاله يحملون شيئا ضخما أشبه بالهيكل أو نعش ميت ، وكأنهم في موكب جنازة سائرون ، وعلى النعش رأينا ثماني رءوس مفصولة عن أجسامها تقطر دما ، وعلى أفواهها أثر رهيب من بسمة الحياة ، وخفقة من إيماضة الموت ، ومن خلفهم شهدنا ثمانية جياد قد أخذت غنائم أو جاءت أسرى ، وقد عرفنا بعد ذلك أن رجالنا هؤلاء ذهبوا كعادتهم إلى ناديهم في معارش الكروم « إياها » لينعموا بالخلوة المعهودة ، والسكرة المستطيلة والمائدة الممدودة ، وفيما هم جلوس يتعاطون السكر عنبا أو العنب سكرا ، إذ لمحوا ثلة من البروسيين قادمة من ناحية القرية ، فلم يتراجعوا ناكصين على الأعقاب ، وإنما كمنوا لها خلف الأغصان ، وترصدوا لرجالها حتى إذا رأوا ضباطها قد ترجلوا عن خيلهم أمام خان هناك لاستراحة وشراب ، انقضوا على العسكر فشتتوا جمعهم وفرقوا شملهم ، واضطر الكولونيل نفسه وضباط الحرس الذين معه إلى اللياذ بأذيال الفرار .

وقد بلغ إعجابي بتمبكتو كل مبلغ حتى لقد كدت أتعلق بحقويه وأمطر وجهه الأسود لثما وتقبيلا ، ولكنني لم أفعل إذ رأيته يظلع في مشيته فخشيت أن يكون جريحا ، غير أنه استضحك قائلا : لا تنزعج يا سيدي ، فما بي من سوء ومثلي لا يخرج من معركة جريحا ، فعدت أنظر إليه مليا ولشد ما دهشت إذ رأيت جيوبه مفعمة وارمة ، وعلمت أنه لم يترك شيئا رآه مع العدو إلا أخذه ، وكان الحمل ثقيلا والغنيمة عظيمة والأسلاب منوعة ، أزرار نحاسية ، وقطع فضية ، وخواتيم ذهبية ، وساعات معدنية ، وألف صنف وصنف .

قلت له ضاحكا : ماذا كنت صانعا لو لم تكن لك هذه الجيوب ، أحسبك لن تمتنع عن بلعها فى جوفك لأنه أوسع من رحمة الله !

وكذلك اتخذ السرقة والنهب والسلب فنا ، تمتلىء جيوبه ليلا وتخلو نهارا .. ولم أكن أدرى أين جعل يخفى غنائمه ويخبىء أسلابه، فذلك سر لم يكتشفه أحد .

وحل الشتاء فساءت فيه حالنا ، وكثرت المناوشات بيننا وبين عدونا ، واشتد يأسنا وتفاقم بؤسنا ، وكاد رجالنا يجنون من الجوع والظمأ إلا أصحابنا الأحد عشر فقد ظلوا سمانا أقوياء ، نشاطا أشداء ، بسامين متهللين ، بل لقد سمن تمبكتو واكتنز لحمه وتضخم جسمه .

قال لى نى ذات يوم : أحسبك تشعر بجوع شديد وعندى طعام شهى ، فهل لك فى شىء منه ؟ ، وقبل أن يتلقى الجواب ذهب فجاء بقطعة طيبة من شواء .

وعجبت لهذا اللحم من أين ظفر به ، وكنا قد استنفدنا ما كان لدينا من أنعام ماشية ، ولا خيل عندنا ولا حمير ولا بغال ، فمن أين هذا اللحم إذن ؟ وسرى ى ذهنى بعد أن أكلت الشواء خاطر شنيع ، قلت فى نفسى : إن أولئك الزنوج جاءوا من قبائل اشتهرت بأكل اللحوم الآدمية ، وهم يتخذون جثث موتاهم طعاما ويجدونه أكلا فاخرا شهيا ، وكنا فى كل يوم نعثر بجثث القتلى من رجال العدو ، فهل ترانى أكلت لحما آدميا .. ؟

وفى تلك الليلة أخذتنى نوبة مستطيلة من سعال ، وقد جلست أرعش من البرد والضعف والإعياء ، ولكننى لم ألبث أن شعرت بشىء دافئ قد احتوانى ، ودثار قد لفنى ، فإذا هو دثار تمبكتو جاء به فزملنى ليدفئنى .

فنهضت من مجلسى وألقيت الدثار إليه قائلا : أمسك عليك دثارك يا بنى فأنت أحوج إليه منى ، قال : كلا يا سيدى .. كلا ..إنه لك لأن تمبكتو فى دفء وخير ، فلا حاجة به إلى تدثر ولا تزمل .

ورأيت عينيه تتوسلان إلى أن أجيبه إلى طلبه وأنزل على رغبته ، عينى كلب أمين مخلص إلى سيده ، ولكننى عدت أقول : أطع قولى ولا تعص أمرى ، خذ

الدثار قلت لك . فلم يكن منه إلا أن أمسك بالدثار ثم تناول سيفه وراح يقول : لئن لم تأخذ الدثار لتستدفئ به لأشقنه مزقا وأقطعنه خرقا فلن يفعنى ولن ينفعك ..

وأدركت أنه ولا ريب منفذ وعيده إذا أنا أصررت ، فلم أصر وإنما استسلمت .. !

وبعد أسبوع لم نستطع غير التسليم ، لأن فريقا من رجالنا لجأوا إلى الفرار ، واعتزم الباقون أن يخرجوا من المدينة فيسلموا أنفسهم إلى العدو ، وفيما كنت سائرا نحو الساحة التى سيتم فيها التسليم إذ أخذ عينى مشهد عجب فوقفت مبهوتا مذهولا .. فقد رأيت زنجيا مريدا فى ثوب أبيض ، وقد غطى رأسه بقبعة من الخوص .. وكان ذلك العملاق تمبكتو !! وإذا هو بسام متهلل يروح ويغدو أمام دكان صغير داسا يديه فى جيبه ماشيا مشية الزهو والخيلاء

قلت : ماذا تفعل هنا يا تمبكتو ؟

قال : محسوبك طباخ ماهر ، والكولونيل البروسى من زبائنى .. لقد سرقت كثيرا من السكارى والعسكر ، نعم ، كسبت مكسبا هائلا وأنا اليوم كما ترى ..

وتقدم نحوى فتأبط ذراعى ومشى بى إلى الحانوت ، فلمحت فى مدخل الدكان يافطة « لوحة » كبيرة كان فى نيته أن يعلقها فوق الحانوت بعد رحيلنا من البلد وفاء منه لأربابه الأولين ، وأدبا فى حق ساداته الفرنسيين الراحلين !

وقد كتب على اليافطة بأحرف كبيرة : « المطعم الحربى ، لصاحبه مسيو تمبكتو الطباخ الشهير وطاهى صاحب الجلالة الإمبراطور ، والحاصل على الدبلوم فى فن الطهى من باريس ، والأثمان متهاودة ومن يشرف يجد ما يسره ! »

فضحكت على الرغم مما فى نفسى من غم وألم ، وتركت صاحبى الزنجى ومضيت فى سبيلى قائلا لنفسى : لقد أحسن صنعا ، فذلك خير له من الرضى بذل الأسر !

وقد رأيت الساعة بعينك إلى أى حال كان مآله ، وإلى أى نعمة ونجاح وفلاح كان مصيره ... !

غرام فاضح

كانت الأميرة « ليونى » من أولئك الحسان الفاتنات اللاتى لا يستطيع امرؤ من فتونهن فرارا ، ولا يملك دفاعا ولا ردا . امرأة هى لغز من ألغاز الدنيا وسر من أسرارها المحجبة ، ولم تكن جاوزت مراحل الشباب بعد ، ثم هى الفطنة الحازمة الأديبة ، وكانت على الرغم من مقامها الرفيع المحدثة البارعة ، والمتظرفة اللبقة ، والذكية الألمعية . وكانت ترعى أهل الفنون وتقرب إليها رجال الأدب ، وتخص برعايتها منهم الشعراء الشباب لترفه عنهم متاعب الحياة ، وتمهد لطريقهم فى سبيل الشهرة والمجد .

وكان الناس من أمر هذه الأميرة فى عجب لاينقطع ، فهى لغز جميل وسر غريب ، ولم يكن يستطيع أحد أن يقرأ ما وراء وجهها الجميل الهادئ الذى لايتغير ولا يتأثر ، أو يسبر غور عينيها النجلاوين السوداوين الساهيتين الساحرتين صفاء وجلالا ، وبريقا ولألاء ، غير أن فريقا من الناس كانوا يقولون عنها إنها امرأة شهوانية لاقلب لها ولا عاطفة ، وكان آخرون يقولون لئن كانت كما ترون طيبة فاضلة ، عفة طاهرة ، فإن السر فى ذلك هو أنها لم تخدع يوما .. ولم تستمل . وادعى بعضهم أنها الحسناء المخيفة لا يؤمن جانبها ، والمليحة الغادرة القاتلة تعرف كيف تقتنص العشاق وتتصيد المغرمين ، فإذا شبعت شهواتها منهم ألقت بهم فى النهر ، فلا يعلم أحد عن سرها شيئا ..

وقد سمع الكونت « أوتو » بهذه الأقاويل المتداولة ، وكان الكونت ضابطا جميلا من سلاح الفرسان وقد تعرف بها فى مدينة الحمامات المشهورة « كارلسباد »، وأشاع عنه الناس أنه لم يكد يراها حتى فتن بحبها فتونا . بل زعموا أن الأميرة قبل أن يقدم إليها للتعارف ، بادلته رنوات مشجعات ، ولحظته بلحظات ملهبات ساحرات ، فلما صحبه أحد إخوانه الضباط إلى زيارتها فى دارها ، تلقته بابتسامة فتانة أحس من ورائها السعادة منه قريبة ، وإنه قد ظفر برضى الحبيب .

وظل يتحبب إليها شهرا كاملا ثم لايشيم بارقة من نجاح ، فقد كانت الأميرة امرأة ذكية بارعة حاذقة لفنون الهوى وأساليب الاستهواء ، تعرف كيف تميت في الحب وتحيي ، وتمن باللحاظ وتخلف ، وتجيع الأمل وتغذى الرجاء .

واعتاد هذا الضابط العاشق المفتون كل ليلة أن يتمشى حول دارها الغناء ، ويذرع من جواه الفضاء ،ويطوف القصر تحت شرفاتها في تسلل الخفاء .

ففي ذات ليلة والقمر بازغ والضياء منبسط على الحديقة الزهراء ، إذ ارتفع له شبح امرأة مديدة القوام مرهفة القد يدنو منه ويقترب رويدا ، فوقف في مكانه مذهولا لايستطيع حراكا وقد ظن أنها الأميرة قادمة ، ولكنها لم تكد تقترب منه حتى تبين أنه قد أخطأ في ظنه ، إذ شهد حياله فتاة مليحة لم يكن قد عرفها من قبل وقد دنت منه حتى وقفت قباله ، وانثنت تقول بابتسام : هل من خدمة أؤديها لك يا سيدى الكونت ؟ قال في دهشة : أراك تعرفينني . قالت : كيف لا وأنا وصيفة سمو الأميرة . قال : ياعجبا ما كنت أعرف ذلك ، ولكن حمدا لله أني عرفت أنك تستطيعين أن تؤدى لى صنيعا ، ولست أطلب أكثر من كتاب تحملينه إليها . أتفعلين ؟ !

قالت : أخشى ألا أستطيع ذلك .

ورنت إليه بنظرة ساحرة،وأمضت إليه إيماضة مشفقة راثية،وتولت عنه ذاهبة.

ولكنه لم يلبث بعد بضعة أيام أن تلقى كتابا عجيب الأسلوب غريب العبارة ، تقول فيه إنها قد شعرت بميل إليه ورضى عن حبه ، وتعين له موعد اللقاء سرا في تلك الليلة بالذات . وكان المكان الذى وصفته له في كتابها خميلة لها في بهرة الحديقة الغناء .

وقرأ الكتاب مذهولا ، وتلاه وهو شارد الذهن من فرط الفرح ، وقضى النهار في قلق ، وقطع الساعات وهو على أحر من جمر الغضا ، ولم يكد يحل المساء حتى كان قبل الموعد المضروب بساعه أو تزيد واقفا وراء سور الحديقة .

وسمع ساعة الكنيسة تدق مؤذنة بأن موعد الحبيب قد حان ، فتسور الجدار وهبط الحديقة ، ولم يكد يفعل حتى ألقى بصره في جوانبها فإذا هنالك خميلة صغيرة في أقصى البستان أدرك أنه المكان المعين ، فمشى متسللا في حذر حتى

بلغها فإذا الباب مفتوح ، فدخل وقبل أن ينتبه إلى ما جرى شعر بذراعين ناعمتين قد طوقتا عنقه . فهمس فى الظلام قائلا : أهذه أنت أيتها الأميرة ؟ ؟ قالت : نعم ، بل جاريتك المحبة المحبوبة يا كونت . قال : ما كان أقساك يا غالية ... !

– لا والله لقد أحببتك مذ رأيتك . ولكنى كما ترى مضطرة إلى إخفاء حبى تحت هذا الفتور الذى آلمك منى ، حفظا لمركزى وصيانة لمقامى ..

وكانت ترتعش على صدره من فرط الاضطراب وحرارة الجوى ولذة الموقف ، ولكنها لم تلبث أن اجتذبته برفق إلى متكأ فى الخميلة . وأهوت على وجهه تقبله أحر القبل .

وقضى العاشقان ساعتين فى تلك الخلوة البديعة ، يتجاذبان أطراف الحديث ويتشاكيان الهوى ويتبادلان اللذات ويتعاطيان القبلات ، ثم قامت تودعه وأمرته أن يظل فى موضعه ، فلا يخرج من الخميلة حتى تبلغ هى القصر . فأذعن لأمرها وإن كان قد وقف من خلف الأستار المسدولة ينظر إلى قدها النحيل المرهف وهى ذاهبة .

ولقيها فى اليوم التالى فى دار التمثيل وكانت مع جمع من أصدقائها ، فلم تعره اهتماما ولم تقبل عليه بابتسام ، فاندهش من هذا اللقاء الفاتر ، وعجب لهذه المرأة الداهية كيف تستطيع أن تخفى حبها المتقد وهواها المستعر المتأجج الذى شهد فى الليلة الفارطة منه ما أذهله وأسكره وراء هذا البرود الغريب واللقاء الهادئ ، كأن لم يجر بالأمس ما جرى ..ولكنه عاد إلى نفسه يقنعها بأن الأميرة مضطرة إلى الظهور كذلك أمام الناس ، حتى لا ينم الابتسام عن الغرام . وما لبث أن ألف ذلك منها فى المجامع ، فلم يكن ليغضب منه أو يجد ألما لأنه جعل من يوم لآخر يتلقى منها كتابا معطرا مضمخا يحمل إليه نبأ اللقاء فى الخميلة تحت جنح الدجى ، فكان ينعم فى الخلوة بما ينسيه ألم الصد والإعراض فى المجامع والحلقات . ولم ينتبه الكونت إلى مسألة غريبة اعتاد أن يراها منها فى كل خلوة إلا بعد فترة طويلة ، لأنه كان فى نشوة غرام وسكرة هيام لا يعى شيئا ، وذلك أنها كانت تجيئه مقنعة فلا تكشف عن وجهها ولا تسفر عن محياها الجميل الساحر . وكان قناعها أسود كثيفا فلم يكن يرى من ورائه سوى عينيها البراقتين

المفعمتين حبا ، وكانت فى كل خلوة تجىء بثوب غير الثوب الذى كانت ترتديه فى اللقاءة الماضية .

ففى إحدى الليالى وهما فى « فينا » ، جاءته مرتدية ثوبا فخما من المخمل الأخضر . وكان أول شئ فعلته عند دخول الحجرة هو إطفاء الأنوار وكانت تلك عادتها فى كل خلوة ، فلا يكاد الظلام يعم المكان حتى تفارق فتورها المألوف ، فإذا هى من الحب والغرام فى نار تلظى .

قال وهما يتعاطيان العناق والتقبيل : لماذا لاتسمحين لى برؤية محياك ؟ ؟

قالت : أخشى أن أرفع الخمار فيباغتنا أحد ونحن ذاهلان فتكون الفضيحة .

وافترقا فى تلك الليلة على أن يتلاقيا فى مساء اليوم التالى فى دار الأوبرا .

ولم يشهدها أفتن طلعة ولا أبهى ملاحة مما رآها فى ليلة الأوبرا خلال الفصول ، فقد ألفاها متجملة بذلك الثوب الأخضر الذى عليها فى خلوة الليلة الماضية ، وكانت تتحدث إلى زوجها البرنس دون أن تعيره هو أدنى التفاتة ولا أقل رنوة .

واتفق للكونت فى ذات يوم بنادى السباق أن تعرف إلى زوجها الأمير ، وما لبث هذا أن مال إلى الكونت ودعاه مرة إلى زيارة فى بيته .

وذهب الكونت إلى القصر فوجد الأميرة منفردة فكاد قلبه يطير من الفرح ، وراح يمسك يدها ويرفعها إلى شفتيه وهو ذاهل من فرط اللذة ومتعه اللثمة المسكرة .

ولكن الأميرة اجتذبت يدها من يده وتراجعت مجفلة .

قالت غاضبة : ما هذا ياسيدى الكونت ؟ إن سلوكك هذا خارج عن حدود الأدب .

فهمس يقول : ولكنا وحدنا فعلام الإخفاء وعلام الكتمان ؟ إن قسوتك تكاد تذهب بلبى ، فقد مر على آخر عهدنا باللقاء ستة أسابيع الآن !

فأجابته الأميرة بكبرياء واشمئزاز : يلوح لى أنك كما قلت الآن مجنون فاقد الرشد ياكونت .

ونهضت من مجلسها وتولت غضبى نافرة ..

أما الكونت فقد لبث مدهوشا لايدرى سببا لهذا المسلك الشاذ من الأميرة ، وانصرف مبهوتا حائرا من فرط العجب .

ولكنه فى مساء ذلك اليوم بذاته وجد عند عودته إلى داره رقعة من الأميرة ، تطلب إليه فيها الصفح عما كان منها وتعده أنها سوف تشرح له عند اللقاء السر وتكشف له عن الباعث ، ولكى تزيل كل أثر لجفوتها تلك واعدته اللقاء فى الثامنة من ذلك المساء .

ولكنه لم يكد يفرغ من قراءة رقعتها حتى دخل عليه صديقان من زملائه الضباط ، فسألاه فى لهجة القلق الظاهر هل يشعر بمرض أو يحس ألما ؟ فتعجب لهذا السؤال وأكد لهما أنه فى أتم صحته ووافر قوته لا يشكو شيئا مطلقا . فانثنى أحدهما يضحك قائلا : نحمد الله على ذلك ، ولكن ما تأويل هذه الإشاعة التى راجت اليوم عنك ، فإن خلقا كثيرا من أصدقائك يقولون إنك مثلت اليوم فصلا مضحكا للغاية . فبهت الكونت وأجابه قائلا : أنا أمثل فصلا مضحكا .. ! وكيف كان ذلك ؟

قال صديقه : وهل هناك فصل أدعى إلى الضحك والسخرية من زيارتك لسيدة كالأميرة « ليونى » وأنت لا تعرفها ولم تقم بينك وبينها مودة ولا ألفة ، فتروح تعاتبها على قسوتها المدهشة .. ؟ !

وسمع الكونت ذلك فمادت به الأرض !

حقا إن هذه الضربة القاضية . أما كفاها وهى رفيقته التى تجيئه للخلوة يوما بعد يوم ما كانت تظهره من الجفاء له أمام الناس ، حتى تريد أن تجعله سخرية الصحاب فى المجالس ؟

وأخذته سورة الغضب على هذا المسلك العجيب من الأميرة ، فأقسم لصديقيه أن بينه وبين الأميرة علاقة غرام ، وأنها خليلته التى تزوره تحت جنح الظلام ، وختم كلامه بقوله : وإذا كنتما فى شك فزورانى فى السابعة من المساء فسأعد لكما البرهان وأهيىء الدليل .

ولما آذنت الثامنة من المساء أقبلت الأميرة مختمرة كعادتها ، فمشى الكونت بها إلى الحجرة المظلمة وأوصد الباب الخارجى . ثم تقدم إلى باب هناك يؤدى

إلى أخرى ففتحه وأشار إلى صديقيه أن يتقدما ، فجاءا مسرعين وقد حمل كل منهما مصباحا بيده .

واندفع الكونت نحو الأميرة فنزع عن وجهها القناع بغضب ، ثم نظر إليها فبهت وجمد مكانه من فرط الدهشة .

لم تكن تلك الأميرة « ليونى » بل جاريتها الحسناء !

وقد اعترفت الجارية أنها كانت تجيئة إلى الخلوة فى ثياب مولاتها ، وتستعير كتب الأميرة لتكتب عليها رقاعا إليه ، وتسرق ثيابها لتتجمل بها،وكانت الثياب تصلح لها وتتناسب على بدنها لما بينها وبين مولاتها من الشبه التام ، خصرا وقدا وشكلا .

وخرج الكونت من المدينة تحت ستار الظلام . ولقد انتهى إلى الأميرة نبأ ما صنعت جاريتها فطردتها من القصر شر طردة ، واعترفت الجارية بأنها قد مثلت هذه الفصول مع أكثر من عشرة من نبلاء القوم وسادات المجتمع باسم الأميرة « ليونى » نفسها ، وكذلك حل هذا اللغز ، بل فى الواقع لم يكن ثمة لغز مطلقا حتى يحل ! إذ كانت البرنسيس ليونى زوجا مخلصة ككل الزوجات المحصنات ، ولم تكن كما ظن القوم ذات شخصيتين متعارضتين .

الصّاحبان

كان ذلك في حرب السبعين ، وقد أزم الحصار على باريز وضاق الخناق ونهكها الظمأ والجوع وأشرفت على الهلاك ، فطار عن عشه العصفور ، وخلت من الحمام أسقف الدور ، ومن الحدأ والغربان والصقور . وجاعت الهوام فى مزاحفها ، والحشرات في مآلفها ، وطوى الهر فى مضطربه ، والفأر فى منسربه ، وراح النحل من عسله حريبا ، والدود من قزه سليبا .

بينما المسيو « موريس » الساعاتى فى معظم الأوقات والشباشبى أحيانا ، يتمشى فى إحدى الأسواق الخالية يداه فى جيبيه وأمعاؤه خاوية ، بفؤاد من البث مفعم ومعدة خالية ، إذ صادف صاحبا له من هواة صيد الأسماك يدعى المسيو « سوفاج » .

كان المسيو موريس قبل نشوب الحرب يخرج فى أيام الآحاد يحمل سناره وسلته ، فيركب القطار إلى بلدة « كولومب » ، ومنها على القدم إلى جزيرة « مارانت » ، وهناك يواصل صيد الأسماك إلى المساء .

وكان لايزال فى كل رحلة يلقى هناك رجلا بضا صغير الجرم ، ضحوك السن مفراحا يسمى « سوفاج » ، تاجرا بشارع « نوتردام دى لوريت » من المولعين أيضا بصيد السمك .

فكانا ربما ظلا سحابة اليوم جنبا لجنب حاملى السنار وأرجلهما من فوق التيار تهتز ، ومن ثم تمت بينهما الألفة وتوثقت عرى الصداقة .

وكانا فى بعض الأيام يسكتان فلا يكادان ينبسان ، وأحيانا يتحادثان ، على أن الصمت والحوار كان لديهما سيان إذ كانا بلا منطق وبلا إشارة يتفاهمان ، لفرط ما كانا فى الشعور والعاطفة يتشابهان ، وفى الأذواق والمشارب يتماثلان .

فإذا كان الربيع وقد صقلت الضحى حسام النهر ، وصاغت عليه من الضياء غمدا من الذهب النضار ، تملك الطرب والحبور المسيو موريس فقال لزميله .

« ما أطيب المقام ههنا ! » فأجابه الزميل « ما أعرف شيئا أطيب ! » وفى هذه الإشارة الخفيفة واللمحة الدالة ، ما يفى بتبادل الأفكار والعواطف بينهما .

وإذا كان الخريف وقد تأججت شمس الأصيل ، وألقت على صفحة الماء أشكالا شتى من سّحائب حمراء ، ووشحت أعطاف النهر فى معصفرات الوشى والحبر ، وأوقدت على الآفاق نيران الحريق المضرم ، وسربلت الزميلين بملاحف من لهب ، وأسالت على سندس الروض ذوب الذهب ، ابتسم « موريس » إلى صديقه « سوفاج » وقال : « أى منظر هذا ! » فأجابه صديقه ولم يرفع عن السنار بصره : « أجل ، أى منظر ! »

* * *

وكذلك لما التقى الرجلان تصافحا ، وهاج أحزانهما أن يكون لقاؤهما فى مثل تلك الظروف الأليمة الفاجعة ، من بعد تلك المناعم الممتعة والمشاهد الرائعة .

فتنهد المسيو سوفاج وقال :

« أى نكبات بالبلاد حلت ! »

فأجاب « موريس » :

« لله ما أصفى أديم السماء ، وما أرق غلالة الهواء ! اليوم غرة العام الجديد ! »

وحقا كانت زرقة السماء مشبعة ، ومن سيول الضياء واللألاء مترعة .

سار الصديقان معا مطرقين محزونين ، وقال «موريس »

« وصيد الأسماك ؟ والهفتا على ذاك من متاع ! ألا ليت شعرى هل لذلك العهد من مآب ! »

قال سوفاج :

« وهل لذاك النعيم من عودة ! »

ثم دخلا حانة فشربا قدحا من « الأبسنت » واستأنفا المسير

وقف موريس وقال لصاحبه :

« ماذا ترى فى قدح آخر من الراح ؟ »

قال صاحبه :

« ما تشاء ! »

وعرجا على حانة أخرى .

ثم خرجا يترنحان تصطك منهما الأرجل والأقدام ، كصائمين أفعما جوفيهما بالكحول . وكان الجو صحوا وقد سحب عليهما النسيم أذيالا تعبق بنفحات الورد والنسرين .

فوقف سوفاج وقال : ولم لانذهب إلى هنالك ؟ »

قال صاحبه :

« أين تريد ؟ »

« إلى الصيد » .

« ولكن إلى أين ؟ »

« إلى محلنا المعهود بالجزيرة . إن الحرس الفرنسى الأمامي على مراقبه عند « كولومب » وإنى أعرف قائده الكولونيل « دومولين » وأثق أنهم يأذنون لنا فى الذهاب »

فاهتز موريس شوقا إلى الصيد وصبابة ، وقال :

« كما تشاء ، إنى معك فى كل ماتبغى وتريد »

ثم افترقا ليذهب كل إلى داره فيعد للصيد العدة .

* * *

وبعد ساعة كانا يسيران على الطريق العام .

وما لبثا أن بلغا معسكر الكولونيل « دومولين » فابتسم ذلك الضابط الكبير من غرابة مطلبهما وأذن لهما فى الذهاب ، فاستأنفا المسير مزودين بالجواز .

وما نشبا أن عبرا المراقب الأمامية ثم أفضيا إلى كروم تنحدر إلى نهر « السين » ، وكانت الساعة الحادية عشرة صباحا .

وامتدت أمامهما قرية « أرجنتيل » كأنها ميت فى أكفانه ، وكانت ربى « أورجيمون » وآكام « سانوا » تشرف على طول البلاد وعرضها ، والسهل المنبسط الفسيح بلقع يباب وقفر خراب .

فأومأ المسيو « سوفاج » إلى الربى والآكام وقال : « إن الجيوش البروسية على تلك الهضاب معسكرات » .

وتملك الصاحبين فزع شديد شل منهما الحركات .

الجيوش البروسية !

شهد الله أن الصديقين ما أبصرا البروسيين قط ، ولكنهما كانا بوجودهم يشعران . أجل كانا يحسان ثقل وطأة ذلك الجيش الجرار حول باريز . يلح على أقطار فرنسا ذبحا وسفحا ، ونهبا وسلبا ، وتخريبا وتدميرا .

قال « موريس » :

« وماذا نصنع إذا وقعنا فى أيديهم ؟ »

قال سوفاج ولم يفارقه المجون الفرنسى الذى لا تطفىء شهابه كارثة وإن عظمت :

« ماذا نصنع ؟ نقدم إليهم « أرموطا »

ولبثا برهة يتنازعهما الخوف والأمل ، والإقدام والإحجام ، إلى أن قال « سوفاج » :

« هلم بنا ، هيا بنا ! »

ثم هبطا إلى كرمة يزحفان على الأربع ، يستتران بالأعشاب قد أرهفا المسامع والألحاظ ، وبقيت أمامهما رقعة من الأرض عارية الأديم لابد من اجتيازها لبلوغ حافة الماء فاستحثا الأقدام ركضا ، حتى إذا بلغا ضفة النهر افترشا التراب ، يلتحفان عارى القصب والغاب .

وألصق « موريس » أذنه إلى الأرض يتسمع ما عسى يكون من وقع أقدام العدو حواليهما ، فلم يسمع شيئا فاطمأنا وشرعا فى الصيد .

وكانت تمتد أمامهما فى النهر جزيرة « مارانت » تحول بينهما وبين الضفة المقابلة ، وكان مقصفها خاويا مغلقا كأنه طلل عفت رسومه منذ أقدم الأزمان .

واصطاد المسيو سوفاج أول سمكة ، وتناول « موريس » الثانية ، وما برحا يتساجلان . وأقبل عليهما الحظ فأثريا من الصيد يلتقطانه فيضعانه فى شبكة تحت أقدامهما ، وشملهما نوع عجيب من الفرح — أعنى ذلك السرور الذى يتولاك حين تسترد متاعا قد حرمت لذته أمدا مديدا .

وكذلك انغمسا فى غمار تلك اللذة ، ونسيا الدنيا وما عليها . لقد كانا يصيدان !

وإنهما لكذلك إذ صك مسامعهما دوى جلجلة أجش ، كأنما ينبعث من جوف الأرض قد زلزلها زلزالا ، وإذا المدفع قد شرع يقصف .

فالتفت « موريس » فأبصر هامة جبل « فاليريان » تزدان بريشة عالية بيضاء ، أو بعبارة أخرى ينبعث منها عمود من الدخان الأبيض ، ثم انبعث على أثر ذلك عمود آخر من ناصية الحصن ، أعقبه انفجار أى انفجار !

ثم توالت القصفات وتواترت الانفجارات ، ولفظ الجبل زفراته الجهنمية ، وصعدت إلى عنان السماء أبخرة المنية ، فعقدت على أرجاء الفضاء سحابة شنعاء .

فهز المسيو « سوفاج » كتفيه ، وقال :

« لقد استأنفوا الإطلاق ! »

وصاح موريس مغضبا : « على هؤلاء المجرمين لعنة الله ! أليس يقر أعينهم ولا يشرح صدورهم إلا إخافة عباد الله المطمئنين ، ومباغتتهم فى لذاتهم وهم فى سربهم جد آمنين ؟ »

قال سوفاج :

إنهم شر من الوحوش الضارية ! »

قال موريس وقد رفع « بياضة » على طرف سناره :

« أليس من البلية أنه لن يسلم الناس قط من آفات الحروب ما دام فى الدنيا

حكومات ، ولن تكون دنيا بلا حكومات ، فلا مناص من الحرب ما بقيت الدنيا ؟ »

واستمرا فى المناقشة ، واستمر جبل « فاليريان » يقصف ويزمجر ، يدمر المنازل الفرنسية والدور بالقذائف الساحقات ، والمراجم الماحقات ، يزهق الأرواح ويوبق الأشخاص والأشباح ، ويمزق الأشلاء ويبدد الأحشاء والأمعاء ، ويهدم الآمال والأحلام ويشتت الخلان والأخصام ، ويصدع فى قلوب الأمهات والأخوات والزوجات جراحا ، لن تلتئم حتى تلتئم من فوقهن القبور !

قال المسيو سوفاج :

« أولى لك أن تقول : هكذا الدنيا ! وهكذا الحياة ! »

قال المسيو موريس :

« هكذا الموت ، وهكذا الآخرة ! »

وأحسا وقع أقدام خلفهما فالتفتا ، فإذا على رأسهما أربعة جنود ملتحين مسلحين ، طوال القامة عراض المناكب قد صوبوا إليهما أطراف الرماح ، فسقط السناران من يديهما وانسابا على الماء .

وما هى إلا لحظات حتى كبلا بالسلاسل والأغلال ، وحملا على زورق إلى الجزيرة وهنالك وراء المقصف الذى حسباه مقفرا خاويا ، ألفيا شرذمة من جنود الألمان .

والتفت إليهما كبيرهم وكان رجلا مديد القامة عملاقا ، أشعر كثيف الوبر ، يدخن من أنبوبة طويلة . فسألهما بالفرنسية الفصحى :

« لعل سهمكما من الصيد كان اليوم راجحا ، وغدوتكما مباركة ؟ »

فتقدم أحد الجند وألقى بين يدى الضابط شبكة الصديقين مملوءة سمكا .

فابتسم الضابط وقال :

« حقا لتلكما نجعة ناجحة ، وصفقة رابحة ، ولكن لدينا مسألة أهم وأخطر ، فأنصتا إلى ولا تجزعا .

« أرانى بحكم الضرورة ملزما أن أعدكما جاسوسين علينا وعلى حركاتنا ، فليس

أمامى سوى إعدامكما رميا بالرصاص ، وأنتما إنما اتخذتما صيد السمك ستارا تخفيان وراءه بغيتكما المقصودة ، وقد وقعتما فى يدى لسوء حظكما ، ولا عجب فالحرب سجال !

« على أنكما لدى اجتيازكما المراقب الأمامية من المعسكر الفرنسى ، قد أعطيتما « سر الليل » لتؤدياه ثانيا عند عودتكما . أعلمانى ذلك « السر » وأنتما حران لوجه الله تعالى »

لم يفه الصاحبان بكلمة ، بل وقفا صامتين شاحبين جنبا لجنب وأيديهما فى الأصفاد ترتجف .

قال الضابط :

« سيبقى هذا السر مكتوما وسترجعان إلى موطنكما فى أمان ، فإذا أبيتما فالموت العاجل – الآن ! – فاختارا ما تشاءان »

فظلا جامدين ولم ينطقا بكلمة .

قال الضابط البروسيانى ولم يتحرك عن رزانته ووقاره ، وأشار إلى النهر :

« اذكروا أنه قبل خمس دقائق ستكونان فى قرارة هذا الماء ، قبل خمس دقائق ! اذكروا أهلكما وأولادكما ! »

كل ذلك وجبل فاليريان يقصف بالدوى قصفا ، ويقذف بالحمام قذفا .

ولبث الصيادان قائمين صامتين ، وألقى الضابط بضعة أوامر بلغته ثم دنا بكرسيه من الأسيرين ، وزحف اثنا عشر جنديا شاكى السلاح حتى وقفوا على عشرين خطوة من الزميلين .

وقال الضابط :

« أمامكما دقيقة أخرى ، دقيقة ليس إلا »

ثم نهض فأقبل على الرجلين ، فأخذ بمرفق « موريس » وانتحى به جانبا وهمس إليه قائلا :

« أسرع أعلمنى « سر الليل » . لاتخف فلن يعلم صاحبك شيئا .

سأتظاهر بأني قد رثيت لكما فعفوت عنكما على الرغم من ضنكما بإذاعة السر ، أسرع ! »

صمت موريس فلم يحر جوابا !

فتحول عنه الضابط إلى صاحبه ثم صنع بالثانى مثلما صنع بالأول ، ولكن سوفاج لبث كذلك صامتا .

فصفا ثانيا جنبا لجنب .

وصاح الضابط بالجند فرفعوا السلاح .

وهنا ألقى موريس نظرة على الشبكة مملوءة سمكا ، ملقاة على العشب على قيد خطوات ، ولاعب الشعاع صيد البحرفالتمعت ظهوره وصدوره ، وتألقت زعانفه وقشوره ، وكان لايزال حيا يتفرز ، ينشط فى الحبالة ويتحفز .

فعلى الرغم من رزانة موريس وتجلده ، اغرورقت بالدمع عيناه وانفجرتا وقال ملجلجا :

« وداعا يا صديقى سوفاج ! »

فأجاب سوفاج « وداعا يا صديقى موريس ! »

ثم تصافحا بالأكف وإنهما لينتفضان من الفرع إلى القدم ، فرط لهفة وحنين .

وصاح الضابط :

«أطلقوا ! »

فرنت الاثنتا عشرة رصاصة رنة رصاصة واحدة ، وأكب المسيو سوفاج لحر وجهه كجلمود صخر ، وكان موريس أطول قامة فترنح كالنزيف هنيهة ثم هوى فوق صاحبه يستقبل السماء بوجهه ، وفواقع الدماء تتسرب من طعنة نجلاء فى صدره .

وتفرق الجند ثم عادوا بحجارة علقوها إلى أرجل القتيلين بأسباب من كتان ، وحملوهما إلى حافة النهر .

كل ذلك وجبل « فليريان » يهدر بشقشقة الفحل الصائل ، وقد غشيه من الدخان جبل مثله .

وتناول جنديان « موريس » من رأسه وقدميه ، وصنع آخران مثل ذلك بسوفاج ، ثم طاحت الجثتان من أيدى الجند

فرسمتا من الهواء نصف دائرة ثم غاصتا في الماء تجذبهما الحجارة .

فارفضت المياه وطارت صفائح وشظايا ثم أرغت وأزبدت ، ثم وجفت ورجفت ، ثم اطمأنت وسكنت ، وارتدت إلى كلتا الضفتين أفواج من أمواج صغيرة .

وطفت على وجه النهر بقع قليلة من الدم .

وقال الضابط بصوت هادئ :

« الآن دور السمك » ثم عمد إلى الشبكة فالتقطها بما فيها وابتسم قائلا :

« يا ولهلم ! »

فهرع إليه جندى فى مبذلة بيضاء ، فطرح إليه الضابط الشبكة وقال :

« أنضج لنا هذه على عجل ولما تفارقها الحياة ، فإنا مصيبون فيها بإذن الله طعمة لينة ومضغة سائغة » ثم استمر يدخن !

شهر العسل

تزوج المسيو « ليبريمان » بالآنسة « جان » .. ولا غرو فالمسيو « ليبريمان » شاب قد احترف حديثا بحرفة المحاماة ، وقد اتخذ مكتبا ويريد أن يهيئه على أتم ما يرام ، وليس يتأتى له ذلك إلا بالمال الكثير .. وهذا موفور لدى الآنسة « جان » بمقدار ثلاثة آلاف جنيه نقدا ، وأوراقا مالية تحت الطلب .

كان المسيو « ليبريمان » شابا جميلا حلو الشمائل ، وكانت الآنسة « جان » حسناء معشوقة الدلال فتانته .

واعتزم الزوجان على الرحلة إلى باريز بعد بضعة أيام ليقضيا بها شهر العسل ، وفي صبيحة ليلة الزفاف كان حب العروس الحسناء لزوجها قد أفرط إلى حد العبادة ، فلم تك تستطيع أن تبقى على قيد الحياة لحظة من دونه ، فكانت تلزمه البقاء بقربها طول اليوم تلاطفه وتدلله ، وتعانقه وتقبله ، وتلعب بيديه وكتفيه وأنفه وشفتيه .. الخ ، ومن مألوف ألاعيبها معه أنها كانت تجلس إلى جانبه وتمسك بشحمتي أذنيه ، وتقول له : « افتح فمك وأغمض عينيك ! » فيفتح فاه مطمئنا ويغمض أجفانه نصف إغماض ، ثم يتلقى من الحسناء قبلة حارة طويلة مفعمة بالوجد والصبابة ، تبعث في ذرات جسده هزة كهربائية رجافة . ولم يكن هيامه بها وولوعه ، ولا حدبه عليها وتحنانه ، ولا ملاطفته لها وتدليله ، بأقل مما كان عندها له من ذلك .

ولما انقضى الأسبوع الأول قال لزوجته الصغيرة :

« لنذهبن إلى باريز بعد غد إن شئت ولنقضين بها شهر العسل ، ولنصنعن ثمة مايصنع الخطيبان قبل الزواج ، نذهب إلى المقاصف والمطاعم وإلى المراقص والملاهي وإلى دور التمثيل والأوبرا ، وإلى كل مكان وإلى كل منظر ومشهد »

فوثبت الحسناء فرحا وجذلا وقالت :

« أجل ، أجل ، لنذهبن فى أقرب وقت ! »

قال :

« ولكى لا تنسى شيئا ، سلى أباك أن يقدم إلينا أموالك قبل رحلتنا ، فإنى أريدها لأدفع منها ونحن بباريز بقية ثمن المكتب الذى اشتريته آنفا إلى بائعه ، كما أنى أريد أن أشترى منها أيضا شيئا من الأثاث والفرش ، وغير ذلك مما يلزمنى من الآلات والأدوات »

« سأسأله ذلك أول ما ألقاه غدا »

وهنا ضمها بين ذراعيه واستأنفا معا ألعوبتهما المألوفة ،تقبله القبلة الحارة المستطيلة وهو مغمض عينيه فاغر فاه ، وكانت لا تكاد تصبر عن هذه الألعوبة دقيقة .

وفى يوم السفر ، كان والد العروس ووالدتها بالمحطة مع ابنتهما وزوجها .

وقال والدها يخاطب المسيو « ليبريمان » :

« إنى أنصح إليك يا ولدى ألا تحمل فى جيبك مثل هذا المبلغ الضخم »

فابتسم المحامى الصغير قائلا :

« أرح نفسك واطمئن من هذه الناحية يا أبت العزيز ، فقد طالما اعتدت بحكم مهنتى أن أحمل مثل هذا المبلغ وأضعافه ، ولا أكذبك إن قلت إنى قد حملت المليون فى جيبى غير مرة . هذا وخير البر عاجله ، لاتحمل نفسك مؤونة الاهتمام والتفكير من جهتنا »

وهنا قدم الرجل إلى زوج ابنته المبلغ فتناوله وطواه فى جيبه .

وتوادعوا جميعا ، وصعد الزوجان القطار فجلسا فى حجرة كان بها عجوزان ، وهمس ليبريمان فى أذن زوجته :

« إن وجود هذين العجوزين معنا سيحرمنى لذة الاستمتاع بالتدخين »

فأجابته قائلة :

« ولكنه سيحرمنى أنا ما هو أشهى إلىّ وأعذب من التدخين »

وصفرت الآلة وتحرك القطار ، ودامت الرحلة ساعة لم يكادا فى خلالها

يتبادلان كلمة لشدة يقظة العجوزين وإصرارهما على عدم النوم ، ولما أنزلهما القطار بمحطة « سانت لازار » قال الشاب لزوجته :

« إذا شئت ياقرة العين مضينا أولا لنفطر فى بعض المطاعم ، ثم عدنا من بعد ذلك على مهل لنحمل متاعنا إلى المنزل »

وسرعان ماوافقته على ذلك قائلة :

« كما تشاء ، وهل المطعم منا بعيد ؟ »

« أجل ، بعيد ، ولكننا نركب الأومنيبوس »

وشد ما أدهش العروس قوله « الأومنيبوس » ، ما الذى يمنعه أن يحملها على مركبة ، فلا يلحق بها مهانة الاختلاط بأوباش الناس وحثالتهم فى ذلك الأومنيبوس الذى يسع ما هب ودب من أشابه الدهماء وأخلاطهم .

وأجابها على نظرتها المملوءة اشمئزازا ومضاضة بقوله :

« وكذلك مذهبك فى الوفر والاقتصاد ؟ نستأجر مركبة لأقصر مسافة ندفع قرشا لكل دقيقة ، لا تضحين من ملذاتك تافهة ! »

فأجابته فى شئ من الاضطراب والحيرة :

« الحق معك »

وجاء « أومنيبوس » ضخم يجره أربعة جياد ينهب الأرض نهبا ، فصاح ليبريمان :

« أيها السواق قف ! »

فوقفت المركبة الهائلة ، ودفع المحامى الصغير زوجته إلى داخل المركبة وهو يقول لها بصوت خافت :

« ادخلى أنت ههنا ، وسأصعد أنا إلى الدور العلوى لأدخن سيجارا قبل تناول الطعام »

فدخلت وصعد هو إلى أعلى وقد أعجلها عن رد الجواب ، وسقطت لفرط اضطرابها وحيرتها على بعض الركاب ، وساعدها البعض الآخر على الجلوس

وإنها لتنتفض كالريشة فى مهب الريح ، فجلست مرتجفة مبهورة الأنفاس ، وجعلت تنظر حائرة إلى قدمى زوجها ترقيان سلم المركبة إلى أعلى .

وكذلك جلست فاقدة الحراك بين رجل سمين تفوح منه رائحة التبغ ، وامرأة تضوع منها رائحة الخل .

وسائر الركاب مصفوفون صفا كأنهم صم بكم : رجل كالموظف بنظارة من الذهب ، وصبى زيات ، وامرأة غسالة ، وعسكرى بوليس ، وسيدتان منفوختان مغرورتان كأن لسان الحال منهما يقول : « نحن وإن قضت علينا الضرورة بالاندماج فيكم هنيهة من الزمان ، فلا تحسبونا من صفكم ومستواكم ، لسنا منكم ولستم منا فاعرفوا قدركم والزموا حدكم » .. وراهبتان وصبية مهدلة الشعر وحانوتى .. خليط مشوش ومزيج متباين من الصور الهزلية ، أمثال ما يرى بصفحات المجلات الفكاهية ، أو بملعب « الأرجوز » و « خيال الظل » .

وكانت عثرات المركبة على ظهر الطريق تطفرهم عن مقاعدهم وترنح أعطافهم ، وتميل برءوسهم وتهز المترهل المسترخى من لحم خدودهم ، وأصابهم من تخدير ضوضاء المركبة أعصابهم ما جعلهم خشبا مسندة ، أو على الأصح طائفة من المجاذيب فى نومة هنيئة .

وبقيت العروس الصغيرة مكانها مسلوبة الحركة .. وجعلت تسائل نفسها قائلة :

« لماذا لم يبق معى ؟ . لماذا لم يلازمنى .. لماذا تركنى ؟ .. أمن أجل سيجارة يدخنها يتركنى وحدى ؟ . ألا يستطيع أن يحرم نفسه سيجارة من أجلى ؟ »

واستولى عليها نوع مبهم غامض من الحزن والأسى .

وأومأت الراهبتان إلى السواق بالوقوف ونزلتا ، واستمرت المركبة فى مسيرها . ثم وقفت ودخلت فيها امرأة طباخة حمراء الوجه واليدين مبهورة الأنفاس من السمن ، فجلست ووضعت سلة اللحم والخضار على ركبتيها ، وامتلأت المركبة برائحة الجرجير والبصل .

وقالت العروس « جان » لنفسها :

« يا للعجب ، إن المسافة إلى ذلك المطعم لأطول بكثير مما كنت أحسب »

وهنا نزل الحانوتى وخلفه على مقعده رجل حوذى تفوح منه رائحة الإصطبل . ثم نزلت الصبية المهدلة الشعر وخلفها رجل من سعاة البريد تفوح من قدميه رائحة العرق ، وخيمت على العروس الصغيرة سحابة كثيفة من الهم والكآبة ، واشرأب دمعها أن ينهمر .

ونزل أناس وصعد أناس ، وما برحت المركبة تنحدر خلال ما لا يعد ولا يحصى من السبل والطرقات ، تقف على محطاتها المعهودة ثم تنطلق .

وقالت « جان » لنفسها :

« واحزناه ! ترى أين يكون ذلك المطعم ؟ ما أطول المسافة وما أبعد الشقة وماذا تكون الحال إن كان قد أخذته سنة من النوم أو شرد الذهول بعقله ؟ » .

وما لبث أن غادر المركبة آخر ركابها ولم يبق غيرها .

وصاح السواق : « فوجيرار ! »

ولما لم تتحرك العروس من مقعدها ، صاح ثانية :

« فوجيرار ! »

فحملقت فى وجهه وقد بدأت تدرك أنه يخاطبها ، إذ لم يكن بالمركبة سواها ، وصرخ السواق ثالث مرة :

« فوجيرار ! »

فسألته قائلة :

« أين نحن الآن ؟ »

فأجابها بلهجة الحنق المغيظ صارخا :

« يالك من ساذجة بلهاء ! نحن الآن فى فوجيرار ، لقد صحت بذلك ألف مرة ! »

فسألته قائلة :

« أين نحن الآن من البوليفار ؟ »

« البوليفار ! أى بوليفار تعنين ؟ »

« بوليفار الطليان »

« شفاك الله ! لقد تركناه وراءنا منذ ألف عام »

« يالله ! .. تكرم على بأن تنبه زوجى إلى ذلك »

« زوجك ؟ وأين زوجك هذا ؟ »

« على سطح المركبة »

« على سطح المركبة ؟ لقد خلا سطحها من الإنس منذ أعوام ! »

فانتفضت الحسناء ذعرا ، وصاحت :

« ماذا تقول ؟ وما معنى هذا الكلام ؟ هذا محال ! لقد صعدنا المركبة معا ، فتش عنه ثانيا أثابك الله ! لابد أن يكون على السطح ! »

فازداد السواق غلظة وسفاهة :

« حسبك أيتها المليحة حسبك ، على رسلك وهونى عليك ، ولا تراعى ولا تجزعى ثم لا تخافى ولا تحزنى ! وإن كان قد أفلت منك واحد فستجدين عشرة ، لن يعوزك الصيد وسهام عينيك مصمية ، وأسياف لحظك فتاكة ! خففى عنك ، ستصيبين غيره بأول منعطف »

فاغرورقت بالدمع مقلتاها وألحت تائلة :

« سيدى إنك مخطئ ، إنك مخطئ ياسيدى ، لقد كان يتأبط محفظة كبيرة » فشرع السواق يضحك ثم قال :

« محفظة كبيرة ؟ أجل ! أجل ! لقد غادر المركبة عند محطة « مادلين » لا بأس لقد أفلت من يدك بمنتهى الحذق والمهارة .. ها ! ها ! .. »

نزلت السيدة من المركبة ، وبالرغم منها صعدت نظرة إلى سطحها فألفتها قاعا صفصفا .

وهنا بدأت تبكى وتنتحب بزفرات حامية وشهقات عالية ، وقد حزبها الكرب وعزها المصاب أن تحسب لتطلع الأبصار والأسماع نحوها حسابا ، وصاحت :

« أين أذهب ، وماذا أصنع ؟ وما عسى أن يحل بى ويجرى على من القدر ؟ »
فتقدم نحوها ناظر المحطة وسألها قائلا :
« ما خطبك يا سيدتى ؟ »
فأجاب السواق بلهجة خبيثة :
« هذه سيدة هرب منها زوجها أثناء الرحلة ، ومضى إلى حيث لا تدرى »
فأجابه ناظر المحطة قائلا :
« لادخل لك فى هذا ولا شأن لك به ، كن فى حالك ولا تتدخل فيما لايعنيك »

ومضى ناظر المحطة فى سبيله .

وذهبت الحسناء على وجهها فى الطرقات حائرة لا تدرى أيان تتوجه ولا ماذا تصنع ، وما الذى أصاب زوجها ؟ وماذا جرى له ؟ وكيف وقعت منه تلك الزلة ؟ وكيف بدرت تلك الإساءة ؟ وما ذاك الذهول الذى أصابه ؟

لم يكن معها سوى فرنكين ، لمن تذهب ؟ وإلى من تلجأ ؟ .. وهنا ألهمها الله أن ابن عمها بارال » الموظف بمصلحة البحرية قاطن بضواحى باريز ، وكانت تعرف منزله .

وكان ما لديها من النقد يكاد يبلغ أجر الانتقال إلى قريبها هذا ، فاستأجرت مركبة أقلتها إليه ، فألفته خارجا من باب داره متوجها إلى مكان عمله ، فوثبت من المركبة وصاحت : « هنرى ! »

فوقف مندهشا : « ماذا ؟ جان ! أنت ههنا ؟ وحدك ؟ .. منفردة وحيدة ؟ .. ماذا بك ؟ .. ومن أين جئت ؟ »

فقالت ملجلجة وعيناها بالدمع تذرفان :
« لقد أضللت زوجى آنفا ، لقد فقدته منذ برهة »
« فقدته منذ برهة .. أين ؟ »
« بمركبة الأومنيبوس .. واها ! واها ! »

ثم قصت عليه الحديث بحذافيره ودمعها على الخدين ينسجم . فأصغى مطرقا ، ثم سألها قائلا :

« أكان مفيقا اليوم أم ثملا ؟ »

« لم يذق الشراب الغداة ، كان على تمام إفاقة »

« أكان يحمل مالا كثيرا ؟ »

« كان معه مهرى – الدوتا – »

« الدوتا كلها ؟ »

« نعم كلها .. ليدفع ثمن مكتبه الجديد »

« ابنة عمى وعزيزتى .. إن زوجك لابد أن يكون الآن على طريقه إلى البلجيك أو إلى النمسا »

لم تفهم الحسناء فحوى كلامه وقالت متلعثمة :

« تقول إن زوجى لابد .. تقول إنه .. ماذا تقول ؟ »

« أقول إنه قد خدعك عن أموالك ، هذا كل ما أراه فى ذلك الحادث »

فلبثت الفتاة مكانها مضطربة مرتجفة مختنقة ، ثم قالت :

« إذن فما هو إلا .. إلا .. إلا لص محتال ! »

وعرتها لوعة الكرب وحرقة الكمد ، فغيبت وجهها فى طيات رداء وليها وجددت البكاء والعويل .

ولما رأى الفتى تكاثر الناس وازدحامهم . دفع بها إلى ساحة الدار وصعد بها السلم مطوقا خصرها بيمينه ، ولما صوبت الخادمة إليهما نظرة دهشة واستنكار خاطبها قائلا :

« صوفيا ! اذهبى إلى المطعم فأتى بغداء اثنين ، لست اليوم إلى الديوان بذاهب »

فى حرب السبعين

فى حرب السبعين لما استولت الجنود الألمانية على إقليم « نورماندى » من شمالى فرنسا ، احتل القائد البروسى « الماجور جون فون فارلسبرج » مع نفر من نخبة ضباطه قصر « أوفيل » الواقع على مقربة من « روان » عاصمة ذلك الإقليم .

فى ذات يوم مطير ، والسماء تسح بالوابل الهتان وتهضب ، اجتمع على مائدة الإفطار القائد « فون فار لسبرج » وضباطه ، وهم : الكابتن - « البارون فون كلوينستين » ، واللفتنانت « أوتو فون جروسلين » ، والضابط « فرتز شيتبرج » ، والضابط البارون « فون إيريك » وهو رجل قصير أشقر ، شديد الكبرياء مفرط القسوة على الرجال ، فظ غليظ على الأسرى ، وهو بعد ذلك أسرع التهابا وأشد انفجارا من البارود .

وكان شديد التأنق فى لباسه ذا خصر نحيل كخصر الغادة الهيفاء ، شاحب اللون ، تياها فخورا .

ولما فرغوا من الطعام وشرعوا فى التدخين ، انبروا كعادتهم يذمون عيشهم بذلك المكان ، مسجونين فيه كالأسرى بمنأى عن مجالات الأنس والطرب ، وبمعزل عن مباءات اللهو واللعب . وقال قائل منهم : إنه لا فائدة فى احتسائهم الكئوس ماداموا فى مثل هذه الوحشة ، محرومين من لذة الاستمتاع بالنساء . وبالفعل لقد كانوا مطرقين واجمين رغما مما كان يدار عليهم من أقداح الراح ، وكانوا جميعا فى ضبابة كثيفة من أبخرة ما يدخنونه من التبغ ، يستحثون الكئوس فى صمت واكتئاب ، غرقى فى الكئوس فى لجة سكرة ناعسة متبلدة ، إذ صاح الكابتن البارون « فون كلوينستين » وكان رجلا ربعة أحمر الوجه ، أدرد ، قد فقد رباعيتيه العليين ليلة ما ، على إثر سكرة طامية ، وإن كان لم يدر كيف كان

ذاك وأين ، وكان مستهترا بالشراب مولعا بغشيان أسافل البيئات ومساف البؤر ، هذا الضابط الكبير أعظم الجماعة بعد القائد الماجور « فون فار لسبرج » صاح بأعلى صوته :

« محال أن تدوم هذه الحال ، إنا لا نطيقها ألبتة ولا نستطيع عليها صبرا لابد لنا من شيء من اللذة والمتاع »

وعند ذلك تحرك اللفتنانت « أوتو » والضابط « فرتز » وقالا :

– « الحق معك يا كابتن ، ولكن أى صنف من اللهو تريد ؟ »

قال البارون :

– « نقيم حفلة أنس ساهرة »

قال الجنرال ، وكان رجلا طوالا عريض المنكبين ذا لحية تضرب إلى صدره وقورا مهيبا ، وكان يزعم أنه ورع تقى ولكنه سمح سجيح ، سهل الشكيمة خوار العنان سلس المقادة ، قال :

« أفصح لنا أيها البارون ، ماذا تعنى بقولك حفلة أنس ساهرة ؟ »

قال البارون :

« دع ذلك إلىّ أيها الرئيس ، سأتولى ترتيب هذه الحفلة بنفسى ، سأرسل الآن تابعى « ديفوار » إلى مدينة « روان » ليجيئنا بفئة من الغانيات ، إنى لأعرف مظناهن ، وسنتناول العشاء ههنا ثم تكون عشية هنيئة ناعمة »

فهز القائد كتفيه متبسما وقال :

« أراك مجنونا يا صاحبى »

ولكن سائر الضباط كانوا قد نهضوا من مجالسهم ، فأحدقوا بالقائد وصاحوا جميعا :

« رخص لنا فى ذلك » ثم دع البارون وشأنه ، لقد كدنا والله نموت كربا ونهلك سآمة ومللا ، فاقض لنا حاجتنا تكن لك يد فى رقابنا . نشكرك عليها أبد الآبدين ، أيها الرئيس »

ثم ما زالوا به توسلا وابتهالا ، ولجاجة وإلحاحا حتى لان جانبه وسكن شماسه ، فأسلس وأسمح .

واستدعى الكابتن تابعه « ديفوار » فأصدر إليه تعليماته .

وانصرف « ديفوار » ولم تكن إلا خمس دقائق حتى انطلق على مركبة حربية ضخمة مغطاة تجرها أربعة جياد تحت العارض المنهمر ، وتباشر الضباط وبرقت أساريرهم وكأنما أفاقوا من غشية ونشطوا من عقال .

ثم إنهم قاموا جميعا إلى النافذة يتأملون ما أمامهم من مشهد السماء المكفهرة والأمطار الهاطلة ، والأدواح الباسقة الواكفة بالقطر أردانها ، والجو بالريح خفاق الجلابيب ، ومنارة الكنيسة تعرج إلى السماء صامتة،لقد أمسكت عن الرنين أجراسها منذ هبط الألمان في جوارها ، وهذا هو كل ما صادفه الجيش الغازى من المقاومة .

لقد تلقى قسيس القرية غزاة الألمان لين الجانب خافض الجناح ، فلم يأب إيواء الجنود بمنازله ولا إكرام ضيافتهم ، ولكنه أبى عليهم شيئا واحدا .. وهو دق نواقيس الكنيسة ، لقد كان يؤثر الموت رميا بالرصاص على أن يأذن بإرسال رنة واحدة من الأجراس ،– هكذا كان أسلوبه في إبداء المعارضة أسلوبا سليما صامتا -أو على حد قوله أليق الأساليب برجل قسيس أخي ضراعة وخشية . وليس بفتاك ولا سفاك ، ولقد ارتضى منه تلك الخطة جميع الأهلين من سكان تلك النواحي ، إذ حبذوا من الأب « شانتافوان » شجاعته وبطولته في اجترائه على إعلان الحداد العام بإسكات نواقيسه .

وجعل القائد وضباطه يتضاحكون فيما بينهم تلك الشجاعة العديمة النكاية السليمة العاقبة ، واغتفروا لأهل القرية تلك الهنة التافهة لما آنسوه – فيما عدا ذلك – من سهولة انقيادهم ودماثة أخلاقهم .

ثم إن الأربعة الضباط وقائدهم انصرفوا كل في شأنه من أداء واجباته ، وانفراد الكابتن من دونهم بإعداد المعدات لمائدة العشاء .

وفي المساء اجتمعوا ثانية ، ولما دقت الساعة السادسة سمعوا صليل عجلات من مسافة فهبطوا سراعا إلى باب القصر ، وقدمت المركبة ونزل منها خمس

غانيات حسان كان الرسول « ديفوار » قد أحسن اختيارهن ، وقدم لهن بطاقة مولاه البارون .

ولم يبدين مقاومة لما كن يعرفن من صولة البروسيين وسطوتهم ، فأسلمن أنفسهن للضباط الخمسة ، كما استسلمن من قبل لصروف القدر وأحكام القضاء .

ودخلوا جميعا حجرة الطعام ، وكانت المائدة حافلة بأباريق البللور وقوارير الفضة وصحاف الذهب من ذخائر القصر ونفائسه ، وكان الكابتن جذلان مشرقا متهللا ، وجعل يطوق خصور الغانيات بذراعه كأنما بينه وبينهن معرفة قديمة ، ولما أراد الثلاثة الضباط الأصاغر أن يختار كل منهم واحدة له استعمل الكابتن سلطة رياستهم فزجرهم ، وحفظ لنفسه الحق من توزيع النساء بالعدالة حسب الدرجات والمناصب حتى لا يسخط السلطات العليا ، فصفهن صفا بحسب الطول والعرض والوجاهة ، ثم وجه الخطاب إلى أطولهن وقال بلهجة الرئيس المسيطر :

« ما اسمك ؟ »

فأجابت : « باميلا »

فقال : « نمرة واحد المسماة « باميلا » من نصيب قائدنا الهمام

ثم عطف على الثانية وقال : « نمرة ٢ المسماة « بلوندينا » من نصيبي أنا باعتباري الثاني في الرياسة »

ثم إنه وهب الثالثة « أمانذا » لجناب اللفتنانت « أوتو » الثالث في الرتبة ، ووهب « حواء » لوكيل اللفتنانت « فريتز » ، ووهب « راشيل » أقصرهن جميعا وهي يهودية حسناء سوداء العينين ، قد جاء أنفها الأخثم مناقضا للقاعدة العامة في أنوف اليهود ، وهي أنها كلها قنواء — وهب هذه اليهودية البديعة لأصغر الجماعة سنا ورتبة ، أعني جناب الكونت « ويلهلم إيريك »

وكانت الخمس نساء جميعا غضات ملاحا بضات ، متشابهات ألوانا وأشكالا .

وأراد الثلاثة الضباط أن يحتملوا غنائمهم في الحال إلى حجراتهم الخاصة ،

بحجة أنهن فى حاجة إلى ترجيل شعورهن وإصلاح زينتهن ، ولكن الكابتن أبى عليهم ذلك .

وجعل الجماعة أثناء صعودهم بالنساء إلى غرفة الخوان يمطرونهن وابلا مدرارا من اللثمات – لثمات حرقة اللهف وغليل الاشتياق .

وفيما هم كذلك إذ شرقت صغراهن راشيل اليهودية وغصت ، ثم طفقت تسعل حتى اغرورقت عيناها ونجم الدخان من منخريها ، وسبب ذلك أن صاحبها الضابط الصغير الكونت « إيريك » تظاهر بأنه يريد تقبيلها ، ثم قذف فى فمها بنفخة من دخان التبغ ، فكظمت الغادة غيظها ولم تنبس ببنت شفة ، ولكنها صوبت إلى معذبها من عينيها الكحلاوين نظرة كلها مقت وبغضاء .

ثم جلسوا للعشاء ، وبدا السرور على وجه القائد فأجلس غـــادته « باميلا » عن يمينـه ، و« بلونديتا » غادة الكابتن عن يساره ، وقال وهو يتناول الفوطة وينشرها على حجره :

« حبذا هذه الفكرة منك يا كابتن ، إنها وأيم الله لفكرة بديعة ! »

وجعل اللفتننانت « أوتو » وزميله « فريتز » يبالغان فى إظهار التأدب نحو أولئك النسوة كما لو كن من ذوات الأسرات النبيلة ، فأخجلاهن بتلك المعاملة التى كانا يضعانها فى غير موضعها حتى احتشمن وتورعن ، ولكن الكابتن الداعر العاهر تدارك الأمر ، فأقبل على النساء يذهب هيبتهن وينفر وحشتهن بالبذئ من التلميحات والتعريضات ، ويصوغ لهن عقود المدح والإطراء وأكاليل الغزل والنسيب فى مزيج من الفرنسية والألمانية ولكنهن لم يفهمن كلماته وبقيت أذهانهن مغلقة حيال رطانته ، ولم تبدأ أن تتفتح وتستيقظ إلا حينما شرع يسمعن فاحش الألفاظ وصريح عبارات الخنا والدعارة . حيئذ انبرين يتضاحكن ويتصايحن كالمجانين ، ويترامين بعضهن على بعض مرددات كلمات الكابتن ، وزادهن الكابتن من فاحش مجونه ابتغاء أن يسمع القذر المنكر من مجونهن ، ولقد أسمعنه بالفعل من ذلك ما نقع غلته وأشبع نهمته . وكن قد سكرن بعد أول زجاجة فخلعن العذار وهتكن الأستار ، وأقبلن على الرجال يرمينهم باللثمات ذات اليمين وذات اليسار ، ويقرصنهم فى السواعد والأعضاد ، ويصرخن صرخات منكرات ،

ويشربن من كل قارورة وإبريق ، ويرفعن العقائر بإفرنسي الألحان ، وبما كن قد تعلمنه من شذرات الأغاني الأجنبية من جنود أعدائهن الألمان .

وسرعان ما لعبت برءوس الرجال أنفسهم حميا العقار ، فنزعوا أردية الوقار وطاروا مع النزق والخفة كل مطار ، يهرقون الراح ويحطمون الأقداح ، ولم يحفظ وقاره من بينهم إلا قائدهم الماجد المسماح .

وكانت صدمة الكأس قد زادت الضابط الصغير « ويلهلم إيريك » قسوة على قسوته ، ووحشية فوق وحشيته ، فجعل يجمش اليهودية الحسناء تجميشا أشبه بتجميش السنور الفأرة ، يبعث منها صيحات الألم العالية ، وعرته نوبة طغيان همجية فجعل يطبق على فم الغادة حتى ينقطع نفسها ويكاد يأخذ الموت بخناقها ، ثم أردف ذاك بعضة أسالت دمها على نحرها وقميصها .

فصوبت إليه للمرة الثانية نظرة حاقدة ، وقالت له « لتدفعن عن فعلتك الشنعاء ثمنا غاليا ! »

فما زاد على أن ضحك هازئا وقال لها : « أجل سأدفع لك ثمن زيارتك »

في تلك اللحظة تناول اللفتنانت « أوتو » كأسه وقد بلغ منه السكر أقصاه ، فصاح بلا فطنة ولا لباقة :

« أشرب ذاك احتفالا بانتصاراتنا الباهرة على فرنسا ! » .

إزاء تلك الإهانة العظمى لم تفه النساء بأدنى كلمة ، ولكن اليهودية « راشيل » التفتت إلى ذلك الضابط وإنها لتنتفض انتفاضا وصاحت إليه :

« اسمع يا هذا ، إني لأعرف من أبناء فرنسا من لاتجرؤ أن تنطق بمثل هذا القول أمامهم »

فانبرى الضابط الصغير « إيريك » – وكان لايزال قابضا على الإسرائيلية – يضحك من قولها – ثم قال لها :

« ها ! ها ! ها ! أين أولئك الشجعان الذين تشيدين بذكرهم ؟ إني ما صادفت واحدا منهم في حياتي »

فصرخت الغادة في وجهه صرخة جهنمية :

« اخسأ أيها الوغد السافل ! إنك لتكذب أيها النكس الخسيس القذر ! »

فلا تسألن عن دهشة الضابط حينذاك ، لقد ظل برهة يرمقها بمقلة شاخصة شاردة ثم قال لها :

« امدحيهم بما ترين ، وانسبى إليهم من المفاخر ما تشائين ، إذ لو كانوا شجعانا أكنا نكون ههنا الساعة ؟ » ثم صاح بملء فيه « ألا إنما نحن السادة هنا والأرباب ! وإن فرنسا لملك لنا نتصرف فيها كيف نشاء ! »

عند ذلك جاش الدم فى عروق الحسناء فوثبت من جانب الضابط طفرة واحدة فهبطت على مقعدها ، ووقف الضابط فرفع كأسه وصاح : « فرنسا والفرنسيون وهذه الغابات والآجام وهذه المزارع والحقول وهذه المنازل والمصانع والدور — كلها ملك لنا نحن البروسيون ! »

وحذا حذوه سائر الجنود وقد عرتهم نوبة حماس جنونية ، حماس الوحوش الضارية فرفعوا كئوسهم وصاحوا : « فلتحيا بروسيا ! »

واحتسوا الكئوس دفعة واحدة .

لم تعارض النساء وقد ملكهن الرعب ، حتى « راشيل » نفسها لم تفه بكلمة ولم تدر ماذا تقول .

وهنا ملأ الضابط الصغير « إيريك » كأسه ثانية ، ثم رفعها فوضعها على رأس « راشيل » وصاح :

« وكل امرأة فى فرنسا ملك لنا ، حل طلق مباح ، وجارية مملوكة وفراش وثير ! » .

عند ذلك هبت اليهودية بأسرع من لمح الطرف فقلبت الكأس فسالت على غدائرها الفاحمة ، ثم سقطت إلى الأرض فتحطمت جذاذا بددا ، وواجهت الضابط ترتجف شفتاها وصاحت بصوت يخنقه الحنق :

« كذبت يا مجرم ! فتالله لن تصل إلى نساء فرنسا حتى تلمس أناملك الدنسة النجوم »

فجلس الضابط على رسله ، ورمقها ساخرا وتهاتف بها قائلا :

« تقولين لن نصل إلى نساء فرنسا ، فخبريني يارعاك الله إن كان ما تزعمين حقا ، فلماذا أنت ههنا الآن ؟ »

فوقعت كلمته هذه على الغادة كالصاعقة ، ولكنها استثابت ذهنها واستجمعت قلبها وصاحت به صيحة قاصفة :

« أنا ! أنا ! لماذا أنا ههنا ! وماذا في ذلك يا مجرم ! أنا لست من نساء فرنسا ، أنا لست سوى بغي مومس ! وهذا أقصى ما يستطيع البروسيون أن ينالوا »

وما كادت تفوه بذلك حتى لطمها الضابط على حر وجهها ، وفيما هو يحاول رفع كفه للطمة أخرى ، اختطفت اليهودية من فوق المائدة مدية فضية المقبض وقد طاح الغضب بصوابها فطعنته في نحره طعنة قاضية ، فاستلقى على قفاه فاغرا فاه تأتج بعينيه نظرة إلى الثأر صادية .

وتصايح الضباط هلعا ، وتواثبوا فزعا ، وتقدم اللفتنانت « أتو » فابتدرته « راشيل » بقذف الكرسي بين رجليه ، فخر مبطوحا على وجهه ، ثم أسرعت إلى النافذة ففتحتها قبل أن يتمكن أحد من إمساكها ، ثم وثبت في أحشاء الليل والديمة الهامية .

وقضى الضابط الصغير البارون « ولهلم إيريك » نحبه في ظرف دقيقتين ، وشهر صاحباه « أتو » و« فريتز » صارميهما يريدان ذبح النساء ،وارتمت النساء على أقدامهما وتعلقن بأذيالهما تضرعا وابتهالا ، ولم ينقذهن إلا وساطة القائد إذ أمر بإخراجهن من الحجرة ، ثم حملهن إلى مقارهن في الوقت المناسب .

ونظفت المائدة من آثار الوليمة ووضعت عليها جثة القتيل .

وأمر القائد بإجراء البحث عن القاتلة في أرجاء الناحية ، ودام البحث أياما في كل شبر من الأرض ، وفتشت منازل القرية كلها بلا جدوى .

وأراد القائد أن ينتقم من أهل القرية والتمس لذلك علة ، فلم يجد أمامه سوى مسألة امتناع القسيس من دق نواقيس الكنيسة ، فاستدعاه وأمره بدق النواقيس لدى تشييع جنازة البارون فون إيريك .

فأذعن القسيس للأمر خلافا لما كان ينتظر .

وبلفعل ، فى أثناء تشييع الجنازة ، طفقت النواقيس تدق بأعلى جرسها ، رنانة كأنها تطرب وتمرح لأمر ما .

وبالليل استأنفت النواقيس الرنين ، وفى اليوم التالى كذلك ، وفى كل يوم بعد ذاك ، وكانت تدق وتدق ثم تدق ، فوق أقصى رغبات كل مستزيد ومستكثر ، وربما هبت جنح الليل تستأنف الدق ، مستثيرة أصداء الظلام برنينها المستلذ المستعذب،مسرورة جذلى، — حتى أقسم أهل القرية أن بها لسحرا فهابوها ، فلم يك يدنو منها إنسان اللهم إلا القسيس ومساعده ، وإنهما كانا يؤمان برج الكنيسة مرتين فى اليوم أو ثلاثا ، فيصعدان إلى ذؤابة المنارة ،— هنالك تحت النواقيس ، كانت تثوى غادة يهودية مسكينة ، تعيش فى عزلة وفى أسى مما كان يحمل إليها القسيس وصاحبه من الزاد .

وقد بقيت تلك الغادة المسكينة هنالك حتى تم جلاء الألمان عن البلاد .

وفى ذات ليلة إثر ذلك ، استعار القسيس مركبة خباز القرية فحمل عليها اليهودية المسكينة وساقها بنفسه متيمما مدينة « روان » ، حتى إذا بلغها أقبل على الغادة فعانقها وقبل رأسها واستودعها عناية الرحمن الرحيم وعاد أدراجه .

وأسرعت الغادة على قدميها إلى المحل الذى كانت أتت منه ، فخفت لقدومها صاحبته ورحبت بها ، وقد كانت حسبتها فى عداد الموتى .

وكان بمدينة « روان » على ذلك العهد رجل من أشد الرجال وطنية ، قد بلغه نبأ بطولة هذه الغادة ، وكان ممن يدوس على كل اعتبار فى سبيل تقديس الشعور الوطنى ، فتقدم ذلك الرجل إلى اليهودية فخطبها ، ثم تزوجها فنفى عنها كل عاب ، وطهرها من كل وصمة ،

ورفعها الله مكانا عليا .

محكوم عليه بالحياة

فى إبان الحرب الطاحنة التى دارت رحاها بين الحلفاء « الأسبان والبرتغاليين والإنكليز » وبين الجيوش الفرنسية تحت قيادة الإمبراطور نابليون بونابرت فى أسبانيا ، كان ضابط فرنسى فتى السن مستندا فى منتصف الليل إلى السور المحدق ببستان القلعة المشرفة على بلدة « مندا » ، وكان ذلك الفتى غرقا فى لجة من التفكير والتأمل ، والواقع أن تلك الساعة الروعاء والمشهد المهيب كانا مما يستغرق الأذهان ويأخذ بمجامع الألباب ، كانت سماء أسبانيا الصافية تضرب فوق رأسه قبتها الزرقاء ، والنجوم الزهر والقمر الغض الندى تنشر حلل اللجين على أعطاف واد أنيق يجلو على عينه بدائع الخمائل والرياض .

وكان الفتى متكئا على شجرة برتقال يانعة ، يشرف على بلدة « مندا » القائمة عند حضيض تلك الشاهقة الشماء على مدى مائة قدم تحت أخمصه . ثم أدار رأسه فأبصر البحر يضرب حول ذلك المشهد الجميل إطارا من ناصع الفضة . أما القلعة التى كانت منه على كثب فكانت لكثرة الأنوار كأنها شواظ من نار . وكان بها إذ ذاك حفلة قصف ، فالريح تحمل إليه عن أكتافها دوى الجلبة والضوضاء ، وأصداء العزف والغناء ممزوجة بتصفيق الأمواج . واصطخاب الجائش العجاج ، وكان خصر نسيم الليل ينعشه ويجدد من نشاطه ، ونفحات الطيب من أرج ما حوله من الجنات والفراديس يغمسه فى حمام من الغالية ، أو يغمره بطوفان من الفاغية .

وكانت قلعة « مندا » ملكا لمركيز من سراة أسبانيا يسكنها وأسرته ، وكان الفتى الضابط قد قضى موهنا من الليل داخل القلعة ضيفا على تلك الأسرة ، وكانت كبرى بنات المركيز لا تفتر ترنو إليه بعين ملؤها الإشفاق والحزن .

فلما خلا الضابط بنفسه فى حديقة القلعة على حد ما وصفنا ، جعل يذكر نظرة تلك الفتاة إليه ويفكر ماذا عسى أن يكون معناها .

وكانت الفتاة (واسمها كلارا) حسناء تتبوأ أريكة الجمال ، وتتقلب بين أعطاف النعمة والثراء . ولكن كيف يجرؤ أن يطمح بآماله إلى الزواج من الفتاة وأبوها ذلك الصلف المتكبر الشديد العصبية ، الذى لا يرى كفؤا لابنته سوى أولى الأنساب والأحساب من علية الأشراف .. فكيف يرضى أن يزوجها ابن عطار من سوقة الباريزيين . هذا إلى ما يضمره الأسبانيون من الإحن والأحقاد للفرنسيس . كان القائد « جوتيير » حاكم الإقليم يرتاب فى أمر المركيز ، ويظن أنه يتولى تدبير مكيدة ضد الجيش الفرنسى موالاة ومناصرة لفرديناند السابع الملك المعزول . ومن ثم ضربت الفرقة التابعة لضابطنا الصغير معسكرها فى بلدة « مندا » لكبح جماح القرى المجاورة ، وكانت فى إمرة المركيز .

لذلك وقف الضابط على سور البستان يشرف منه على البلدة ، يرقب حالة أهلها وفؤاده نهب الوساوس والهواجس ، وكان يحس وحشة كوحشة الموت قد خيمت على أرجاء البلدة على الرغم من أن تلك الليلة كانت عيد القديس جيمس .

وبينا هو كذلك إذ دخل عليه من ثلمة فى السور جندى من جنوده فقال : « أنت ههنا أيها القائد ! إن هؤلاء الأسبانيين الأوغاد ليدبون دبيب النمال فى كل ناحية . وبينا أنا مسرع إليك لأعلمك بذلك بصرت بأحدهم يسعى بمصباح . تبا له ما أرى مصباحه شمعة أوقدت كرامة للقديس جيمس . إن القوم ليهمون أن يلتهمونا التهاما . وقد أبصرت أيضا كومة من الحطب فوق صخرة على ثلاث خطوات من ههنا . »

فى هذه اللحظة دوت صرخة شديدة فى أنحاء البلدة ، وطار وميض بارقة أمام الضابط فاستطار بصره ، واخترمت الجندى قذيفة فخر صريعا . وشبت نار عظيمة على عشر خطوات من الضابط ، وخفتت أصوات السمار وضوضاء القصف والمرح بالقلعة . وأعقب رنين الموسيقى سكينة الموت إلا ما تخللها من أنين الجرحى . حينئذ تحدر العرق البارد من جبين الضابط إذ علم أن جنوده قد أهلكوا . وكان فى تلك الساعة أعزل لا يحمل سيفا ولا رمحا .

لقد علم أنه فى البقاء الخزى والعار والمحاكمة أمام مجلس عسكرى ، فأقبل يسبر بعينيه غور الهاوية تحت قدميه . وإنه ليهم أن يلقى بنفسه فى أعماقها إذ

أحس بيد تجذب يده ، وإذا الفتاة « كلارا »

قالت « انج بنفسك ! إن إخوتى على أثرى يريدون قتلك . امض قدما لا أبالك وإنك لواجد بأسفل هذه الصخرة فرس أخى « أندلس » فامتطينها وانطلق .. أسرع »

فوقف الفتى هنيهة يرمقها بنظرة الدهش المبهوت ، فدفعته إلى الأمام وتغلبت عليه غريزة حب البقاء – تلك الغريزة التي لا تفارق حتى أشجع الشجعان ، فاندفع يعدو حينما أومأت وهو يسمع وقع أقدام العدو وراءه وحفيف طلقات النار من حول أذنيه ، ولكنه مالبث أن بلغ الوادى فألفى الفرس أندلس فامتطاها وغاب عن الأبصار كالبرق الخاطف ، ولم تك إلا بضع ساعات حتى وصل إلى معسكر القائد « جوتيير » فألفاه على مائدة الغداء .

قال الضابط « لقد جئت لا أحمل إليك سوى روحى فى يدى » .

ثم جلس شاحب الوجه فقص على القائد النبأ العظيم ، والقوم من شدة الروع كأن على رءوسهم الطير .

فقال القائد الجبار : « إن نحسك وسوء حظك كان من جنايتك . وأراك غير مسئول عن جريمة الأسبانيين . وإنى أبرئك إلا إذا رأى المارشال « فى » خلاف ذلك » .

قال الضابط : « ولكن ماذا يكون لو علم الإمبراطور بالحادث ؟ »

قال القائد : « إذن والله يأمر بإعدامك رميا بالرصاص . ولكن دعنا الآن من ذلك سننظر كيف نحل بأوغاد الأسبانيين من العذاب والنقمة ما يفل حدهم ويقلم أظفارهم » .

وبعد ساعة انطلقت فرقة من الفرسان والمدفعية تحت قيادة القائد « جوتيير » والضابط « فكتور » ، وكان الجنود يحتدمون حفيظة وموجدة لما علموا من حادثة الفتك بإخوانهم فكانوا ينهبون الأرض نهبا . وجعل القائد كلما مر بقرية أو بلدة ألفاها شاكية السلاح تحفزا للقتال فكان ينسفها نسفا . دأبه ذلك حتى بلغ بلدة « مندا » فطوقها . ولما رأى المركيز أمير البلدة أن الفرنسيين يهمون أن يفتكوا

بأهلها وينزلوا بهم المقطعات الهوائل من ضروب النقم والمحن ، افتدى البلدة بنفسه وولده وآله ، فقبل القائد ذلك على شرط أن يسلم إليه جميع من بالقلعة من المركيز إلى أحقر خادم . ولما تم الاتفاق على ذلك صرح القائد أنه قد عفا عن أهل البلدة وكفاهم شر غائلة جنوده .

ثم إن القائد بعد أن عسكر بحضيض الشاهقة صعد إلى القلعة فاستولى عليها استيلاء عسكريا ، ثم سجن أعضاء أسرة « ليجانيس » وخدامهم فى الحجرة التي كان بها المقصف وأقيم عليهم الحراس . وعقد القائد مجلسا عسكريا ، وابتدأ إجراءاته بإعدام مائتى اسبانيولى قدمهم أهل القرية ، ثم أمر أن ينصب من المشانق عدد من بالقلعة من أنفس وأن يؤتى بجلاد البلدة . فاستثمر الضابط « فكتور ماشند » تلك المهلة فى زيارة غرفة الأسرى وتفقد أحوالهم .

ثم عاد إلى القائد فقال له بصوت يقطعه الوجد ويبريه الشجى : « قد جئت أسألك حاجة » .

قال القائد مستهزئا : « أنت ؟ »

قال الفتى « ويل لى ! إنها حاجة ليس من ورائها خير . إن المركيز يرجوك أن تغير طريقة الإعدام فتجعلها ضرب العنق بدلا من الشنق .. ذلك فيما يتعلق به وبأسرته . أما الخدام فلا بأس من شنقهم » .

قال القائد : « فليكن ذلك » قال الضابط « ويسألونك أيضا أن تمن عليهم بأداء فريضة الاعتراف لقسيس الأسرة وفريضة الصلاة قبل لقاء الله .. وتفك أغلالهم ،هم يعدونك أنهم لن يحاولوا فرارا » .

قال القائد « وليكن ذلك أيضا على أن تكون عنهم مسئولا » .

قال الضابط « والمركيز يهبك جميع ماله إن عفوت عن نجله » .

قال المركيز « حقا ! ألا تعلم أن جميع أمواله قد أصبحت ملكا لحكومة الملك يوسف ؟ أرى المركيز يريد أن يشترى منا بقاء اسمه وخلود ذكره . سأجيبه إلى ذلك على أن يتولى ذلك النجل المراد إنقاذه مهمة الجلاد فى ضرب أعناقهم ، فاذهب ولا تكلمنى فى ذلك ثانيا » .

نصبت المائدة وجلس الضباط للغداء ، ولكن الضابط « فيكتور مارشاند » لم يكن بينهم . لقد كان فى حجرة القلعة حيث أسرة « ليجانيس » يترقب الحمام على مضض . فأجال الضابط فى تلك الوجوه الكريمة نظرة أسف وأسى فبالأمس فى عين هذه الحجرة كان يرنو إلى هاتين الغادتين وأولئك الفتيان الثلاثة يميسون فى أبراد الشباب والعافية ، ويجرّون أذيال النعمة الصافية . لقد أرعدت فرائصه إذ تذكر أنهم سيقضون نحبهم بسيف الجلاد بعد ساعة . لقد كانوا جالسين على كراسيهم مشدودين بالأصفاد إلى ظهورها المرصعة بالذهب — الأب والأم وبنوهم الفتيان الثلاثة والغادتان ، جامدين هامدى الحركات كانهم انصاب او خشب مسندة . وحيالهم خدام ثمانية وقوف مشدودو الكتاف يرسفون فى الأغلال .

وكأن هؤلاء الخمسة عشر يترامقون بأعين ساجية ساهية ، لا تكاد تنم بما يجيش فى صدورهم من براكين الوجدان المحتدمة .

وكل ما كان يلوح على وجوههم هو ما ارتسم على صفحاتها من آيات الاستسلام والأسف على إخفاق مسعاهم . وكانت الجنود الحارسة واقفين كذلك يرمقونهم فى إكبار وإجلال ورثاء لمصابهم .

ولما دخل « فيكتور » على الأسرى اشرأبت إليه أعناقهم ، فأمر بفك أصفادهم وصمد بنفسه إلى الغادة « كلارا » فحل قيدها ، فكافأته على جميله بابتسامة فاترة يغض من إشراق وميضها سحائب أحزانها . ولم يملك الفتى أن لمس ذراعها ورنا بعين راثية إلى قوامها الممشوق وعينيها السحورين .

وقالت له وعلى ثغرها النضيد ابتسامة حزينة : « هل نجحت مساعيك ؟ »

فتنفس « فيكتور » الصعداء وردد بصره بين « كلارا » وإخوتها الثلاثة . وكان أكبرهم يناهز الثلاثين واسمه « جوانيتو » حسن الصورة نبيل الطلعة ، والأوسط فيليب يناهز العشرين وكان أشبه الثلاثة بأخته « كلارا » ، وأصغرهم فى الثامنة من عمره واسمه « مانيويل » وكان أعجوبة من حيث الثبات ورباطة الجأش . وكان المركيز شيخا كبيرا مهيب الطلعة مجللا بالشيب والوقار . فوقف « فكتور » حائرا لا يكاد يجرؤ أن ينبئهم بمقالة القائد . ولكنه اجترأ ففاه بها إلى « كلارا » فعرتها لأول وهلة رعدة على فرط رزانتها ، ولكنها ثابت إلى نفسها

فتماسكت ثم دلفت إلى أبيها فجثت بين يديه وقالت :

أبتاه ! مر أخانا جوانيتو أن يطيع كل ما تأمره به ، فإن فى ذلك راحتنا جميعا » .

فاهتزت المركيزة فى ريح ذلك الأمل الذى أثارته كلمات الفتاة اهتزاز الفنن تحت الأصباء والشمائل ، ولكنها لما سمعت النبأ الرائع أغمى عليها . وفطن « جوانيتو » إلى حقيقة الأمر فوثب وثبة الأسد فى قفصه .

وصرف الضابط الحرس . ثم سيق الخدام الثمانية إلى المشانق فأعدموا .

ولما خلا المكان من الأجانب إلا الضابط « فكتور » قام المركيز فنادى جوانيتو »

فلم ينطق « جوانيتو » ببنت شفة . ولكنه هز رأسه دلالة على الرفض ثم تساقط على مقعده وجعل ينظر إلى أبويه بعينين يابستين ملتهبتين فحنت أخته « كلارا » وطوقته بذراعها وأقبلت تقبل أجفانه .

وقالت بلهجة الطرب المحبوب « حنانيك يا جوانيتو ؛ أما والله لو دريت كيف يعذب لى مذاق الحمام من يدك وتبهى فى عينى طلعته ، لما بخلت به على » .

وقال فيليب « تشجع يا أخى وإلا بادت أسرتنا العريقة التى ما برحت تتحف أريكة أسبانيا بالملوك من سلالتها » .

وأخيرا تقدم إليه أبوه الشيخ المسن فقال له بصوت مهيب : « إنى آمرك يا جوانيتو » .

فأطرق الفتى ، وخر الشيخ تحت قدميه ساجدا وحذا حذوه فيليب ومانيويل وكلارا وابتهلوا إليه جميعا رافعى الأيدى أن ينقذ الأسرة من غائلة الفناء . والتفت المركيز إلى زوجته فقال « خبرينى أيتها السيدة هل هذا الفتى من صلبى .

قالت الأم وقد أومأ لها الفتى إيماءة القبول بعينه : « إنه مجيبك إلى طلبك » .

وكانت « ماريكيتا » الابنة الثانية لا تزال جاثية بين يدى أمها تذرف الدموع الحارة ، وأخوها الأصغر مانيويل يزجرها وينهرها .

وبعد ساعة أقبل إلى ساحة القلعة بأمر القائد مائة من أعيان بلدة مندا ليشهدوا تنفيذ حكم الإعدام على أسرة ليجانيس . واصطفت فرقة من الجنود لدفع سوقة

البلدة ، وكانوا مزدحمين تحت المشانق المعلقة عليها جثث الخدم تكاد أقدامها تمس رءوسهم . وكان على مدى ثلاثين ذراعا من المشانق قد فرش النطع إلى جانبه سيف يتألق . وكان جلاد البلدة حاضرا ليؤدى مهمته فيما لو رفضها جوانيتو » .

وصمدت الأبصار إلى باب القلعة ، وما هى إلا هنيهة حتى ظهرت الأسرة الكريمة تستقبل عاجل المنون بجرأة وإباء وعزة لم يشهد التاريخ مثلها ، وآيات الوقار والسكينة على صفحات وجوههم ساطعة ، إلا واحدا منهم كان لا يكاد يتماسك وقد اتكأ على ذراع القسيس شاحب اللون يوشك أن يلفظ آخر أنفاسه . ذلك هو جوانيتو المحكوم عليه بالحياة وحده .

وعلم الجلاد والحاضرون طرا أن جوانيتو قد رضى أن يكون جلاد تلك الساعة المرهوبة .

وأقبل أفراد الأسرة ما عدا جوانيتو إلى البقعة المشئومة فركعوا منها قريبا ، وسعى القسيس نحوهم بالفتى المنكوب . ولما دنا جوانيتو من النطع أخذ الجلاد بذراعه وانتبذه ناحية ثم أسر إليه بالإرشادات التى يستلزمها هذا الموقف .

وأقر القسيس أفراد الأسرة بمواضعهم ، وتقدم للتنفيذ جوانيتو . فكانت كلارا أول من وثب إليه فقالت « حنانيك يا جوانيتو وابدأ بى رحمة بضعفى ووهنى » .

فى هذه اللحظة أقبل الضابط فكتور مسرعا فدنا من « كلارا » وإنها لراكعة ، وكأن جيدها الأغيد الحسان يستهوى حد الحسام .

فأقبل على الفتاة وعلى وجهه صفرة الموت وهمس فى أذنها : « إن القائد يهبك الحياة لو ترضينى زوجا » .

فرمقته الفتاة بعين ملؤها المقت والازدراء تقذف بجمرات الغضب المستعرة ، ثم قالت لأخيها :

« اضربن يا جوانيتو » .

فطاح رأسها ثم هوى يتدحرج تحت قدمى « فيكتور » .

ولما سمعت المركيزة صكة الحسام أرعدت على الرغم منها ، ثم ثاب إليها ثباتها .

ولما جاءت نوبة الغلام الصغير مانيويل قال لأخيه وهو يشهر سيفه « أتراني أجثو كما ينبغي ؟ » .

ثم طاحت رأسه ، وقال جوانيتو لأخته « ماركيتا » :

« أراك تبكين يا أختاه ! »

قالت « أجل يا شقيقي ، إني أفكر فيما سيعروك من الوحشة بعدنا » .

ثم طاح برأسها . ثم جاءت نوبة المركيز ، فنظر إلى دماء سلالته وقال لابنه .. جوانيتو « بارك الله فيك . اضربن أيها المركيز منزها عن شائبة الفزع والرعب ، كما نزه الله ساحتك عن شائبة كل نقص وعيب .

ثم طاح رأسه كذلك . وإلى هذا الحد استطاع جوانيتو أن يتدرع الثبات والجلد ، ولكنه لما أبصر أمه معتمدة على عضد القسيس صرخ صرخة منكرة وصاح : « ويلاه لقد أرضعتني تديها » فاستثارت صرخته من أفواه الحاضرين ضجة عالية . وخمدت ضوضاء المأدبة وضحكات الجنود الطامعين اللاهين . وأدركت المركيزة أن ابنها قد نفد صبره ووهى عقد جلده وخانته عزيمته . وزايلته منيته . فوثبت كالنمرة الثائرة من فوق سور الحديقة وثبة حطمت رأسها على صخور الحضيض بددا . وحينئذ انبعث من الحضور ضجة إعجاب هائلة .

وخر جوانيتو إلى الصعيد في غشية .

رسائلنا

وصلت الساعة التاسعة مساء بالقطار إلى منزل أصدقائى – أسرة « موريه أرتيس » – لأقضى ثلاثة أسابيع بذلك القصر الريفى القديم ، وكان محلا فخما بديعا من مشيدات القرن الثامن عشر بناه أحد أجداد الأسرة فى ذلك العهد ، وما زالت ذريته تقطنه منذ ذاك ، وكان القصر على سفح هضبة تحفه البساتين والخمائل ، تجرى من تحتها الأنهار والجداول .

إنى بذلك القصر وحدائقه لمولع ، أزوره خريف كل عام بلذة الفرح ممتعا ، ثم أغادره بحسرة الأسف مشيعا .

وبعد تناول العشاء على خوان الأسرة سألت صديقى « بول موريه » : أين مبيتى هذه المرة ؟ فأجابنى : « بغرفة المرحومة عمتى روزا . »

* * *

ولما خلوت بنفسى فى تلك الغرفة ولم أكن بت بها من قبل ، شرعت أتأمل جدرانها وأثاثها وآلاتها لأطمئن إليها وأستأنس ، وألقيت نظرة على صورة السيدة التى أطلق اسمها على الغرفة فنمّت ملامحها على أنها كانت من طيبات نساء الماضى ، امرأة ذات جد ووقار وورع وتقوى .

ولم أك سمعت عنها خبرا ما من الأسرة فلم أدر من أمر حياتها ووفاتها شيئا . هل انتقلت إلى الدار الآخرة بعد حياة هادئة أو مضطربة ؟ وهل أسلمت إلى عالم الأرواح روح عانس عجوز نقية طاهرة ، أو زوجة هادئة ، أو روح والدة حنانة ،أو روح عاشقة ثائرة .

عدت إلى فراشى وأعيانى الرقاد ، وبعد ساعتين من السهاد وقلق الوساد ، عزمت على القيام ثم تحرير بضع رسائل ، فعمدت إلى خزانة صغيرة هنالك ففتحتها لعلى أجد بها ورقا ومدادا ، ولكننى لم أجد سوى قلم صغير بال منبوذ بإحدى زواياها ، ولما هممت أن أغلق الدرج أخذت عينى نقطة دقيقة براقة ، – رأس

دبوس أصفر بارزة فى أحد أركان الدرج ، فحككته بأنملتى فخيل إلى أنه يتحرك فأمسكته بين ظفرين وجذبته بأقصى قوتى ، فانسل دبوس مستطيل من الذهب .

لماذا أخفى ذلك الدبوس فى تلك الزاوية ؟ لعله كان يستعمل لتحريك لولب يستر درجا سريا ، فشرعت أبحث عن ذلك اللولب ، وطالما بحثت ثم بحثت ، وبعد ساعتين على الأقل عثرت على ثقب آخر بإزاء الأول فدفنت فيه الدبوس فوثب فى وجهى باب صغير ، ورأيت مجموعة من الرسائل بالية عتيقة صفراء مربوطة بخيط أزرق .

فقرأتها ونسخت منها الرسالتين الآتيتين :

* * *

الرسالة الأولى

حبيبتى روزا ..

تريدين أن أرد إليك رسائلك ، لا جرم سأردها إليك وها هى ، ولكن طلبك هذا قد أورثنى من لاعج الهم ما لاعنى ، فماذا – جعلت فداك - تخشين ؟ أتخافين أن أضيعها ؟ وإنها والله لفى قرار مكين ومن دونها أقفال وأغلاق ، أتخشين أن يقرأها إنسان ؟ وإنى عليها لرقيب أسهر عليها سهر الشحيح على كنزه المكنون ، ولا بدع فإنها أنفس كنوزى وأكرم ذخائرى .

نعم إن حرمانى تلك الرسائل قد أمضنى ولاعنى ، وساءلت نفسى هل تأسفين على ما كان من تسجيلك على الورق عاطفة غرامك فى ساعات كان يفيض فيها وجدانك فلا تطيقين كتمانا ، ولا تجدين بدا من بث وجدك – لا إلىّ – ولكن إلى أسلة يراعك ؟ وتلك طبيعة الحب ، إذا عشق الإنسان نشأت فيه حاجة شديدة إلى الاعتراف .. حاجة إلى القول وإلى الكتابة ، فيقول ويكتب . على أن الكلمات الملفوظة تذهب فى الهواء ، نعم تذهب الكلمات الحلوة المصوغة من الموسيقى ، والمصوغة من النسيم ومن الرقة ومن الشجى ، الحارة المشرقة اللطيفة الشفافة ، التى لا يكاد يلفظ بها حتى تتبخر ، والتى لا تدوم إلا فى الذاكرة وحدها ، ثم

لا نستطيع بعد ذاك رؤيتها ولا مساسها ولا تقبيلها كما نصنع بالكلمات المدونة على الورق . تطلبين رسائلك ؟ نعم أردها إليك ولكن بأى أسف وبأية حرقة !

لعلك تذكرت فى تلك الرسائل بضع كلمات هاجت ببالك وأثارت هواجسك ، فقلت فى نفسك « لأمحون هذه الكلمات ثم لأتركنها رمادا » .

فلا تراعى ولا تحزنى واطمئنى واستريحى ، فهاك رسائلك .

إنى أحبك .

* * *

الرسالة الثانية

عشيقى المحبوب

لم تفهم غرضى ولم تفطن إلى مقصدى ، تالله ما أسفت قط ولن آسف أبدا على إفضائى إليك بسريرة حبى ولن أكف عن الكتابة إليك ، ولكنى أسالك رد رسائلى متى فرغت من تلاوتها ، لا أقول إنى أخاف من ناحيتك ولكنى أخشى صروف الزمان وطوارق الحدثان . فما أحد منا فى هذه الحياة بمخلد ، ولقد تموت بكبوة من فرسك أو فى مبارزة ومعاركة ، أو من حادث قطار أو مركبة ، أو بذبحة صدرية ، فإنه وإن لم يكن ثمت سوى موتة واحدة لكن أسبابها المختلفة ربما أربت على أيام الحياة عددا ، وإذا مت لا قدر الله أليس من المحتمل بل من المؤكد أن تقع هذه الرسائل فى يد أختك أو أخيك أو امرأته ، وهل ترى هؤلاء يعطفون علىّ ؟ إنى أشك فى ذلك . وهبهم يعطفون علىّ فهل سر يصبح بين ثلاثة خليق أن يظل مكتوما ؟ وقد قيل كل سر جاوز الاثنين شاع ، بل كل سر جاوز الشفتين شاع ، وأى سر هذا الذى بينى وبينك !

إن من الغلظة والفظاظة أن أشير إلى ما يحتمل من مماتك ، ثم أنهم أفراد أسرتك بإفشاء الأسرار الخطيرة ، ولكنا كلنا هالكون .

ولسوف يسبق أحدنا أخاه إلى القبر ، فحق علينا أن نحتاط للخطب قبل وقوعه .

أما من جهتي فسأحفظ رسائلك إلى جانب رسائلي في الدرج السري من خزانتي ، وسأطلعك عليها في مكمنها الحريري مضطجعة جنبا إلى جنب كعاشقين في ضريح واحد .

وعساك قائلا لي « ولكن ماذا تكون الحال إذ مت أنت من قبل ؟ أليس يحتمل أن يعثر زوجك في تلك الخزانة على رسائلنا ؟ »

فردا على هذا الاحتجاج أقول : إن زوجي لا يعرف سر تركيب خزانتي ولا مكان الدرج الخفي ! ثم لا يعنيه فحصها وبحثها ، وهبه عثر على الرسائل بعد موتي ، فليس في هذه الفكرة ما يخيفني » .

وبعد ، فهل فكرت قط في جميع ما عثر عليه في أدراج خزانات الموتى من الرسائل الغرامية ؟ أما أنا فطالما فكرت في ذلك ، وإن طول الفكر فيه هو الذي حملني على استرداد رسائلي .

فاعلمن علم اليقين أن المرأة لن تحرق ألبتة ولن تبيد تلك الرسائل التي تنبئها بأنها معشوقة ، وذلك أن بين طيات هذه الرسائل توجد حياتنا كلها وأمانينا وآمالنا ، ومآربنا وأحلامنا ، هذه الأوراق الصغيرة التي تحمل اسمنا وتسرنا وتطربنا بأفانين اللذات والمباهج ، هي أشبه شيء بالتذكارات المقدسة المصونة في الهياكل والمعابد ، ونحن — طائفة النساء - نجل المعابد ونبجل الهياكل ، ولا سيما تلك التي نكون نحن قديساتها ورباتها ، إن الرسائل التي هي عناوين غرامنا هي أيضا عناوين جمالنا ، عناوين رشاقتنا ودلالنا ، عناوين فتنتنا وسحرنا ، وهي فخرنا ومجدنا ، وهي أنفس ذخائر العمر — وتالله ما كانت المرأة قط لتتلف تلك السجلات القيمة المضمنة أعذب ذكريات حياتها .

ولكنا سنموت ثم لن يلبث أن يعثر على تلك الرسائل ، ومن الذي يعثر عليها ؟ الزوج ! وماذا يصنع الزوج ؟ لاشيء، سوى أنه يحرقها .

لقد طالما فكرت في ذلك ، وقد تعلم أن في كل لحظة يموت من النساء من كن عاشقات فتقع آثار خطيئتهن ودلائلها في أيدي أزواجهن ، ولكن لا تذيع على رغم ذلك نميمة ، ولا تنتشر مسبة ، ولا تحدث بين الزوج والعاشق مبارزة .

ما أعجب الإنسان ، وما أعجب فؤاده ! إنه لينتقم لنفسه من أجل المرأة

ما دامت حية – يقاتل الرجل الذى انتهك حرمته واعتدى على شرفه فيقتله ما دامت زوجته حية ، ولكنه إذا عثر بعد وفاتها على دلائل خطيئتها اكتفى بإحراقها ثم لا يفوه بعد ذلك بأدنى كلمة ، ويستمر على مصادقة عاشق زوجته الميتة ، ويسره أن تلك الرسائل المريبة لم تقع فى يدى أجنبى ، وأنها قد محيت من الدنيا .

ألست أعرف رجالا قد أحرقوا أمثال تلك البراهين والأدلة ثم تظاهروا بأنهم لا يعرفون شيئا ، وهم الذين لو عثروا عليها إبان حياة زوجاتهم لما استطاعوا سكوتا ، ولأشعلوا نيران مبارزة شنعاء تنتهى بإزهاق الأرواح وسفك الدماء ؟ ولكن الزوجة قد ماتت ، وبموتها سلم الشرف من كل وصمة . إن القبر ليضع حدا لخطيئة الزوجة .

فدعني أحتفظ بهذه الرسائل التى لن تكون فى يديك إلا سلاحا يهدد سلامنا جميعا ، أفلا ترانى بعد ذلك محقة ؟

روزا إنى أحبك !

ثم رفعت بصرى إلى صورة « العمة » روزا ، وتفرست فى وجهها العابس المكفهر المتنكر فى نقاب من الوقار والحشمة ، وفى قناع من الورع والتقوى ، وفكرت فى أرواح تلك النساء اللواتى قد خدعننا بظاهرهن الكاذب ، وأخفين عنا مكنون باطنهن وقد ضربن من دونه أكثف حجاب من الدهاء والمكر الخفى والرياء .

حب غريب

كنا جمعًا من الصحاب نتسامر ونتنادر ، ويقص كل ما جرى له في حياته من وقائع الحال وأحداث الحب ومسائل الغرام ، لنوازن بينها ونتناقش فى أغربها ، ونقرر الدرجات للرابح منها والخاسر ، والفكه والسخيف ، كدأب الصحاب إذا انتظمهم مجلس سمر .

وكان فينا فتى يدعى « ودجر دى أنيت » ، وكان يقول : لست أدرى أى الأمكنة أصلح لقنص الحب ، وفى أى المجامع يكثر الوقوع على الهوى ويطيب الانتجاع إلى التماس الصبابة ، أفى الفنادق أم فى المسارح ، أم فى القطر الحديدية أم على ساحل البحر ؟

وكان رأيه أن المصايف قد تكون أطيب مرتادًا لطالب الحب .

ولكن صاحبنا « جواتران » وكان يشاركنا الحديث فى هذه النقطة من المشكلة انبرى يقول : كلا وأيم الله لست على أرائكم . وإنما رأيى أن ليس مثل باريس للحب منتجعًا ومرتادًا ، ومقنصًا ومصطادًا .. إن باريس أيها الإخوان ملأى والله بالمصادفات العجيبة ، واللقطات الفريدة ، وهى للحب أغرب ظرف زمان ، وللهوى أعجب ظرف مكان ، ففى الربيع ترى باريس مفعمة بأولئك الغانيات كأنهن الأزاهر المتحركة ، والرياحين المتنقلة ، وقد ملأن منافس الهواء طيبًا ، وأشبعن الجو عرفًا . كأنما عطور العرب قد فاحت فى جنباتها ، وريح المسك والعنبر والخزامى قد سرت فى أرجائها.وأما على الساحل وفى المصايف فقد يعثر المرء منا على ظبية أو ظبيتين خليتين من الصحب ، طليقتين من قيد الهوى ، فلا يجد صعوبة فى مرافقتهما ، ولا يعانى مشقة فى التقرب منهما ، وكذلك الحب هناك على البركة ، ووفق الظروف وبحسب السوق ، أما فى باريس فلك من الهوى ما تشاء ، وعندك ما تحب منه وتختار ، ولست أدرى علم الله ماذا كانت العواصم الكبرى مصبحة لولا مشاهد الظباء الغيد ، والحور العين خاطرات على

العين ، في غلالتهن الشفافة تنم عما تحتها من قدود معتدلة رشيقة ، وأبدان غضة بضة وردية اللون ، وبشرة في مثل صقال العاج ؟ وإنك لتدرك وأنت سائر في الطريق أو جالس في المشرب أو واقف في الحانوت ، أى أولئك جميعًا هي أوفق لمزاجك ، وأيهن هي طلبك وبغيتك ، ومنال مرادك ؟ لأنك تعرفها من مشيتها ، وتتبينها من خطرتها ، وتميزها من جموع الحسان بقبعتها وثوبها ، أو دلالها في الطريق ولعبها ، أو خفرها ورزانتها ، أو جمالها وحسن زينتها .

وقد تكون ذاهبة إلى الكنيسة أو عائدة منها ، أو منطلقة في مشوار أو مسرعة إلى موعد مع حبيب أو قاصدة إلى ملتقى أو متجر ... ولكن ماذا يهمك من ذلك كله ؟ وكل ما تشعر به في تلك اللحظة هو أنك لاتريد منها سوى احتوائها في صدرك ، وإمطار خديها من تقبيلك ولثمك .. وقد يصدم ذراعها ذراعك ، أو يمسح كتفها كتفك فلا تنى تحس برعدة قد سرت في جسمك ، ورجفة قد كهربت بدنك . وتمضى سحابة يومك مفكرا فيهن جميعا وأنت تود لو ضحيت بأنفس النفيس ، وسخيت عن العظيم والغالى في سبيل لقاء بعضهن . وتروح تعالج نسيانها فلا تستطيع لها نسيانا ... وإن الإنسان منا كلما فكر في كل البنات اللاتى أعجبنه في الطريق ، الا يلبث أن يسائل نفسه متعجبا : ترى من هن ، وماذا يصنعن ، وكيف يعشن ، وماذا كان من أمرهن في ماضيهن ، وهل سيقدر له اللقاء ثانية بهن ؟ ولقد أصاب والله من قال : كثيرا ما تمر بنا السعادة ونحن لاندرى . ذلكم قول الحق لامراء فيه ..فإن واحدة من أولئك اللاتى نراهن في الطريق مارات بنا ، أو منطلقات صوبنا ، كان في الإمكان أن تكون مالكة ألبابنا مستحوذة على شعورنا ، مكسبتنا الهناوة والمتاع الحسن ، لو أنا ظفرنا بها ، أو أتيح لنا بها امتزاج واختلاط .. !

وهنا ابتسم « ودجر » وراح يقول : هو كما قلت فاسمعوا الآن حكايتى ، إنها والله واقعة‌حال ستدهشون لسماع قصتها .. من خمس سنوات لقيت في باريس امرأة أثرت في نفسى أغرب التأثير .. كانت صاحبتنا هذه سمراء زيتونية كأنها إحدى الساحرات ، صفحة وبشرة وقدا ، وعلى وجهها ذلك الزغب العجيب الذى لا يروق الكثيرين ولكنه كان منها على مزاجى .. وكان لها مشية ساحرة

مثلها ، وقد نحيل مرهف كالرمح . وكانت ذات نظرة ساهية ، وعينين ناعستين تفعلان باللب مالا تفعل الخمر .

وكنت أظنها يهودية من بنات إسرائيل وقوم موسى ، فلما مرت بى فى الطريق أتبعتها ناظرى ، ثم انثنيت أمشى من قدامها لأتأمل معارف وجهها . ومشيت هى مختالة خاطرة فى جلال وسحر ، ثم استوقفت مركبة ووثبت إليها ومضت ، ووقفت مكانى مدهوشا مخبولا . تتناهبنى أفكار غرائب ..وشهوة غلابة لم أكن شعرت بمثلها من قبل .. ولبثت أسابيع مشغول الخاطر بها لا أفكر فى شيء سواها ، ثم نسيتها بعد أن حاولت المستحيل أياما للقائها فلم أوفق ..

ولكنى بعد ثمانية أشهر لقيتها ..

فما كدت أبصرها حيالى حتى شعرت بأن قلبي كاد يقف عن ضرباته من فرط الذهول والمباغتة ، بل لقد أحسست وهى تمر أمامى كأن لهيبا من نار متقدة فى أتون متأجج قد صبت على وجهى فكاد يشويه شيا .. ثم إذا بنسيم عليل بليل قد تلا ذلك اللهيب الحار واللوافح الشاوية ، ولكنى لم أتبعها .. لأننى خفت أن تفرط منى فعلة جنونية إذا أنا تبعتها ..

وعادت الساحرة تتراءى فى الأحلام لى .. غير أنى لم أوفق إلى لقائها مرة أخرى إلا بعد عام كامل من لقائى الأول لها ، وكان ذلك فى أصيل يوم جميل فى شهر مايو الزاهر والشمس جانحة إلى المغيب . لقد رأيتها تمشى فى ساحة « الشانزليزيه » فمشيت خلفها تدفعنى الرغبة إلى الكلام معها ، بل إلى سكب ما فى نفسى من عاطفة محتدمة .. ومرقت من أمامها مرتين وأنا أحاول الكلام فيخوننى جلدى ، وتخذلنى شجاعتى . ورمقتنى هى بنظرة ورأيتها تدخل بيتا فى شارع « برسبورغ » فلبثت أنتظر خروجها ساعتين فلم تخرج ، فخطر لى أن أسأل بواب البيت عنها ، ولكن الرجل لم يفهم غرضى وحار فى أمرى ، قال : لعلها زائرة جاءت إلى ساكن فى البيت أو ساكنة ..

وكذلك حرمتنى الأقدار رؤيتها بعد ذلك . حتى انصرمت ثمانية أشهر أخرى .. ثم لقيتها .

وكان ذلك فى ذات صبح شديد القر فى شهر يناير ، وأنا أجتاز الشوارع

الكبرى مسرعا فى مشيتى لأدفأ ، وفيما أنا أجد فى السير منفرج الخطا إذ اصطدمت بسيدة خارجة من ناصية شارع فى طريقى فأسقطت رزمة صغيرة كانت فى يدها ، فدرت بعينى نحوها لأعتذر .. فإذا هى .. هى ... بعينها .

فى هذه المرة لم أتخاذل ولم أتردد ، وقد أجمعت نيتى على أن أمسك بها فلا أدعها تفلت منى مرة أخرى ، فانحنيت على الرزمة فالتقطتها من الأرض ومددت يدى بها إلى يدها قائلا : سيدتى يحزننى وأيم الله ويسرنى فى آن واحد أن أصطدم بك هذه الصدمة ، فقد رأيتك من سنتين أو أكثر مارة بى ، وكنت أود أن أكلمك فلم أستطع .. بل كنت على أحر نار أرتقب لقاءك ، ولكن الدهر الخئون حال بينى وبينك فلم أكن أعلم شيئا عنك ولا أدرى أين تقيمين ... مغفرة يا سيدتى لهذه الكلمات الحمقاء المتجرئة ، ولكنى لا أدرى كيف تؤلمك كلماتى هذه وهى خارجة من صميم فؤادى للإعراب عن إعجابى واحترامى ...وأنت بالطبع لاتعرفين عنى شيئا .. فاسمحى لى أن أعرفك بنفسى ، أنا محسوبك البارون « ودجر دى أنيت » ولك ياسيدتى أن تسألى الناس عنى وتتحرى عن خلقى وحقيقة أمرى ، إننى ياسيدتى رجل مستقيم ، وامرؤ على الهدى ، ولى عندك رجاء إذا لم تقبليه رددتنى أشقى مخلوق على ظهر الأرض . سيدتى .. هلا سمحت لى بلقائك مرة أخرى ؟ ! هذا كل مناى وكل ملتمسى .. !

ذلك ما قلته وخفت أن أكون قد أغضبتها ، ولكنها ابتسمت وراحت تجيبنى قائلة : من فضلك أعطنى عنوانك لأجىء لزيارتك . .

فبهت ووقفت حائرا لحظة لا أدرى ماذا أفعل . ولكنى لم ألبث أن تمالكت نفسى فتحسست فى جيبى وأخرجت لها إحدى بطاقاتى ، فدستها بسرعة فى محفظتها ، وهمت بالذهاب .

هنالك تشجعت فقلت بصوت مضطرب : ومتى يكون اللقاء ؟

فترددت كأنما تستعرض فى ذاكراتها مواعيد كثيرة ، ولكنها عادت تقول : هل صباح الأحد مناسب ؟

قلت : كل المناسبة !

فانطلقت فى طريقها مترفقة ، وهى مائلة برأسها قليلا ميلة الجلال والحشمة

والوقار .

وشعرت بأنها قد وزنتنى فى خاطرها وقدرتنى ، وإنى عظمت عندها خطرا وقدرا . بل أحسست شعورا رهيبا . شعور القادم على أمر مجهول عجيب غامض . وكنت لا أزال فى حيرة شديدة من أمرها لا أعرف ماشأنها وما حقيقتها وما سرها ، أهي من بنات الهوى ... أم عفة حرة ؟ ... وهل هى رقيقة العاطفة أم باردتها ... أتراها تأثرت بى كما تأثرت بها ؟

وكذلك مرت على الأيام السابقة ليوم الموعد وأنا على تلك الحال من الحيرة والوسواس واشتغال البال .

وفكرت أخيرا فى ابتياع طرفة لطيفة أقدمها إليها على سبيل الهدية ، فاشتريت قطعة من المجوهرات لا بأس بها . ووضعت العلبة التى تحتويها فوق المائدة لأقدمها إليها عند انصرافها .

وقضيت الليلة الأخيرة مسهدا أرقب مطالع الصبح المنتظر .

وفى العاشرة جاءت فإذا هى ساكنة هادئة رابطة الجأش ومدت نحوى يدها بالسلام فى غير كلفة ، كأنها تعرفنى من عشرات السنين . وقربت كرسيا من مجلسها وتناولت قبعتها ومئزرها وبرنسها فألقيتها فوق الكرسى ، وفى تهيب وخوف أمسكت بيدها فى يدى .. !

وكانت الجلسة مستطيلة ، تم فيها التفاهم .

وإذا بى ألمح بقعة سوداء بين كتفيها . ولست أدرى ما الذى دفعنى إلى النظر إلى تلك البقعة ، ولكن عينى انجذبت إليها عن غير قصد منى ولا عمد ... يا عجبا ..ما هذه البقعة المؤلمة ... ولكن ربما كانت عينى خادعتنى ولكن كلا ، ها هى ذى أمام ناظرى لاشك فى وجودها ولاريب ..

لقد اشمأزت نفسى ... أمام هذا الشيء المرهوب وأنا لا أدرى حقيقته ،أهو وشم من وشم أهل الشرق أم ماذا يكون .. ؟ .. وكذلك وقفت فى مكانى ذاك نادما على تهورى ... لقد كان أولى لى أن أكون حكيما فلا أتسرع هكذا ، وتذكرت إذ ذاك ما فعل سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ بلقيس الحسناء ،إذ

اصطنع لها صرحا ممردا من قوارير ، فلما جاءت تمشى حسبته ماء فكشفت عن ساقها فرأى !

واشتد بى الاشمئزاز ولكنى كتمته مغالبا ، وحاولت أن أبثها بعض الحب وأخاطبها ببعض ألفاظه . فتلعثمت ولم أقل شيئا .

واندهشت هى أولا من تلعثمى وانقباضى ثم أخذت تغضب ، ولما فهمت أخيرا ما هنالك لوت عنى جيدها ومشت إلى ثيابها .

قالت بكبرياء وأنفة :لم يكن ينبغى لى أن أنسى مركزى وأجىء إلى هنا .

فأردت أن أعطيها الخاتم الذى كنت قد أعددته لها ، ولكنها أبت أخذه ونظرت إلىّ مليا وهى تقول بمرارة ومضض : أية امرأة حسبتنى يا سيدى ؟

فعلانى الحياء وأسقط فى يدى .

ولما فرغت من ارتداء ثيابها مشت إلى الباب وانصرفت ، وأنا حيران أنظر ولا أتحرك .

هذه حكايتى ياصاحبى ...وإنما بقى حديث عواقبها . فإن أدهى ما فيها وأمر أننى ما كدت أراها قد أبت قبول الخاتم وأتبين أنها امراة ذات أنفة وكرامة ، وأننى قد غلطت فى حقها أشنع الغلط حتى شعرت برغبة هائلة فى الظفر بها ، وهفت نفسى فى أثرها ، ورحت ألعن تلك الحيلة التى خدعنى القدر بها ، وأسخط على ذلك الجنون الذى تملكنى فى تلك اللحظة ، فجريت خلفها لأردها ولكنها كانت قد ذهبت .

وا أسفاه يا سادة ، إن أحب النساء إلى قلوبنا هن اللاتى أردناهن ثم لم نتمتع بهن ، وأحب شىء إلى النفس ما منع .

واليوم كلما رأيت امرأة وحدها فى الطريق عادت بى الذاكرة إلى تلك المرأة ، بل لقد عافت نفسى كل أنثى سواها من بنات حواء جميعا ، وأضحيت أشعر أنها هى وحدها التى كانت ستروقنى دونهن وتملك إعجابى ، وكلما قبلت امراة ليوم تألمت ألم الاشمئزاز وتحسرت على أمل ضائع وسعادة ذهبت من يدى . وفى بعض الأحايين يذهب بى الخاطر إلى اعتقاد أن تلك المرأة ساحرة أو جنية أو

شبح من الأشباح الهائمة فى الأرض ، وأن روحى قد نجت من شراكها بمعجزة من معجزات الإلهام والغريزة .

ولست أدرى إلى اليوم من هى ، وما حقيقة أمرها ، وقد رأيتها مرة أخرى منذ ذلك الحين فحنيت رأسى لها تحية ، ولكنها تجاهلتنى كل التجاهل فمضت فى طريقها غير ملتفتة ولا حافلة .

وكلما فكرت فيها حسبتها يهودية من إسرائيليات المشرق ، ولكن ذلك ظن ، بل مجرد حسبان وتصور ، لأننى لست متأكدا ... وفى الحق أراتى كلما عدت إلى حديثها ، عدت مشدوها مبلبل الخاطر ... فبالله عليكم دعونا من هذه السيرة المؤلمة .. وخذ يا « توران » فى موضوع آخر .. !

الميزان

﴿ألهاكم التكاثر ، حتى زرتم المقابر﴾

كان « نيقولا نيرلى » متمولا وصاحب مصرف فى مدينة فلورنسة من أعمال إيطاليا ، وكان جمع المال دأبه وديدنه ، يلتمسه من كل وجه ويتأتى إليه من كل باب ، وما إن يزال عاكفا على دفاتره وأرقامه من لدن طلوع الشمس إلى غروبها ، وكان يقرض الإمبراطور والبابا ، وما منعه أن يقرض إبليس إلا خشية المطال ، وإن إبليس أشد مكرا منه ودهاء .

كان « نيقولا نيرلى » يقترف كل منكر فى سبيل التمول ، يفسد مروءته لإصلاح حاله ، ويرقع دنياه بتمزيق دينه ، ويهدم حسبه لترميم نشبه ، فكم جز وجدّ ، وكم بزّ وجرد ، وكم اكتسى فى ذاك الصراع أسلاب قتلاه ، وآب من سوق الخداع بأمتعة ضحاياه ، – وما زاده عند الناس إلا علاء ،وفى أعيهم إلا رفعة وسناء :

والناس من يلق خيرا قائلون له : ما يشتهى ولأم المخطئ الهبل

وكان يسكن قصرا لاينفذ إليه ضوء النهار إلا من أضيق النوافذ ، ولا بدع فحليق بمن أحرز المال تحايلا واختلاسا ، أن يحفظه قوة وبأسا .

وكذلك حصنت النوافذ بالقضبان ، والأبواب بالسلاسل ، ولشدة تظاهر نيقولا بالورع والتدين جعل نقوش جدران قصره من الخارج من صور الأنبياء والحواريين ، والشهداء والقديسين ، وعلق بالغرف ألواحا تمثل سيرتى « الإسكندر » و « ترسترام » كما وردتا بالأساطير ، واحتال حتى أطلق ألسنة الناس بالثناء عليه بما شاده من معاهد التقوى ، وكان قد أنشأ مستشفى على كثب من قصره ، وملأ واجهته صورا تمثل مساعيه ومبراته ، وجزاء له على تبرعاته لكنيسة القديسة « ماريا نوفلا » علقت صورته بمحرابها تمثله راكعا

باسطا يديه بالدعاء تحت قدمى العذراء ، يعرفه كل من تأمل الصورة بقلنسوته الحمراء ، ووجهه الأصفر العائم فى الشحم ، وعينيه الضيقتين الحادتين ، وعلى يمين العذراء صورة زوجته – امرأة على وجهها سيما الحزن والكآبة ، يخيل إليك أنه ما انشرح قط لرؤيتها إنسان .

كان « نيقولا نيرلى » من أعيان المدينة ، ولما كان لم يحترض قط على أدنى شيء من تصرفات الحكومة ، ولم يحسن قط إلى امرئ ما من طبقة الفقراء والضعفاء .. تلك الطبقة التى ما برحت موضع احتقار العلية والأشراف ومجال اضطهادهم ونكايتهم - فقد ظلت له فى صدور أولئك العلية والأشراف وأولى الحل والعقد من رجال الدولة ، تلك المكانة التى رفعته إليها ثروته العظيمة .

وفى ذات ليلة من ليالى الشتاء وهو رائح إلى قصره ، اكتنفه لدى العتبة طائفة من الشحاذين فى رثاث الأطمار والأسمال ، يبسطون إليه أكفهم بالسؤال .

فانهال عليهم زجرا ونهرا ، ولكن لهيب الجوع فى أكبادهم كان أشد عليهم من مقاذع سبابه ، فكلما ألح عليهم دفاعا ألحوا عليه هجوما ، وكأنهم من حرقة الجوع الذئاب الضارية ، فأحدقوا به حلقة متصلة محكمة ، وتقاضوه الخبز بأصوات منهوكة مبحوحة ، وفيما هو مكب على الأرض يتلمس من الحصى ما يحصبهم به ، إذ قدم من خدامه من كان يحمل سلة رغفان من الخبز الأسمر لزمرة خدم الإسطبل والمطبخ والمغسل والبستان .

فأومأ لحامل الخبز أن يتقدم ، ثم ضرب بكلتا يديه فى السلة وقذف بالرغفان إلى البؤساء الجياع .

وأمضى إلى ساحة القصر ومنها إلى مخدعه حيث بسط عليه النوم سلطانه ، وفى أثناء الليل أصيب بالفالج ومات على الأثر ، ثم إنه ألفى نفسه بمكان مظلم شديد الحلكة ، وإذا أمامه الملك ميكائيل يتلألأ بهجة وبهاء فى رونق الضياء الذى كان ينبعث من جميع ذرات شخصه .

وكان ذلك الملك العظيم فى يده الميزان ،وإنه ليملأ كفتيه ونظر صاحبنا «نيقولا» إلى الكفة الراجحة فإذا فيها جواهر من ماس وياقوت وزمرد ، فعرفها وتذكر أنها كانت لأرملة قد رهنتها عنده على قرض عجزت عن سداده فاغتنمها ،

ثم أبصر مع تلك الجواهر عددا كبيرا من مصوغات أخرى كانت لأناس ممن سلب وجرد ، وقطعا من الذهب مما كان أخذه غشا وخديعة ، فأدرك صاحبنا أن الملك ميكائيل إنما كان يزن أعماله فى الحياة الدنيا ، فصاح :

« حنانيك يا سيدى ، رحماك يا سيدى ميكائيل ! إن كنت - بالذى خلقك فسواك ملكا - واضعا بإحدى الكفتين ما كسبت فى حياتى من المال ، فلتضعن بالأخرى تلك المعاهد الفخمة الجليلة التى شيدتها عنوانا على ورعى وتقواى ، ولا تنس قبة كنيسة القديسة « ماريا نوفلا » التى اشتركت فى إنشائها بمقدار الثلث أو أكثر ، ولا تنس المستشفى القائم من منزلى على كثب ، ذاك الذى بنيته من حر مالى » .

قال ميكائيل :

« لا تخف يا نيقولا ، لن أظلمك والله حبة خردل ، طب نفسا واعلم أنى لا أنسى شيئا ألبتة » ..

ثم إنه مد يده السماوية فتناول بها قبة كنيسة القديسة « ماريا نوفلا » ..

ووضعها فى الكفة الشائلة فلم تغن شيئا ..

فصاح نيقولا :

« والمستشفى ، المستشفى ! .. »

قال الملك :

« على رسلك ، لا تعجل » ..

ثم إن ميكائيل أردف قبة الكنيسة الهائلة بالمستشفى برمته - بجدرانه وشرفاته وطنفه وإفريزه فلم يجد شيئا ، والكفة الشائلة كما هى لم تهبط قيد أنملة .

فقدح ذلك فى قلب الرجل فصاح :

« مهلا مهلا ، سيدى ميكائيل ! لقد فاتك أن تضع فى هـذه الكفة طشت الماء المقدس الذى أهديته للقديس « جيووانى » ثم منبر كنيسة القديس « أندريا » الذى نقشت عليه صورة تعميد المسيح ، لقد كلفتنى هذه الصورة قرش تعريفة بأكمله »

فمد الملك يده العلوية فتناول طشت الماء المقدس ومنبر كنيسة القديس « أندريا » ثم وضعهما فى الكفة الخفيفة فلـم يصنعا شيئا ، ولـم تتحرك الكفة مطلقا ، فبدأ « نيقولا نيرلى » يحس العرق البارد من جبينه يتحلب ، وصاح :

« سيدى البر التقى ، سيدى ميكائيل ! أواثق أنت من ميزانك أن ليس به خلل ؟ »

فأجاب ميكائيل متبسما إن هذا الميزان ليس كالذى تعهد من موازين محتالى السماسرة بباريز والمرابين بفينسيا ،ولكنه الميزان العادل والقسطاس المستقيم » فتنهد نيقولا وقد شحب وجهه وامتقع لونه وقال :

« يا للمصيبة ! القبة والمنبر والطشت والمستشفى بجميع أسرته وموائده ومتكآته ونمارقه وأنماطه – كل هذه لا تساوى جناح بعوضة ! »

قال الملك :

« قد ترى بعينى رأسك فرط ما ترجح سيئاتك الدثرة الكثيفة ، بحسناتك النزرة الطفيفة »

فصاح المرابى وهو من شدة الكرب يحرق نابه :

« لأذهبن إذن إلى جهنم ! »

فقال وازن الأرواح :

« مهلا يا نيقولا ، مهلا ! نحن لم ننته بعد . قد بقى شئ آخر »

ثم إن ميكائيل مد يده فتناول رغفان الخبز الأسمر التى كان المتمـول قـذف بها البارحة إلى الشحاذين الجياع ، ووضعها على الكفة ، فإذا هى تهبط وتعلو الأخرى حتى استويتا ، واعتدل اللسان لا إلى اليمين ولا إلى اليسار

وبهت الرجل لا يكاد يصدق عينيه ، وقال ميكائيل :

« تأمل يا نيقولا ، قد ترى بنفسك أنك لا تصلح لنار ولا جنة ، انطلق فارجع إلى بلدك « فلورنسة » فضاعف بها عدد ما أعطيت البارحة من الرغفان تحت ستار الظلام ، حين لم يطلع عليك إنسان ،– وبذلك- لا بغيره – تنجو من النار ، لا تيأس من روح الله واعتقد أن عند الله من العفو والغفران ما يسع حتى الأغنياء

أصدع بما تؤمر ، ضاعف الرغفان التى ترى بعينك أنها هى وحدها - من دون ما قدمت يداك - الراجحة الرابحة ! »

وهنا استيقظ « نيقولا نيرلى » فى فراشه ، فأبرم عزيمته وعقد نيته على اتباع نصيحة الملك العظيم بمضاعفة عطايا الخبز للفقراء هربا من النار وتذرعا إلى الجنة .

على أنه لم يبق بعد موتته الأولى على ظهر الأرض إلا ثلاثة أيام كان فى خلالها مثال البر والإحسان .

كان الراهب « جيوواني » من شيعة القديس « فرنسيس » – ولما كان هذا القديس قد أمر أبناءه « بالتجول والتماس الخبز من دار لدار » ، خرج الراهب « جيوواني » ذات يوم يضرب فى الأرض تسولا عملا بوصية القديس .

وورد فى بعض طوافه بلدة فدخلها وطفق يجوب طرقاتها يشحذ الخبز من باب لباب ، طبقا لمذاهب كنيسته فى حب الله .

ولكن أهل البلدة كانوا لئاما أشحاء فكلما ورد جماعة تلقوه بالزجر والسباب ، حتى النساء حاملات الأطفال كن يتجهمنه ويرحن عنه صوادف الأعناق ، والراهب الكريم طبقا لروح المسيحية السمحاء ، وأسوة بالسيد المسيح يجد فى هذا الاحتقار والإذلال أقصى منتهى الحبرة والسرور ، فكان يتبسم ارتياحا وطربا لتلك الشتائم والإهانات ، فيقول الناس بعضهم لبعض :

« قبح الله ذلك الشحاذ ، إنه ليضحك منا ويهزأ ، إنه لمعتوه أبله ! بل هو دجال محتال وسكير مدمن ، ولقد أفرط الغداة سكرا فعار علينا وجناية أن نهبه من الخبز مثقال ذرة » .

فأجابهم الراهب الأمين قائلا :

الحق تقولون يا إخوانى ، إنى مذنب أثيم ولست لمرحمتكم أهلا ، ولا بأن أنازع كلابكم غذاءها الخسيس ، جديرا » .

وكان الصبيان وقتئذ منطلقين من المدارس فسمعوا كلمات الراهب ، فغدوا على عقبة يصيحون .

« مجنون ! مجنون آ »

ويرجمونه بالطين والحجارة .

فانطلق الراهب « جيوواني » إلى العراء ، وكانت البلدة على منحدر تل تكتنفها مغارس الكرم والزيتون ، فانحدر في فجوة بين شوابك الكروم وظل يتأمل صنع البارئ البديع من يواقيت أعنابها يبسط تلقاءها اليدين يبارك فيها ومن سوف يطعمها ، وانبرى يسبح بحمد من بسط السهل ودحاه ، والنهار وضحاه ، والليل ودجاه ، والقمر وسناه ، والروض وشذاه ، وفجر فى الأرض أنهارها ، وأنبت أشجارها ، وأطلع ثمارها ،وأنطق أطيارها ، دأبه ذاك حتى أتى السفح وكان الجوع قد نال منه والظمأ ، ولكنه كان بالظمأ والجوع مسرورا .

وبعد لأى أبصر غابة ، وكان من عادة رهبان القديس فرانسيس ، إقامة الصلاة فى الغابات ، ترحما على من يهلك فيها من الحيوان من جراء قسوة الإنسان .

فدخل الراهب جيوواني الغابة ، وأقبل يمشى على ضفة جدول عذب النطاف صافى الجمام حلو الخرير ، وأبصر حجرا مربعا يشرف على الماء وإذا فتى بهيج الطلعة بارع الجمال فى طيلسان أبيض ، فى يده رغيف فوضع الرغيف على الحجر ثم اختفى .

فخر الراهب ساجدا وسبح بحمد رازق الطير فى مساربه ، والحوت فى مسارحه، قال الراهب « اللهم ياذا المن والإحسان ، ما أعظم قدرتك ، تهب عبدك النعمة الجزيلة على يد ملك من ملائكتك المطهرين ،وتخص عبادك الفقراء بتلك المنة التى ليس فوقها منة ، ألا حبذا الفقر وحبذا نعماه ! وأبهج به وبحسن عقباه ! »

وأكل الرغيف وشرب من ماء الجدول السلسال ، وصح بدنا وروحا .

وعلى جدران تلك البلدة كتبت يد خفية :

« الويل ، كل الويل للأغنياء ! »

البائع المتجول

كم في مغازل الحياة من خيوط معقدة ، لو أنك ذهبت تخرجها من عقدها ، وتفكها من كرات أناشيطها ، أتعبتك واستنفدت جزءا كبيرا من وقتك . فإننا في حل هذه الخيوط نبدأ في أكثر الأحيان قلقين متعجلين ، ونروح نلتمس اتجاهها ومساربها في عقدها متململين متسرعين ، فنغفل عنها ويزيغ بصرنا عن مداخلها ومخارجها . وقد يكون الخيط الواحد منها واقعة حال في حياة المرء منا ، وذكرى بعيدة من ذكريات ماضينا ، فإذا عدنا إليها وتناولناها من صميم الذاكرة للتفكير فيها ، قربتنا رويدا رويدا من الحقيقة ، وأدت بنا خاتمة المطاف بها إلى سبيل الحق الخفي وطريقه .. كذلك كان دأبي فيما مضى من حياتي ، وهو اليوم عادتي الملازمة ونزعتي . كلما خرجت إلى مسارح نزهتي تزاحمت الذكريات في ذاكرتي ، وقد اعتدت أن أتناول المؤلمات منها فألقيها من الخاطر في ناحية ، وأنبذ الثقال المحزنات في زاوية ، أو أروح أنفيها من الذاكرة ، وأطلقها هاربة نافرة ، كما تطرد مواقع قدمي على الطريق أطيار السماء لتذهب تلتمس الركن ، وتفزع إلى الفتي وتطلب فوق أعالي الدوح منجاة وفرارا ..ولكن ليس من الحكمة أن نقتصر على الذكريات المفرحة ، أو نكتفي بالتفكير في أدوار الحياة الطيبة الصالحة ، فإن معاودة الذكريات المؤلمة قد تروح حينا أكثر أجداء وأحسن مردا وأجزل فائدة .. كنت في ذات يوم أتمشى حذاء ضفاف بحيرة « بورجيه » منهوم العين بحسن مشهد صفحتها ، وصفاء زرقتها ، وصقال فضتها ، وقد رف أديمها وسطع الضياء عليها ، فمضت العين حيرى خلالها لا تصل إلى غايتها ، ولا تبلغ آخر مداها وضفتها ، وإنما تلمح الجبل الأشم الشاهق ينهض من خلفها ذاهبا في صميم الفضاء ، ظاهرا فوق السحاب ، وعلى جانبي الطريق تسللت معاقد الكروم بين الشجر ، ومضت فوقها تقفز وتطفر ، محنيات الأغصان الصغار

تحت ثقلها ، عاقدات أكاليل وباقات من أحمر وأخضر وأصفر ، ينبثق من خلالها العنقود بعد العنقود ليأخذ العين ويبهر النظر .

وامتد الطريق أمامى أبيض أغبر قفرا .. وما لبث أن ارتفع لى بغتة شبح رجل متسلل من الغابة ناحية القرية القريبة ، وهو يمشى فى رفق نائيا يحمل رزمة ثقيلة أنقضت ظهره ، دالفا نحوى متكئا على عصاه ، ولم يكد يدنو منى حتى تبينت من هيئته أنه بائع متجول ببضاعته ، وفى الريف كثيرون من أمثاله يطوفون القرى وينتقلون من الدساكر ليبيعوا أهلها رخيص الحاج ، وبخس السلع ..

وأذكرنى مشهده بواقعة حال جرت لى مع رجل لقيته ذات ليلة على الطريق الممتدة بين أرجنتيل وباريس ، وكنت يومئذ شابا فى الخامسة والعشرين مغرما بركوب الزوارق ، مشغوفا بالنزهة فى النهر على صدور القوارب الساريات الموارق ، أبيت عند نوتى من أهل القرية ، وآخذ القطار فى كل يوم إلى تلك الناحية النائية ، وأروح أركب زورقى فى النهر سربا ، وعلى المغيب ألتمس أوبا ، وهنالك أترك قاربى ، فأبيت عند صاحبى ، أو أنطلق عائدا إلى باريس على ضياء القمر ..

ففى إحدى الليالى وإنى لسائر فى طريق أبيض أغبر قفر كهذا الطريق ذاته ، إذ لمحت رجلا يمشى الهوينا وقد ناء بحمل رزمة ثقيلة فوق ظهره ، ولم تكن تلك ولا ريب أول مرة لقيت على ذلك الطريق مسافرين أدركهم الليل ، فلم أفزع لمرآة ، ولم أخش لقياه ، بل مشيت إليه مفرج الخطو ، ورأيته قد وقف عن المسير ثم استدار فرآنى ، ولم يكد يفعل حتى عبر الطريق إلى الناحية الأخرى كمن يبتغى منى هربا ، ويلتمس تحاشيا و مفرا ، ولكنه لمحنى منطلقا فى طريقى لا ألوى عليه ، راح ينادينى قائلا :

يا سيدى ... يا سيدى ... طاب ليلك ..

قلت : وليلك طيب ..

قال : أو مستقتك بعيدة ؟ .

قلت : إلى باريس أقصد ..

قال : أحسبك بالغها بعد قليل لأنك جلد على المشى سريع الخطا ..
فخففت من خطوى قليلا ..

يا عجبا .. ترى ما الذى بعث الرجل على الكلام معى . وأى شيءيحمل فى جوف تلك الرزمة ؟ وأنتم تعلمون أن أعصاب الإنسان منا تمسى مع الليل يقظى متنبهة ، فيروح المرء خئوفا مستريبا بلا سبب ، ولكن الليل ولا ريب هو مجال الشر ومستخفي أهله ، وأدهى من ذلك أن الصحف كانت لاتنقطع فى ذلك الحين عن نشر أخبار حوادث القتل والسرقات التى ترتكب ليلا فى ذلك الطريق القفر الموحش ، بيد أن صوت هذا الرجل لاح فى مسمعى رفيقا مستعطفا ولم يلح جريئا مخيفا ، فرحت أسأله : وأنت أذاهب فى مشوار بعيد ؟ .. قال إلى قرية « أزنيير » قلت : أو فيها مقامك ؟ قال : أجل يا سيدى فيها أسكن ، وأنا بائع متجول ..

وترك جانب الطريق متسللا من بين أشباح الشجر فوقف فى بهرته ، وكذلك وقفت ، ومضى كل منا ينظر إلى الآخر نظرة المستريب ، وقد أمسك كل بعصاه فى يده غير متظاهر بمخافته ولا ريبته ، ولكنا لم نلبث أن اطمأننا وذهب الروع عنا .

قال : هلا ترفقت فى خطوتك واتأدت فى مشيتك حتى نمشى سويا ، ونتلهى بالحديث عن وحشة الطريق ، فإننى كما ترى لا أستطيع أن أوازن بين خطوى وخطوك وإن كنت لا أخاف المشى فى هذا الطريق وحدى ، وأنا كما ترانى أحمل بضاعة كثيرة ، واللصوص قد « ينفردون » بالرجل الواحد ويخشون شر الاثنين . فوافقت على قوله وانطلقنا معا فى طريقنا نريد باريس .

وعلى الطريق قلت له : وإذا كنت خائفا شر اللصوص فلم العودة إلى دارك والليل قد أوغل ؟ وإذ ذاك أنشأ يقص على قصته فقال : إنه فى بعض الأحايين يتأخر فى قرية أرجنتيل حتى يرخى الليل سدوله ، وأكثر ما يقع له ذلك فى موسم الفيضان إذ يقبل الناس من الفرح بالموسم ، والقصف فى أعياده على شراء التوافه من السلع ، واقتناء الصغار من الطرف ، وإنهم يحبون سلعه خاصة ويفرحون بمصنوعاته أكثر من سواها ، وقد نبأنى كذلك بأن له حانوتا فى « أزنيير » وأنه قد ترك فى ذلك الحانوت زوجته ترعاه وتتولى إدارته . وأردف يقول : وقد

تزوجتها يا سيدى منذ خمسة عشر شهرا ، فظفرت منها بأملح غادة على وجه الأرض غير منازعة ولا معارضة .

ومضى يشرح لى كيف كان زواجه ، فعلمت منه أنه لبث على حبها عامين كاملين يتودد ويتلطف ويتغزل بها ويتشبب ، وهى مترددة لا تستقر من أمره على رأى ، وكانت تملك حانوتا لها فى زاوية من الشارع تبيع فيه ألف صنف وصنف ، أزهارا وأشرطة ، وخرزا وأساور من زجاج وما أشبه ذلك ، وهى المعروفة فى أزنيير لا يجهلها أحد من أهلها ، والناس هناك يكنونها زهرة القمح لكثرة ما تلبس من الثياب الزرق الصفر ، وقد راجت حالها وأقبل القوم على الشراء منها ، فاجتمع لها من ذلك مال كثير . وانثنى يقول : إنها اليوم ضعيفة البدن متوعكة ، وقد ظننت ما بها بادئ الرأى أعراض الحمل ولكنى اليوم غير واثق من ذلك .. وعندى غير هذا مشاغلى الخاصة ومشاكلى ، لأننى عميل عند مصنع يخرج نوعا من المصنوعات غير نوعى الذى توفرت على صنعه ، أطوف القرى به ابتغاء عمولة اتقاضاها من ربه ثم لى حانوتى كذلك ، والعيش يحب الخفة والسعى والنشاط له ، والآن فيم تعمل أنت يا سيدى ؟

فترددت أريد الهرب من الجواب ، ولكنى انثنيت أنبئه بشدة ولوعى بالرياضة وكثرة ترددى على قرية أرجنتيل لركوب الزوارق ، وتركته يستخلص من حديثى أننى أشتغل فى باريس بصناعة ذات ربح وفير ومكسب حسن .

قال : والله يا سيدى لو كنتك للهوت النهار بطوله ، وإنما جنيت لنفسى المسير والإدلاج فى الطرق القفرة الموحشة ؛ فإن هذه النواحى يا سيدى إن أردت الحق غير مأمونة من شر العيارين والأشرار والسفل ..

هلا خففت من خطوك أيها السيد فإنى لا أكاد ألاحقك وأحسبك نسيت حملى الثقيل .

وأشرفنا على قرية « أزنيير » فقال رفيق الطريق : ها نحن قد كدنا نبلغها ، ولسنا نبيت فى الدكان وإنما لنا منزل نسكنه ، ولكن على الحانوت كلب يحرسه وإنه والله لنعم الحارس الأمين ، بل هو يقوم مقام أربعة رجال حارسين وخفراء ساهرين .. أصغ إلى يا سيدى ، لقد أديت لى صنيعا لا ريب فيه إذ كنت خائفا

من وحشة الطريق القفر تحت جنح الليل ، فامتنني من الخوف وأذهبت برفقتك على الروع ، فهلا أقمت ساعة عندنا فتناولت شيئا من شرابنا ، وجالستنا قليلا أنا وزوجتي إن كانت زوجتي لا تزال مستيقظة ، وإلا فلا حيلة لنا غير المنادمة وحدنا ، فهي والحق يقال نوامة لا تطيق سهرا ، وإن نامت فلا تحب إيقاظا ولا تريد انتباها .. فاستعفيت وألح ، ولما استسمحته ثانية في تركي انقض عني وأظهر تألما ، فلم يسعني غير النزول على دعوته بعد أن راح يقول : لعلك مستنكف يا سيدي من النزول ساعة بدار رجل فقير مثلي ..

ومشينا نريد داره ، ولكنني لم أكد ألم بها حتى ترددت في الدخول ترددي لحظة تلاقينا على الطريق ، وقام بخاطري هاجس مريب ، إذ بدا لي من تهدم البناء وانعزاله عن البيوت وقيامه في الخلاء ، أنه قد يكون مأوى للسراق وقطاع الطريق والمتشردين والأوشاب ، وقلت في نفسي لعل لهم فيه سراديب ومكامن تحت الطباق .

ولكن الرجل لم يمهلني حتى أفكر في الأمر ، إذ راح يمشي بي في دهليز مظلم وقد أغلق الباب في أثرنا متعجلا ، ومضيت أتلمس طريقي محاذرا في خطوي حتى بلغت السلم مشفقا من الوقوع في كمين أو هاوية بين الخطوة والأخرى .

وما كدت أضع قدمي على الدرجة الأولى من السلم حتى قال لي : هيا اصعد يا سيدي فإننا نسكن الطبقة السادسة ، فتحسست جيوبي حتى عثرت على علبة كبريت فجعلت أشعل الثقاب عودا عودا ، ومضيفي في أثري صاعدا وهو يلهث من التعب والكلال .

ولما بلغنا الطبقة السادسة أخرج مفتاح سقاطته وكان مربوطا بأحد أزرار صداره ، ففتح ودعاني إلى الدخول ، فإذا نحن في حجرة ضيقة معراة من الفراش تتوسطها مائدة للطعام ، ولا تحتوي غير خزانة ثياب وبضعة مقاعد .

وانثنى يقول : سأذهب لأدعو امرأتي ثم أنزل إلى القبو لأجيء بالشراب ، فقد استودعناه ذلك القبو ليعتق هنالك ويعطينا نشوة ورحيقا .

ومشى إلى الباب فاندس في الظلام وراح ينادي برفق قائلا : يا زريقاء ...

يا زريقاء ...

فلم أسمع جوابا ، فعاد ينادى جاهرا بصوته : يا زريقاء ... يا زريقاء ... ولم يتلق ردا ، فجعل يدق الجدار بجمع كفه وهو يصيح مناديا : بحق السماء استيقظى يا زريقاء ولا تدعينى أطيل وقوفا وانتظارا . ووقف لاصقا أذنه بخصاص الباب مليا ، ثم انثنى نحوى يقول لا أمل فى انتباهها ، فلتدعها نائمة ولنأخذ نحن فى شرابنا ، فلو استيقظت لقامت معكرة المزاج غضبى ، دعنا إذن منها واسمح لى أن أغيب عنك لحظة حتى أعود بالشراب .

ومضى توا ، وما لبثت أن مللت الجلوس وحدى وبدأت أندم على المجىء إلى هذا البيت الموحش المخوف ، وإذا بى أسمع فجأة حركة أجفلت لها وذعرت ... وسمعت من حجرة الزوجة صوتين يتهامسان ومواضع أقدام خفاف لا تكاد تبين .. رباه ! .. أترانى سقطت فى فخ منصوب ووقعت فى حبالة الصائد ، بل أترى نداء الرجل لزوجه كان إشارة اصطلحا عليها كأنما يريد أن يقول لقد اصطدت طائرا وهأنذا ماض أسد عليه المنافس وأوصد دونه الأبواب ، وعليك أنت الباقى فهيا استعدى له ... أو شيئا بهذا المعنى أو نحوه .

وتعالت الحركة الخافتة رويدا ... وسمعت حركة لدى الباب ، وأدركت أن المفتاح يدور فى قفله فأخذ قلبى يدق سريعا ، وانزويت فى أقصى ركن فى الحجرة متهيئا للقاء المهاجم متسلحا بمقعدين أمسكت بهما إمساكة المشمر للقتال المتوقع للهجوم ، ووقفت مكانى ذاك أنتظر ماذا يكون بعد ذلك ...

وفتح الباب قليلا ...وأطل رجل برأسه فإذا هو مغط رأسه بقبعة مستديرة حسنة الشكل ، متأبط حذاءه ملق معطفه فوق ذراعه ، كأنما قد لبس ثيابه فى عجلة ونسى ربطة عنقه ، ولاح لى أنه شاب حسن الملامح مقسم الصفحة ، من السادات وأهل الحضر .

وكان أول خاطر دار فى خلدى أنه مندفع نحوى منقض فوقى ، ولكنه ما كاد يرانى حتى استدار وقفز السلم وراح يهبطه لايلوى على شىء .

وعدت إلى مجلسى مطمئنا ساكن الخاطر .. فقد أدركت ما كان هنالك ،وبدا لى أن الواقعة ستقلب فكهة مضحكة . وأطال رب الدار غيابا ليحضر شرابا ،

ولكنى سمعت دبة قدميه فوق السلم ، فتولتنى رغبة شديدة فى الضحك ، ورأيته يدخل حاملا زجاجتين .

قال : ألا تزال زوجتى نائمة ؟ أتراك سمعت حركتها فى هذه الحجرة المجاورة ؟

وشعرت بأن أذن امرأته لصق خرم المفتاح من فرط الرعب والقلق . فقلت : كلا لم أسمع شيئا مطلقا .

فراح ينادى مرة أخرى : بولين .. بولين ...

فلم يلق جوابا .. لقد كان السكوت مرهوبا شاملا فعاد إلىّ وهو يقول : لا أظنها تريد النهوض من فراشها لاستقبال أحد فى موهن من الليل .. قلت : ومن أين لها أن تعلم بوجود أحد معك إذا كانت نائمة ؟

قال فى شئ من الغضب : ليست نائمة ، وعلى كل حال ... فى صحتك .

وأدركت فى الحال أنه يريد أن نشرب الزجاجتين معا . فكرهت أن أقيم الليل ساهرا أشارب رجلا غريبا عنى فى حجرة موحشة كتلك ، فاكتفيت بكأس واحدة ونهضت أريد الانصراف ، فلم يحفل بمرافقتى إلى الباب إذ كان ذهنه فى شغل عنى بأمر آخر ، وهو يقول ذاهلا بين المناجاة والخطاب : سأعرف كيف أجبرها على فتح الباب عقب ذهابك . فنظرت إليه فإذا هو مغضب وإن لم يدر لغضبه سببا ، وربما كان ذلك منه شعورا خفيا أوحى إليه أن الأمور تجرى فى بيته على غير ما ينبغى أن تجرى ، وعجبت له كيف حدثنى عنها أولا حديث الحب والرفق والود ، وكيف به الساعة المحنق الغاضب ؟ بل لقد تبين لى من غضبته الصامتة أنه ناو ضربها معتزم إيذاءها ليس فى ذلك من شك ، وعاد يناديها ضاربا الباب بقوة : بولين .

فإذا صوت امرأته تقول فى لهجة امرئ أزعج فجأة من حلو نومه : ماذا تريد ؟

– ألم تسمعى حركتى عندما جئت ؟

– كلا بالله تتركنى أنام ...

– افتحى الباب

– لن افتحه حتى تكون وحدك ، إننى لا أحب أن تجىء إلى البيت برجال يسكرون معك فى هدأة الليل ! .. وتلمست طريقى إلى السلم ومضيت من البيت وقد كدت أستنفد أعواد الثقاب التى فى العلبة صاعدا وهابطا ، وفى طريقى إلى باريس رحت أعجب للدنيا وأحوالها ، والحياة وأمورها . يالله ! ..أتحت سقف بيت هذا البائع المتجول أيضا تمثل الحياة تلك المأساة الفاجعة الأبدية ، مأساة المرأة والزوج والعشيق ؟

ضلة للحياة ما أسوأ وما أسفل ! ..

البلهاء

كثيرا ما دعانى صديقى القديم الطبيب « بونيه » إلى قضاء بضعة أسابيع معه فى داره بناحية « زيوم » وكنت في الحق مشوقا من زمان طويل إلى زيارة ذلك الإقليم البديع في صميم الريف ، فأجمعت النية فى ذات صيف على قبول دعوته والمضى إلى زيارته ..

ووصل القطار بى مبكرا فوجدت الدكتور فى انتظارى على المحطة ، وكان مرتديا ثوبا قشيبا حسن التفصيل ولبس قبعة سوداء وهو يلوح أصغر بكثير من سنه الحقيقية ، وقد استقبلنى أحر استقبال ورحب بى أيما ترحاب فعل أهل الريف إذا لقوا قوما جاءوا إليهم من المدائن العامرة ممتلىء الجعب أخبارا شائقة ، ونوادر طيبة وأنباء ..

وانثنى صديقى الطبيب يشير بيده إشارة الفخار والعجب والكبرياء إلى سلسلة الجبال الرائعة القائمة حيالنا ، وهو يصيح متباهيا : ها هى ذى جبال « أوفرن » التى كنت إليها مشوقا .. !

ولما استرحت من متعبة السفر وأكلت مريئا وشربت هنيئا ، أخذنى معه لمشاهدة البلد . وكان البلد فى الواقع عجيبا ، بلد ساكن وجو هادئ ومشاهد غريبة وأقوام على الفطرة ، وما لبث الطبيب أن وقف على كثب من بيت على الطريق فاستأذن ليعود مريضا ، وسألنى أن أنتظره لحظات معدودة ..

وألفيتنى واقفا حيال دار صغيرة مظلمة قديمة أزعجنى مشهدها لأول وهلة وأنكرت شكلها المرهوب بادى الرأى ، ولكننى لما عرفت فيما بعد السر فى ذلك والسبب ، بطل ولا ريب العجب . وقد رأيت النوافذ جميعا موصدة كأنما كان أهل هذه الدار يخشون الإطلال على الدنيا ويكرهون الإشراف على مشاهد الفضاء ، بل لكأنى بهم ممنوعون من ذلك منعا ، لا يؤذن لهم فى فتح نافذة ، ولا الإطلال على الطبيعة من شرفة ..

وما كاد صديقى يخرج من تلك الدار ويوافينى فى موضعى ذاك ، حتى صارحته دهشتي ولم أكتمه ملاحظتى ، فأنشأ يقول : إن ملاحظتك هذه فى محلها ، فإن المرأة المسكينة المحتجزة فى هذا البيت ممنوعة بتاتا من الإطلال من هذه النوافذ لأنها مجنونة .. وإن لها لقصة عجبا ، ولمصابها والله تاريخ مدهش غريب . أفتريد أن أسمعكه .. ؟

فرجوت إليه أن يفعل فمضى يقول : منذ عشرين سنة كان لزبائنى الذين يقيمون فى هذا البيت طفلة مقسمة مليحة اعتيادية فى الطفلات الصغيرات ، ولكنها فى الواقع لم تكن كذلك لأن عقلها لم يأخذ فى النمو بنسبة جسمها ، فقد مشت باكرة إلى المشي وإن ظلت طويلا لا تعرف الكلام . وقد حسبتها أولا صماء ولكنى لم ألبث أن أدركت أنها تسمع الكلام ولا تفهمه ، ورأيتها تجفل مذعورة من الضوضاء وتبدو مدهوشة مبهوتة من الصيحة العنيفة وإن لم تفهم سببها أو تعرف باعثها .

وكذلك بقيت حتى ترعرعت وعادت الصبية المليحة الحسناء ، ولكن عقلها بقى على حالته الأولى فلم تنطق ولم تتكلم ، فجعلت أستعين كل حيلة ممكنة على إثارة إدراكها وتوليد حاسة التفكير فيها بيد أنها لم تكن تعرف أمها أو تميزها فى مجمع النساء عن سواها ، أو تدرك وجه الصلة بها . ويوم يعتدل الجو ويرق النسيم وتصحو السماء تبدو الفرحة المسرورة فإذا هب عاصف وهاجت الرياح وتكاثف السحاب ، جعلت تصيح مروعة وتهر هرير الكلب إذا أحس ميتا يموت أو استشعر الموت على الأبواب . وكانت تحب التمرغ على العشب فعل الجرو الصغير ، وتصفق إذا رأت خيوط الشمس نافذة إلى حجرتها من شرفتها الصغيرة ، ولم تكن تفرق بين أحد ممن حولها فلا تعرف أمها من أبيها ، ولا تميز بينى وبين الخادم فى دارهم أو الحوذى . وكنت صديقا حميما لأبويها فحزنت لها أشد الحزن ، وجعلت أكثر من زيارتهما وأغشى دارهما بالأصائل والعشى لمواساتهما. ففى ذات مساء كنت جالسا إلى العشاء معهما فلاحظت أن الصبية « برثا » — وكان ذلك هو اسمها - تفضل بعض الأطعمة على بعض ، وكانت فى ذلك العهد قد بلغت الثانية عشرة وقد فرع منها القد وامتلأ البدن واكتنز اللحم ، كمن هى

لى أن أسألك ما اسمه ؟ قال : لقد جئت لأذكره لك و أستنصحك فى أمره ، هو « جاستون دى ليسيل » . فبهت لما سمعت وكادت تفلت من فمى صيحة عجب ، غير أنى تمالكت وقلت : شئ غريب : .. لست أمانع فى تزويجها إياه فهو رجل لا بأس به . فهز الشيخ يدى شاكرا وقال : سيكون زواجها الشهر القادم بإذن الله ..

كان « جاستون دى ليسيل » شابا عريق المحتد من قوم كرام المنبت بدد ثروته وركبته الديون ، فأضحى يلتمس وسيلة يصيب بها شيئا من المال يستعين بها على الحياة ومطالبها . فلما سنحت له هذه السانحة انتهزها .

وكان جميلا ممتلىء البدن صحة وعافية وقوة ، ولم يكن ليأبى أو ليستنكف من القيام بواجبات الزوجية إذا هو أصاب عليها معاشا يكفل له الرزق ، فجعل يجيئهم ليتحبب إلى الفتاة ، والظاهر أنه فرح بها وأنها « دخلت مخه » . وأما هى فجعلت تتقبل منه باقات الأزاهر يحملها إليها ، وتسكن إلى تقبيل يديها والجلوس عند قدميها ، ولكنها مع ذلك لم تكن لتميز بينه وبين أحد سواه .

وتم الزواج .. وأترك لك أن تتصور مبلغ هياج فضولى يومذاك وشدة لهفى على ما يكون من أمرها ، وقد ذهبت عقب ليلة الزفاف بيومين لرؤيتها على أمل أن أكتشف من صفحة وجهها البوادر الأولى ليقظة إحساسها ، ولكنى وجدتها على حالها لم تتبدل مطلقا ولم تتغير ، كل همها التطلع إلى الساعة واللهف على الطعام . أما هو فكان بالعكس مغرما صبابة متماديا فى المحبة يعاكسها أبدا ويلاعبها ويهارشها ويناغشها كما يفعل الرجل منا بالهريرة لكى يتلهى بها . بيد أنى على الأيام أدركت تغيرا طفيفا فى أحوال برثا إذ لم تكتف بإفراد زوجها عن غيره ممن حولها وتمييزه عن سواه فى عينها ، بل راحت كلفة به منهومة بكلامه وابتسامه وحركاته وسكناته ، فإذا دخل عليها صفقت وأشع على وجهها ضياء غريب ، وخطف بمحياها نور عجيب ، وتراءت الهناوة على صفحتها واشتدت بها الشهوة فجعلت عيناها تتبعان ظله إذا مشى، وتدوران معه إدا دار، ولا تفارقان النظر إليه إذا جلس .. نعم والله لقد أحبته بكل قوة جسمها وروحها ، بل لقد أحبته حب الحيوان الأعجم لصاحبه حبا مختلطا بعرفان الجميل ..

وسرعان ما بدأ جاستون يملها ويتبرم بها إذ رآها قد تهالكت عليه هكذا ، فأخذ يغيب عن الدار سحابة النهار مقتصرا على الجلوس إليها خلال الليل ، وبدأت هى تحزن وتتألم ومضت ترقبه صباح مساء ، وتأبى تناول الطعام لأنه جعل يأكل خارج البيت ويختلق المعاذير للفرار . وألح عليها الحزن فأخذ لونها يشحب وبدنها المكتنز ينحف رويدا ، وهى لا تفكر فى شىء ولا فى إنسان سواه ، وهو فى كل يوم يزداد ملالا حتى انقطع عن المبيت فى الدار فكان يجئ مفجرا ولا يدخل البيت إلا مع الصبح ، فإذا جاء وجدها فى مجلسها حيث تركها منتظرة رجعاه متطلعة إلى الساعة القائمة لصق الجدار وكانت تسمع صوت حوافر جواده وهو لا يزال على مسافة بعيدة من البيت لأن كل حاسة فيها راحت متنبهة أشد التنبه فإذا رأته قادما عليها أشارت بأنملها إلى الساعة حزينة متألمة كأنما تريد أن تقول له : انظر كيف طال غيابك . وأخيرا أصبح يحشى هذه المرأة الغريبة الموحشة الحب المجنونة الغيرة وأضحى يتهيج لمرآها ، وينفر من لقائها ويلتمس الفرار منها ..

وفى ذات مساء رفع يده عليها فضربها ..

وجاءوا فى طلبى فإذا هى تصيح وتلطم وجهها وتضرب الهواء بذراعيها فى نوبة تشنجية اختلط فيها الغضب بالحزن ، وامتزج منها الحب بالكمد ... الله لأولئك المخلوقات البكم الصم الذين لا نستطيع لهم فهما ، ما أشد عذابهم وما أبلغ ألمهم وإن لم يقو ألمهم على تعبير .. !

فحقنتها بجرعة من المورفين لتهدأ ثورتها ، ومنعتها من رؤية ذلك الرجل الذى كان يعمل على قتلها ببطء وهو من الناس زوجها وشريكها فى الحياة .

وما لبثت أن جنت .. نعم والله .. لقد كان جنونها مطبقا .. فقد ظلت تنتظره نهارا وأمست ترتقب معاده ليلا وتتلهف على لقائه يوما بعد يوم .. وهى اليوم ناحلة عجفاء لا يكاد المرء يعرفها ، فقد غار خداها وعيناها ، وطفقت تروح فى حجرتها وتغدو أشبه شىء بحيوان محتبس فى قفص ... ولو أبيح لها إلى اليوم أن تطل من النافذة لذكرها ذلك به ، ولهذا منعتها وشددت على أهلها أن يمنعوها الإشراف منها على الطريق . أما أبواها فواحزناه لهما ، أحسبك تدرك من نفسك

مبلغ أساهما وسوء عيشهما بعد الذى جرى للمسكينة ..

وكنا قد بلغنا إذ ذاك رأس الرابية ، فأشار صديقى الطبيب إلى المدينة المترامية من تحتنا وقال : انظر إلى السهول الخضر الممرعة تناثرت فى جنباتها القرى الصغار ، وإلى الجبال الذاهبة فى صميم السحاب الثقال . وجعل الطبيب يصف لى تلك المشاهد الروائع مطنبا مسهبا ولكنى لم أكن ملقيا إليه سمعى ، إذ كان خاطرى فى تلك اللحظة مشغولا بأمر تلك المجنونة التى ترفرف روحها ولا ريب فوق هذا الطريق الذى نسير فيه ، وتهفو نفسها فى أثر الغائب الذى لا أوبة له .
ونظرت إلى صديقى فقلت فجأة : وماذا كان من أمر زوجها ؟

قال : يعيش اليوم بالمال الذى أخذه منهم نظير الزواج بها ، وهو سعيد بالعيش جذلان لأنه زير نساء لا ينقطع عن غزل ولا صيد ..

وعدنا أدراجنا إلى البيت صامتين واجمين ، وعلى الطريق مرت بنا عجلة « دوكار » يجرها جواد صافن يسير خببا ..

فأمسك الطبيب بذراعى وقال : ها هو ذا .. فرأيت منه طرف قبعته وقد « عوجها » على ناحية ، ولم ألمح منه غير كتفيه العريضتين إذ اختفت العجلة عنا حاملة زوج برثا المسكينة .

كفُّ الميتّ

جمعني في ذات مساء وبعض الصحاب مجلس عزاب ، وكانت السهرة لطيفة والأنس لذا ، والحديث شهيا ، فقد مضى كل منا يحكى لصاحبه كما هى عادة الشباب فى المجالس وقائع الحب التى حضرها ، ونحن جميعا بين صادق لا يروى غير الواقع والحق ، ومبالغ يبغى التهويل ويغالى فى التخريج والتأويل ، وآخرين يختلقون النوادر اختلاقا حتى لا يحرموا من لذة التحدث ومفخرة البطولة فى حومات القتال .. نفحة العشاق الذين عانوا الهجرة من ربات الدلال ، واستمتعوا من الحسان بلذات الوصال ..

وكان فينا من راحت حكاياتهم « بايخة » خلية من كل تأثير ، ومن عرفوا كيف يدخلون بالأحاديث حتى التافه منها على نفوس السامعين فأصابوا الإعجاب واستحوذوا على الأسماع ، ومن أوتوا ملكة الفكاهة وموهبة المجون فرأوا من النوادر والحكايات التى سمعوها من المعانى الخفية والمغامز الخيالية ، والمرامى البعيدة والمغازى الفريدة ما لم يخطر مطلقا ببال المتحدثين بها والمتفكهين . وفيما نحن كذلك إذ فتح باب القاعة فجأة ودخل علينا صديق من أعز أصدقائنا وهو مسرع نحونا مندفع ..

قال : احزروا من أين أنا قادم الساعة ؟ ..

فانهالت الأجوبة عليه من الحلقة متلاحقة ..

– من عند عمتك العجوز ، ذهبت إليها لتطلب قرشين « وتطب » عليها فى كم فرنك ..

– أحسبك قادما من عند الصائغ وقد مضيت إليه لترهن شيئا ..

– من عند فتاة حسناء ..

– كنت بالطبع تسكر مع أحد أصحابنا احتفالا بوصوله بعد غيبة طويلة ..

طويلة ..

ولما انتهى القوم من إلقاء تخميناتهم المتضاربة ، وأجوبتهم المتباينة ، انبرى يقول : « هيه » هل غلب حماركم ؟ أنتم جميعا مخطئون ، لأننى قادم توا من نورماندى ، وأرجوكم أن تسمحوا لى بأن أعرفكم بمجرم كبير من معارفى . ولم يكد يفوه بذلك حتى أخرج من جيبه كف ميت .

وكان منظر الكف قبيحا ترعش له الأبدان ، كف طويلة سوداء كالفحم ، متقلصة « مكرمشة » ، حادة الأظافر مدببتها ، مغضنة البشرة ، مسودة الأديم ، ناتئة العروق ، بارزة العضلات .

واستتلى محدثنا يقول : ولعلكم في لهف على حديث هذه الكف وكيف وقعت لى . فاعلموا إذن أننى اشتريتها منذ أيام فى نورماندى من مزاد أقيم هناك ، لبيع متروكات رجل غريب قضى نحبه من عهد قريب،وكان شيخا يشتغل بأمور السحر والتكهن والجان والعفاريت ، وكان من عادته أن يذهب إلى الكنيسة راكبا يد مقشة طويلة ، وقد اتخذ السحر والعرافة صنعته . وقد وجدت هذه الكف ضمن تركته فأخذتها ، والظاهر أنها كف رجل كان مشهورا فى القرن السابع عشر بالإجرام ، وشنق قصاصا على جناياته الكثيرة ومن بينها قتل زوجته الشرعية والقسيس الذى عقد له عليها . فأما الزوجة فقد ألقى بها في بئر عميقة « زرع بصل » – وأحسبكم لا تلومونه على شيء كهذا – وتقولون أيها العزاب الملاعين لقد أحسن والله فيما فعل – وأما القسيس فقد شنقه بين عمودين من عمدان الكنيسة ، وقد رحل عقب هاتين الجريمتين من البلد يبغى الطواف بالأرض ويريد اللهو والملذات التى من هذه الأنواع و « العينات » ، وقد وجد ضالته وأصاب بغيته لأنه لم يلبث أن هبط ديرا للرهبان فاحتله ، وجمع أصحابه فأحرقهم فى ركيات من النيران . ونزل بعد ذلك ديرا آخر للراهبات العابدات فجعله كبيت للمحاظى والسرايا ، واعتدى على عفاف المسكينات وأحالهن جوارى ومحظيات ..

ولما انتهى صاحبنا من هذه الحكاية سألناه قائلين : وماذا تنوى أن تفعل بهذه الكف ، قال أنا ناو أعلقها فوق سقاطة باب بيتى لتخويف الدائنين وتطفيش اليهود المرابين ، لأنهم – كما تعرفون – أكثر الناس ترددا على منزلى ..

قلنا : وماذا تفعل بنا نحن ؟ ..

قال : لقد جئتكم الساعة لأعطيكم خبرا بهذا حتى تعلموا أننى لست أقصد تخويفكم أنتم ، لأن البيت بيتكم وأنتم المكرمون . وإذ ذاك انبرى ظريف فينا فقال : إننى أعتقد أن هذه الكف قطعة من اللحم البارد ، أو القديد المحمر ، فأحسن شيءتصنعه بها هو أن تأكلها ..

فقال طالب طب فى الحلقة ، وهو من الهنود القادمين لطلب العلم ، وكان السكر قد لعب برأسه : لا تمزحوا فى مسألة كهذه ، بل يحسن أن تدفن هذه الكف دفنة شرعية ، ونقيم لدفنها الطقوس والشعائر الدينية ، ولا تنس قول القائلين : تموت الراقصة ولا يزال كعبها يرقص . من يدرى ؟ . فلربما تتحرك هذه الكف لتقتل ..

واتفق لى فى غداة اليوم التالى أن مررت بدار صديقى فعرجت عليه لزيارته ، فإذا هو يقرأ فى كتاب ويدخن ، فسألته ضاحكا عما كان من أمر كف الميت ؟ قال : عجيبة ! ألم تشهدها معلقة على الباب عند دخولك ؟ فقد علقتها عقب وصولى ليلة أمس ، ويظهر أن واحدا من أصحابنا الذين كانوا معنا فى جلسة البارحة قد جاء ليمزح معى بطريقة مزعجة ، وفصل غير لطيف بالمرة ، لأنه حضر فى منتصف الليل ودق الباب وكنت قد أويت إلى فراشى ، فاضطررت إلى النهوض من الدفء لأرى من الطارق ، ولكننى لم أجد أحدا وعدت إلى مضجعى وأخذنى النوم بعد قليل .

ولم يكد صديقى ينتهى من حكايته هذه حتى دق الباب ، فإذا القادم هو صاحب الملك وكان هذا المالك رجلا وقحا فظا ، فلم يسلم على أحد عند دخوله وإنما ابتدر صديقى بقوله : اسمع يا مسيو ، من فضلك أزل هذه الكف البشعة التى وضعتها فوق باب السكة ، وإلا فستضطرنى إلى طلب الإخلاء ..

ودار المالك على عقبيه وغادر الحجرة غير مسلم ولا مودع ، وهز صديقى « بيير » كتفيه وقد أدرك أن لا حيلة أمامه غير الإذعان فقام إلى الباب فنزع الكف عنه وراح يعلقها فوق الجرس القائم بجانب سريره . وجلست إليه ساعة وانصرفت إلى دارى ، وفى الليلة التالية لم أسترح فى نومى ، بل ترادفت على خلاله الأحلام

المخيفة وتناوبتني الرؤى المزعجة ، وهو أمر قلما يعتريني في سباتي ، وبدا لي في لحظة ما أنني قد لمحت رجلا يدخل على حجرتي ، وخلت الأمر حقيقة « لاشك فيها » فقمت من فراشي ودرت في جوانب الحجرة باحثا ، ولم أدع شيئا في الغرفة إلا فتشته ، حتى دواليب الثياب وصواوين المتاع ، وأخيرا وعلى مطالع الضياء أخذ الكرى يدب إلى أجفاني ، وإذا بدق عنيف بالباب جعلني أقفز من فراشي مجفلا منزعجا ..

وفتحت الباب فرأيت حيالي خادمي شاحب اللون راعش البدن ، قال : سيدي ، لقد سمعت الساعة نبأ أليما .. وتردد فلم يستتم ، ولكنه لم ين أن عاد يقول : لقد علمت أن صديقك العزيز مسيو « بيير » قتل الليلة . فرعت للنبأ وارتديت ثيابي في عجلة وهرعت أطلب دار صديقي ، فإذا هي غاصة بالناس وهم في هرج ومرج يتحدثون في أمر هذا الحادث المزعج ، فجعلت اخترق الصفوف حتى بلغت بعد جهد مضجعه ، فإذا حراس من الشرطة وقوف حوله ، ولكني أبرزت لهم بطاقتي فسمحوا لي بالدنو منه ، ورأيت طبيبين واقفين بجانب السرير يتحادثان في همس ، وشهدت « بيير » راقدا غائب الصواب ولم يكن مات وإن كان مشهده أسوأ في الحق وأرهب .. لقد جحظت عيناه ، وشرد ناظره ، واشتدت حملقته ، كأنما ينظر إلى شيء مخيف هائل ، وقد تقبضت يداه وتغطى بدنه إلى حذاء ذقنه بغطاء أسود ، فدنوت منه فرفعت الغطاء ..

فماذا تحسبونني رأيت في تلك اللحظة . ؟ رأيت آثار خمس أصابع انغرزت في لحمه ، ولمحت بقعا من الدم قد لطخت قميصه ، وإذ ذاك سرت إلى خاطري فكرة فجائية كان حتما أن تدور على هذا المشهد الفظيع في خلدي .. لقد رفعت بصري إلى الجرس ..يا للعجب ..لم أر الكف المخيفة حيث تركتها ، لقد اختفت ، ولكني عدت أقول لنفسي : لعل القوم قد أزالوها من موضعها حتى لا يزعج منظرها الزائرين ، ولا سيما الزائرات . ولم أر حاجة بي إلى السؤال عما كان من أمرها .

وصدرت صحف النهار فإذا هي تحوى هذا الخبر :

وقع ليلة أمس حادث اغتيال كاد مسيو بيير .. يذهب ضحيته ، والمجنى عليه

طالب حقوق ومن أسرة نورماندية عريقة المحتد ، وتفصيل الخبر أن مسيو « بيير » عاد إلى منزله فى الساعة الواحدة بعد نصف الليل فصرف خادمه قائلا إنه يشعر بتعب ويريد أن يأوى حالا إلى فراشه ، ولكن لم تمض ساعة أو نحوها حتى انزعج الخادم من نومه على دق عنيف فإذا جرس يدوى فى أرجاء البيت . فحمل الشمعة ووقف ينصت ، وقد أكد الخادم فى التحقيق أن الصوت الذى طرق سمعه كان مخيفا شنيعا فلم يسعه غير الجرى إلى السلم والاستغاثة بالبواب ، وقد هرع هذا لإبلاغ الشرطة الخبر فجاءوا سراعا وفتحوا باب الحجرة عنوة ، فإذا هم حيال مشهد فظيع مؤلم .. لقد رأوا المقاعد والأمتعة ملقاة على الأرض والحجرة مضطربة النظام غريبة المنظر ، كأن عراكا عنيفا انتشب بين الشاب والمتسلل له ، وشهدوا الفتى طريحا على البساط فاقد الشعور وحول رقبته آثار أصابع خمس . وقد استدعى الطبيب « بوردو » لفحصه وقد شهد فى التحقيق بأن الجانى لا بد أن يكون جبارا قوى البدن شديد الأسر ، وأن يده ولا ريب ناتئة العصل ونحيلة الأنامل حادة الأظافر ، لأنها انغرزت فى رقبة المجنى عليه فتركت آثارا ظاهرة فيها . ولم يهتد المحققون بعد إلى حل سر هذه الجناية الغامضة أو السبب المباشر لها .. ولكنهم جادون فى البحث ..

وفى العدد التالى من الصحيفة ذاتها التى نشرت ذلك التفصيل ، ظهر الخبر الآتى :

لقد ثاب مسيو بيير .. المجنى عليه فى الحادثة التى بسطناها أمس للقراء إلى رشده .. وقد قرر الأطباء أن الخطر قد زال ، وإن كانوا يخشون عليه الجنون المطبق . ولم يكشف التحقيق إلى الآن عن سر الجريمة .

وقد علمت عقب قراءة هذا الخبر أن صديقى المسكين قد جن حقيقة واحتاج الأمر إلى نقله إلى مستشفى المجاذيب ، وجعلت بين حين وآخر أذهب لعيادته ولكن الجنون أطبق عليه فلم يبق أمل فى شفائه ..وكان يفوه بكلمات غريبة فى أثناء نوباته ، وقد استقرت فى ذهنه فكرة ثابتة لا تتغير كدأب المجانين جميعا وعادتهم ، وكانت الفكرة الملحة عليه هى أنه يرى عفريتا يطارده فى كل مكان ..

وفى ذات يوم جاءنى نبأ عاجل يستدعينى إليه ، فلما دخلت عليه كان فى

محضر المنون ، وقد لبث ساكنا ساعة أو بعضها لا يتحرك ولا يتكلم ، ولكنه على حين فجأة ، وقبل أن ننتبه إليه راح يقفز من فراشه ناشرا ذراعيه فى الهواء كمن يتقى ضربة توشك أن تهوى عليه ، وهو يصيح : أبعدوها عنى ... أبعدوها عنى .. إنها تخنقنى .. البدار .. البدار ..

وأعددت له معدات الجنازة ونقلته إلى مسقط رأسه فى نورماندى ليدفن فى مقابر آبائه ، ولما حل اليوم المعين لدفنه مشيت بجانب القسيس الذى أدبه فى صباه نريد المقبرة ، وكان الجو رائقا والسماء زرقاء الأديم ، والأطيار تتغنى على الأيك . وقد تصورت فى تلك اللحظة أن صديقى العزيز رفيق الشباب وأخا الحداثة لن يلبث أن يطلع على طافرا واثبا لترحاب وعناق ، ولكن وا أسفاه .. تصور ووهم ، ومن يأخذ الموت لا يرد .. ووقف القسيس يتمتم بأدعيته واللحادون يضربون الأرض بمعاولهم ، ومالبث كبيرهم أن دعانا إليه فى لهفة ، فمشينا إلى القبر وإذا بهم قد عثروا على صندوق هناك وقد أصابت المعاول غطاءه فانفتح ودنونا من التابوت فإذا هيكل عظمى مسجى فيه ، وقد خيل إلينا أن محجريه الغائرين لا يزلان يخطفان بنور ، ويشعان ببريق نظر ، فمسنا من هذا المشهد قشعريرة ، وعرانا منه خوف شديد ، وانبرى اللحاد يقول : انظر ، إن إحدى كفيه مقطوعة من المعصم ، ألا تريان ؟ وانحنى اللحاد فالتقط يدا مشوهة الأنامل فقدمها إلينا ، وسمعت رجلا من الحاضرين يقول لى : « حذار يا سيدى ، ليخيل إلى كل من ينظر إلى وجه هذا الميت أنه يهم بالوثوب إلى عنق الواقف أمامه مطالبا برد يده .

والتفت القسيس إلى اللحادين فقال : سووا على قبر مسيو بيير. واحفروا لهذا المسكين غيره .

وفى غداة اليوم التالى غادرت نورماندى عائدا إلى باريس .. ولكننى لم أغادر القرية حتى أعطيت القسيس خمسين فرنكا للصلاة على روح الميت المعذب فى قبره !

زواج سرشقي

ظل « ليمونييه » بعد وفاة روجته أرمل وأبا لولد واحد ، ولم يفكر فى الزواج لأنه كان يحب تلك المرأة حب العشق اختلط بحنان .. وحب الغرام امتزج بخيال وهيام ، وقضى معها مدة حياتها مخلصا وفيا ، لم يفتر حبه مرة ولا خمد له ضرام ، فقد كان « ليمونييه » رجلا طيبا حنونا حسن النية صادق العاطفة ، لا يقدر على شر ولا يمشى إلى ريبة . ولكنه فى ذات يوم لم يملك فؤاده فى ساعة من ساعات النسيان ، لأنه مثلى ومثلك إنسان فوقع فى الحب مرة ثانية ، واشتد به الكلف بامرأة من سكان الحى لم تكن الغنية فى أهلها ، ولا هى بربة الحسب والجاة ، فعرض عليها فكرة الزواج فتقبلت راضية .

وكان له متجر مناسب يجيئه بدخل مناسب ، وهو من الحياة فى رغد ومن الرزق فى بسطة ، ولم يدر لحظة فى خلده أن هذه المرأة يجوز أن تكون رضيت به طمعا فيه ، بل كان اعتقاده أنها تقبلته قبول رضى وحب لا لغرض آخر أو مأرب .

ووجد فى الزواج هناءة ونعم منها بالسعادة ، فلم يعد يرى فى الدنيا حواء مثلها أو يفكر فى سواها ، فإذا جلس إليها لم تفارق عيناه عينيها ، ولم يكف عن التطلع إليها فى خشوع العابد وقنوت المؤمن المسبح بحمد ربه . وكان من قبل سريعا فى أكله غير مترفق فى تناول طعامه ، ولكنه عاد اليوم ينثنى عنه إلى النظر إليها ، ويهمل الصحاف ليجلو العين من صفحتها ، ويسرح بالخاطر فى تأمل حسنها . ولقد بلغ من شدة ذهوله ، إنه كان يصب النبيذ فى آنية الحساء ، ويسكب على الملح الماء ، فإذا انتبه من ذهلته وأدرك ذهنه ما فعلت يده ، ضحك ضحكة الصبى المستحيى من هفوته ، الخجلان من غلطته ، ومضى يقول : ها أنت ترين أننى أحبك حبا مذهلا يذهب باللب .. لقد أخذت منى قلبى فلم

أعد أنتبه إلى ما تفعل يداى ..

وكانت هى تبتسم له وتتقبل هذا الاعتراف البديع منه ، وترضى عن هذا المديح لها ، وكثيرا ما كانت تلوح ساكنة مستسلمةِ إلى سخفه هذا وتدلهه ، وإن كانت فى أعماق نفسها متململة متذمرة منه ، ولكنها فى بعض الأحيان تشيح بعينيها عنه كأنما قد أربكها بطول النظر إليها ، وتروح تقول له : ألا تتكلم ! . بالله عليك قل شيئا .. ألا تمل من طول النظر هكذا .. إننى .. إننى .. ثم تمسك ، ولكنه لا يحير جوابا ، وإنما يمد يده من تحت المائدة فيمسك بيدها ويضغط بركبتيه ركبتيها ، وينثنى يقول لها مرارا وتكرارا : ما أشد حبى لك ! وما أعظم غرامى ! .

وعلى هذه الحال لبث طويلا فجعلت تمل من هذه الحركات ، وتتألم لهذه التأملات والسرحات فكانت كلما جلسا إلى الطعام تنثنى تقول : يا شيخ كل وخليك عاقل .. بالله عليك تأكل واتركنى آكل حتى ننفض من هذه الجلسة التى طالت .

فكان كلما قالت ذلك يزفر زفرات حارة ، ويضع اللقمة فى فمه ويطيل مضغها وهى لاتكاد تنزل من زوره .

وأقاما خمسة أعوام ولم يثمر الزواج ثمرته ، ولكنها فى ذات يوم بعد هذه المدة الطويلة كاشفته بأنها قد أحست حملا ، فما كاد يسمع هذا النبأ حتى جن من الفرح ولم يعد يفارقها خلال مدة الحمل لحظة واحدة ، وكان عنده خادم عجوز كانت تخدم فى بيت أبيه قبل مولده فكانت لها مكانة محترمة عنده ، فجعلت العجوز كلما رأته على هذه الصورة قعيد البيت لا يفكر فى الخروج ، تمسك بذراعه فتمشى به إلى باب المنزل وتدفعه إلى الطريق قائلة : يا بنى اذهب ألن رجليك قليلا وانشق الهواء فقد أطلت الحبسة فى البيت ، وأخشى عليك أن تمرض من طول القعدة وعواقب هذا الاحتجاز الأليم .

وكان أكرم أصدقائه عليه شابا يعرف امرأته من عهد طفولتها ، وهو موظف فى « المحافظة » وكان يدعى « دورتور » . وقد اعتاد أن يزور الزوجين ثلاث مرات فى الأسبوع ليتناول العشاء معهما ، وكثيرا ما جاء بباقات الأزاهر للزوجة أو بتذاكر ألواج وبناوير فى « التياترو » وكان « ليمونييه » يقول لامرأته والثلاثة

جلوس إلى العشاء وهو متأثر متحمس : ما أسعد الحياة مع زوج مثلك وصديق مثله ! حسب المرء هذا من دنياه وكفى .. !

وماتت الزوجة يوم وضعت حملها ، وكاد يموت هو أيضا من شدة الصدمة ووقع المصاب ، لولا أن تشجع بمنظر الوليد ورأى فيه أثرا باقيا منها .

وأخذ يولى الوليد كل الحب ولكنه حب مزيج أبدا بذلك الشغف الذى كان يشعر به لأمه ، فكان يطيل النظر إليه ويتفانى فيه ، ويفكر أبدا لأجله ويصمم لمستقبله ، غير أن ذلك الحب الشديد لم يكن يخلو من مرارة الذكرى . إن ذلك الطفل كلف أمه حياتها واستلبه أعوام الهناء التى نعم بها في جوارها . وكأنها من يوم حملته إلى حين وضعته راح يمتص حياتها ويحيا فى أحشائها لموتها .

وكلما تذكر « ليمونييه » ذلك وهو جالس بجانب مهد الوليد راح يطيل النظر إليه ، ويظل كذلك الساعات الطوال متأملا وجهه مفكرا واجما حزينا ساهما ، فإذا قام الطفل أكب على وجهه الدقيق وترك للدمع فيضه . وعلى الأيام نما الطفل وترعرع ولم يعد أبوه يستطيع الابتعاد ساعة أو أكثر عنه . بل جعل يجلس إليه ويتحدث معه ويخرج إلى النزهة به ويلاعبه ويضاحكه ويلبسه ويهيئه ويؤكله ويشربه .

وكان صديقه يشاركه هذه المحبة العظيمة للطفل ، حتى لقد جعل فى بعض الأحيان يقبل وجنة الصغير قبلة مفرطة فى الحنان كأنها قبلات الوالدة ، ويحمله بين يديه « فيهشكه » أو يهزه فوق ركبتيه طويلا ، بينما يجلس « ليمونييه » ينظر إليه مسرورا وهو يردد قوله : ألا تراه جميلا ! بالله عليك أليس هو فاتنا ؟ إنه فى الحق ولد لطيف للغاية .. فكان صديقه كلما سمع ذلك احتضن الصغير احتضانة حارة وراح يلاعب خده الناعم بطرف شاربه الخشن .

ولكن العجيب أن الخادم العجوز من دون خلق الله كانت تستثقل الطفل ولا توليه أقل حب . تصمت إذا سمعت الناس يمدحونه وتجم كلما ابتسموا له ، وتغضب منه كلما لعب أو « تشاقى » . وإذا رأت الرجلين مكثرين من تدليله مطيلين التغنى بمديح مزاياه ، مضت تصيح بهما قائلة : « والله ما أحد يفسده إلا أنتما .. ما هذه التربية الناقصة ؟ إنه سيطلع قردا شقيا ولن يكون مؤدبا

ذكيا .. »

ومرت الأعوام وبلغ « جان » التاسعة ، وقد عاش على الدلال فلم يكن يستطيع فك الخط ولا قراءة سطر واحد على صحته ، وقد أصبح غضوبا نافرا إذا لم يجب إلى ما طلب لوى « بوزه » وأعرض وغضب ، وكان أكثر الأوقات مريضا من كثرة الأكل شحيما لحيما من الغذاء الدسم والإفراط فى النوم ، وكانت تنوبه نوبات غضب وتشنج إذا عورض فى شىء ما ، فإذا انتابته هاج ولطم وبكى وصاح وملأ البيت صراخا وضوضاء .

وكان أبوه مستسلما لمشيئته نازلا على أحكامه . واعتاد صديق أبيه أن يقتنى له اللعب النفيسة ويجىء إليه بكل ما يستحسنه له . وقد نصح الأطباء لأبيه أن يمنعه كثرة الأكل ويصونه بالحمية ، فقصروا طعامه يومئذ على الكعك و « الملبس » حتى نحف وذهب الشحم عنه .

ولم تستطع العجوز يوما أن تسكت عما ترى من تدليل والده ، فقالت مغضبة مئة مرة : « هذا شئ مفسد » ونظام سئ للغاية ياسيدى . ألا ترى أنك بهذا تضره ولا تنفعه ؟ إن الإفراط فى الحنان مضرة للبنين ، فخير له ولك أن تكف عن هذا « الدلع المرىء » ومن الآن لن أتركك يا سيدى تتمادى فى إفساد الولد أكثر مما أفسدت .

ولكن سيدها ابتسم وأجاب قائلا : هذا شىء فوق طاقتى لأنى أحبه ، هذه كل الحكاية ولا حيلة لى عليه فخير لك ولنا أن تروضى نفسك على اعتياد ذلك فيروق دمك ، ولا تعودين تغضبين كل هذا الغضب ..

ومرض جان يوما فلما فحصه الطبيب قال : يشكو الفقر من الدم . ووصف له شرابا مركبا من الحديد ، وأوصى بأن يعطى حساء دسما ولحما نصف شواء » ولكن الصبى كان قد تعود أكل الكعك فأبى إلا ملازمة أكله ولم يتقبل سواه ، فلم يكن من أبيه أن إلا يحشو له معدته بالبسطة والقشطة والكنافة والشكولاته ! ففى ذات مساء وهما جالسان إلى المائدة معا جاءت العجوز بحساء طيب فاخر وهى عابسة كاشرة على غير عادتها أوان طعام وفى وقت الخدمة ، فكشفت عن الحساء ومضت تقول : إن الحساء اليوم أبدع ما صنعت فى حياتى ، ولابد

لولدك من أن يأخذ قليلا منه .

ورأى « ليمونييه » العين الحمراء » من العجوز الغاشمة ، فانزوى خوفا ونكس طرفه وأدرك أن المسألة دخلت في دور جد وأوشكت أن تحدث أزمة خطيرة ، وتناولت هى صحيفته فملأتها حساء ووضعتها أمامه فذاقها وقال : فى الواقع إنه لحساء فاخر .

وتقدمت العجوز فتناولت وعاء صغيرا فسكبت فيه قليلا من الحساء للصبى ، وتراجعت تحت المائدة ووقفت تنتظر حتى يشرب . ولكن « جان » راح ينظر إلى الحساء مليا ، ثم ما لبث أن دفع الوعاء عنه ومط شفتيه كراهة واشمئزازا . ورأت العجوز ذلك منه فعلا وجهها الغضب وهرولت إليه فأمسكت بالملعقة فملأتها حساء ، ومضت تجرعه إياه بالقوة ولم تتركه حتى أنزلت الحساء إلى حلقه .

فأخذ الصبى يسعل ويعطس ويبصق ويصرخ ، ثم أمسك بكوبته فرمى بها وجه العجوز انتقاما . وحاولت هى أن تخلو من طريق الكوبة المطوحة فلم تتمكن لأن الرمية جاءت مباغته فأصابتها . وفى الحال جن جنونها فأسرعت نحوه فوضعت رأسه تحت إبطها وراحت تصب الحساء ملاعق متوالية فى فمه ، وهو يحاول التملص فلا يستطيع وقد علا صياحه وتحشرج صوته وجعل يضرب الهواء بقبضتى كفيه ، واحمر وجهه فى مثل حمرة عرف الديك الرومى كأن يدا قد قبضت مخنقه .

وظل أبوه فى مجلسه مبهوتا بادى الرأى لا يتحرك من مكانه ، ولكنه لم يلبث فجأة أن قام كالمجنون فهجم على العجوز ثائرا محنقا فأمسك بعنقها ودفعها دفعة عنيفة ردها إلى الجدار وهو يلهث من شدة الغضب ، ويزفر ويختنق ،ويردد قوله فى ذبحة المخنوق : اخرجى من هنا ..اخرجى من بيتى .. لا أريدك فى خدمتى أيتها المتوحشة المفترسة !

ولكن العجوز كانت من نساء القرى ، وهى لا تزال على تقدم سنها قوية العود متينة البناء كأنها رجل شديد الأسر ، ومثلها يضرب عشرة رجال « فى بعض » . فتقدمت إليه وجعلت تهره بعنف هزة القط للفارة وقد انتفش شعرها

وانعقدت أربطة مبذلتها ، وانثنت تصرخ فى وجهه والشرر يتطاير من عينيها : ماذا جرى لك ؟ هل جننت فى عقلك ؟ أترفع يدك على وتريد ضربى وأنا أكبر من أمك لأننى أردت أن أسقى هذا الطفل ملئ ملاعق من الحساء ؟ أتهم بضربى لأننى أريد أن أغذيه وأنقذه من شر الأمراض على حياته ؟ إنك قاتل بتدليلك مفسده بتهاونك !

ولكن الوالد مضى يكرر قوله وهو يرعش من فرعه إلى قدمه : اخرجى من هنا .. اخرجى من هنا ... . أيتها المتوحشة ! وإذ ذاك جن جنون العجوز من هذا الحكم القاسى والكلمة المؤلمة ، فدارت على عقبيها ثم تولت إليه بوجهها فمشت نحوه ووقفت قبالته وأطالت النظر إليه ، وأنشأت تقول بصوت متهدج يرعش من غضب ويتحشرج من دمع مكتوم : أهكذا تعاملنى أنا . ؟ أهكذا ما أستحقه منك ؟ . ما شاء الله ..أأنا التى ربيتك وخدمتك العمر كله .. أجازى اليوم منك هذا الجزاء ..من أجل هذا الطفل . ؟ نعم هذا الطفل الملعون .. هذه الثمرة الأثيمة الفاسدة ..ولو كان طفلك لهان الأمر .. ولكنه ليس بطفلك .. نعم ليس بطفلك .. ألا تسمع ما أقول ؟ . لقد ربيت ولدا زنيما لم يأت من ظهرك .. فدللت صبيا غريبا عنك . يا سبحان الله .. أكل الدنيا قد عرفت هذه الحقيقة إلا أنت فلم تسمع بها ؟ .سل البدال .. سل اللبان .. سل الجزار .. سل جميع أهل الحى .. كلهم يعرفون .. وأنت وحدك لا تعرف .

واختنق صوتها .. وتقطعت أنفاسها ووقفت ترتعش متشنجة ...

لقد تألمت هى كذلك .. نعم لقد آلمها أن تكون هى دون سواها التى تضربه هذه الضربة القاضية ، ولكنه الملوم لأنه هو الذى حملها على قول ما قالت .

ووقفت مكانها تتأمله ..

وجمد هو فى موضعه لا يتحرك وقد شحب وجهه ووضع يديه فى خاصرتيه ..

وساد سكون ..

قال بعد صمتة مستطيلة وقد رعش صوته وتشنجت أطرافه : ماذا تقولين .. ماذا تقولين .. ما هذا الخبر العجيب ؟

ولكنها وقفت لاتتكلم وقد أخافها مشهده ، وظل هو يردد سؤاله كطفل حديث العهد بالكلام لا يعرف غير ألفاظ محدودة وقد ترك وحده فى ظلام دامس .. ومالبث غضبها أن عاد شفقة متناهية ، فهدأت من حدتها وسكنت من نبرات صوتها الراعش ، وعادت تقول : لقد قلت لك كل ما أعرف بل كل ما يعرفه الناس جميعا ، ولو لم تستثر غضبي وتخرجنى عن رشدى لكتمت الخبر عنك حتى أموت به .. فلا أراك متألما هذا الألم البادى عليك ..

ولم تستتم .. لأنه انقلب فى تلك اللحظة مجنونا لا يعى ما هو فاعل ، فرفع ذراعيه فارتمى فوقها كأنما يريد أن يجندلها مكانها . ولكنها أفلتت منه هاربة وقد عاودها الغضب ممتزجا بالاحتقار له والسخرية من رجل لا يريد أن يعتقد ويأبى إلا مغالطة نفسه حتى النهاية ، ومضت تصيح به قائلة : أيها المجنون ، أيها الأبله الضعيف .. إذا لم تصدق ما قلت فانظر إليه .. انظر إلى وجهه ألا يشبه وجه صديقك العزيز ؟ ألا تراه صورة مصغرة من « ديرتور » ؟ . تأمل عينيه وشعره وجبينه ، إنه لا يشبهك فى شىء من هذا مطلقا .. الناس كلهم يعرفون وأنت فى غفلة لا تدرى شيئا .. سل الجيران جميعا لكى تتيقن أنك كنت ضحكة الحى كل هذه السنين الماضيات وأنت لا تعلم ! .

ومشت إلى الباب منصرفة ومالبثت اختفت ..

أما الطفل فمن فرط الرعب والدهشة ظل جامدا فى مقعده ينظر إلى طبق الحساء الموضوع أمامه .

ومضت ساعة من الزمن فتسللت العجوز راجعة لترى ماذا جرى ، فإذا الطفل قد التهم الفطائر كلها وأفرغ إبريق اللبن فى جوفه وأجهز على طبق الحلوى ، ولا يزال يأكل من علبة المربى بملعقة الحساء .

وأما أبوه فلم يكن حيث تركته .. فتناولته العجوز بين ذراعيها وأهوت على خديه تقبيلا ، ثم احتملته فى رفق فأسرعت به إلى حجرتها وأرقدته فى سريره . ونزلت بعد لحظة إلى قاعة الطعام فرفعت الصحاف عن الخوان ونظفت الأوانى وانتظرت طويلا .

وخيم السكوت على البيت ، فمشت إلى غرفة سيدها فأنصتت ولكنها لم

تسمع شيئا . فنظرت من خصاص الباب فإذا هو جالس إلى المضدة يكتب فى سكون وهدوء ورباطة جأش ، فعادت إلى المطبخ فجلست مستعدة للطوارئ إذ أدركت أن حادثا ولا ريب واقع ، وأمرا لا محالة محتوم .

وضرب الله على أذنها فنامت فى مقعدها ، ولم تستيقظ إلا مع مطلع الصبح فنهضت لتؤدى أعمالها ولكنها لم تجسر على الذهاب إليه مخافة أن يلقاها اسوأ لقاء .

فانتظرت حتى يدق الجرس لها .

ولكنه لم يدق ..

وإنما دقت التاسعة ولم يفعل ثم العاشرة ! وإذ ذاك أخذ الخوف يعروها ، فحملت الصينية وصعدت إلى غرفته وهى خافقة الفؤاد ..

ووقفت بالباب تتسمع وتتنصت ..

ثم دقت .. فلم تتلق جوابا ، فتشجعت وفتحت الباب ودخلت ..

ولم تكد تخطو فى الحجرة حتى أفلتت من بين شفتيها صرخة رعب لا يوصف ، وسقطت الصينية من يدها فتحطمت ..

لقد رأت « ليمونييه » معلقا يتدلى من حلقة مثبتة فى سقف الحجرة وجثته تترنح وتهتز وقد تدلى لسانه ، وسقط النعل من رجليه ، وقد انقلب المقعد تحت قدميه ..

فهرعت العجوز هاربة مولولة ، وجاء الجيران على الولولة مسرعين ، وقرر الطبيب أن الموت وقع حوالى نصف الليل ، وقد وجدوا على منضدة كتابا إلى صديقه العزيز ، ولم يكن الكتاب يحوى غير هذه الكلمات « أترك لك هذا الطفل فأحسن إليه .. »

نادى الانتحار

كان منزلى يطل على عدوة النهر ، وكنت كثيرا ما أنهض فى البكور فأشهد النهر ساكن الأمواه مستطيلا كأنه شريط مفضض حليت حواشيه بإستبرق، وكأنه حذاء الضفاف طريق شجر ظلله الدوح ، وتهاوت عليه أغصان مشتبكة وأفنان متحاضنة معتنقة ، فكانت الدار أشبه شيء بقصر مسحور تخدمه بنات البحر وجنيات الماء ، وكنت كلما شهدت ذلك المنظر البديع كل صبح وفى مبتكر النهار ، أحس نشاطا عجيبا للحياة ، وفرحا غريبا بالدنيا ، وأشعر بآمال متجددة ، وأتخيل الحب البهيج المتدفق الهائم يرعش ويجف خلال الأفنان ، ويسرى على صفحة النهر يسبح فوق رقعة الماء المصطفق ..

ففى ذات صباح تناولت الرسائل التى جاءنى بها البريد ، والصحيفة اليومية التى اعتدت قراءتها ، وخرجت من الدار ألتمس شاطىء النهر لأتلهى بالمطالعة .

ولمحت عيناى فى الرسالة الأولى التى فضضتها هذه الكلمات « إحصاء لعدد حوادث الانتحار فى العام الماضى » ..

فأخذت أتلوه فى دهشة . لقد بلغ عدد المنتحرين خلال ذلك العام قرابة تسعة آلاف نسمة .. ؟

وما لبث خاطرى أن مضى يتخيل صورهم ، فخلتنى أشهد دماء تقطر ، وجماجم مهشمة تتناثر ، وصدورا اخترقها الرصاص ، وجسوما طريحة على الثرى ترعش من فرط الألم ، وتعالج سكرات الموت .. بل خيل لى أنى أرى حيالى أوردة مقطوعة ، وأعناقا مخنوقة ، وبطونا مبقورة ، وأمعاء متدلية ، وأحشاء متساقطة .. بل ها هو ذا رجل منهم لا يزال ممسكا بالموسى يهم بالإقدام على الموت .. وهذا آخر يذيب شيئا فى قدح من زجاجة قد لصقت بها ورقة حمراء .. وقد وقف ينظر إليها مليا لا يبالى بها ولا بالذى فيها ، ثم ما لبث أن رفع القدح إلى شفتيه فاشتف ما فيه اشتفافا وجمد مكانه ينتظر المفعول ويرتقب الخاتمة ..

وما هى إلا لحظات قليلة حتى أخذت معارف وجهه تتقلص وترجف .. يا الله .. لم يكن ذلك المسكين يحسب أنه سيعانى كل ذلك الألم ؟ ، والعذاب الشديد الموجع ، من تلك الرشفات السريعة قبل أن يحين الأجل ، وتجىءالخاتمة ..

وتراءت أمامى أشباح قوم آخرين قد تسلقوا السلم وراحوا يعلقون الحبال ويشبكونها ، ويدقون المسامير لتنفذ فى الجدار ، وفريقا ثالثا قد شنقوا أنفسهم على الشجر فى يوم مطير وجو غائم مكفهر ، وكذلك مرت تلك المشاهد كلها بخاطرى فجعلت أسائل نفسى : ما سر ذلك كله ؟ وانثنيت أفكر فى مختلف البواعث والأسباب التى حملت أولئك القوم على احتقار أعز مايحرص الناس عليه ، وأغلى ما يتعلقون به ، وأنفس ما يخافون ذهابه .. وهو الحياة ..

هنالك تصورت مواجع قلوبهم ، وتمثلت حزن شقائهم بين أمهات وأيامى عضتهن الفاقة بأنيابها الحداد ، وفلذات أكبادهن وصغار لهن جياع خماص ، وفتيات سلبهن العفاف لصوص فجرة مجرمون ، فسلبوهن بذلك أشرف ما عندهن ، وتحطمت كأس هنائهن ، وتكشف لهن الحب فإذا هو خيبة وعار ، ومذلة فى الناس ، وشنار لهن فى عين الدنيا سخرية واحتقار ..

وخيل إلىّ كذلك أنى ألمح حيالى أنفسا بائسة قد وقفت تريد الوثوب إلى الماء المتجمد الأسود فى فحمة الليل . ها هى الساعة قد دقت واللحظة الرهيبة قد حانت ، وإذا نفس مسكينة محزونة قد ذهبت واحتواها الماء فى سكتة الليل . وها أنذا ألمح أشباحا من أولئك يجاهدون فى اللحظة الأخيرة للحياة ، وقد نسوا عزمتهم وعادتهم الرغبة فى الدنيا فراحوا يلتمسون النجاة من اليم ، وهأنذا أشهد آخرين قد ربطوا الحجارة حول سوقهم قبل الوثبة إلى النهر حتى لا تكون نجاة ولا يكون طمع فى الحياة . واها لكم أيها المساكين ، واها لكم .. لقد شعرت فى أعماق جنانى بآلامكم حتى لقد كدت من فرط الكمد أختنق ، وكاد قلبى من شدة الخفقان يقف عن ضرباته .. إى والله لقد عرفت إذ ذاك ما فى الدنيا من عذاب ، وما فى الحياة من فجيعة ومصاب ، وسرت فى نفسى مشاعر أولئك جميعا فى لحظات قلائل .. الحياة .. هذه هى المأساة القاسية ، والمهزلة المضحكة المبكية .. لقد عرفت ذلك كله وبلوته وأحسسته فى لحظة واحدة

الانتحار .. لعمر الله إنه آخر ذرة من القوة بقيت فى نفوس من لاقوة لهم .. بل هو أمل القانط ، وشجاعة المنهزم ، واستماتة اليائس المندحر ..وهو المخرج من الحياة ، والباب المفضى إلى العالم الآخر .. ألا حمدا لله وشكرا إذ هيأ لنا هذا السبيل ، وعلمنا الخروج من هذا الباب .. وأعطانا مفاتيح مغالقه ..بل إنها والله لرحمة من الطبيعة .. وهى القاسية لا ترحم ، ورأفة نادرة من لدنها . لأنها القاسية الجبارة لا ترأف ولا تحنو .

لقد قام فى خاطرى ساعة تصورت كل تلك المشاهد أن ميتات هؤلاء المساكين لم تكن إلا تضرعا إلى الإنسانية ، وابتهالا ورجاء وسؤالا لكى تدرك الحقيقة وتفهم الحياة أكثر مما فهمت ، وتحسن إلى القادمين تكفيرا عما أساءت إلى المنصرفين طواعية واختيارا . بل لقد أحسست كأنى أسمع أولئك الضحايا وهم ينادون الدنيا قائلين : لقد ضننتم علينا بالمعونة على الحياة ، ولم تحفلوا بعيشنا ولم تعبأوا بنا ونحن فيها شركاؤهم . لقد كنا نجوع ثم لا نجد منكم برا ، ونمرض ولا نصيب منكم رثاء ولا رحمة .. لقد كنا نتعذب فى صمت .. ونعانى ألم الحياة ..وما من متحنن ولا متحدب .

ولم أستطع استرسالا .. لقد وقفت حيال هذه الكلمات قبل أن أستتم ..وأنا مشدوه ، ولا أستطيع لها تصديقا .. وإذا بى أدرك أن تلك الكلمات لم تكن خيالا ، ولم تمثل فى خاطرى نجوى خفية وتصورا .. يا عجبا .. عجبا يذهب بكل عجب .. بل هو اتفاق مدهش ندر أن يقع لإنسان فى الدنيا مثيله . لقد كنت منذ أيام قليلة أفكر فى الانتحار وأسبابه وسره ، وهأنذا قد وقفت حيال بناء شاهق رحيب الجنبات .. قد كتبت هذه الكلمات على مدخله ..

« نادى الانتحار »

لبثت فى مكانى مبهوتا ، ولكنى تذكرت فى الحال أننا فى باريس مدينة العجائب ، وظننت أن ذلك قد يكون من محال اللهو الغريبة ، تستميل الأغنياء وتجذب أهل اللهو والبطالة بغرابة عنوانها ، ودنوت من البناء فإذا الخدم والغلمان فى البهو جلوس أمام غرفة المعاطف ..

وحفزني حافز الفضول فأجمعت النية على الدخول فدلفت إلى أحد الغلمان ، فثار مبتدرني بالسؤال عما أريد ، قلت : أى مكان هذا ؟ .. قال ذلك كل ما تريد أن تعرف ، هل من شيء آخر تريد ؟ قلت : ما معنى سؤالك هذا ؟ قال : أتريد أن تقابل السكرتير يا سيدى ؟ إنه هنا وعلى تمام استعداد لمقابلة كل إنسان يطلب الاستعلامات عن النادى ، قلت : سر بى إليه ..

فاجتاز بى الخادم عدة من الردهات والدهاليز فيها كهول وشيوخ قد انتظموا للحديث حلقات ، إلى أن وقف بى حيال حجرة صغيرة أنيقة رهيبة المشهد ، إذ كان كل أثاثها وفراشها بالسواد مجللا ، وبالحداد مكللا ، وثمة رجل بادن فى مقتبل العمر قد جلس إلى منضدة يكتب وفي يده سيجارة طويلة تشتعل ، فلما طلعت عليه نهض وتبادلنا التحية انحناء ، وما كاد الغلام يتوارى حتى ابتدرنى قائلا : أهلا بك وسهلا ، هل من خدمة ؟

قلت : اغفر لى تهجمي وفضولى ، فلقد أدهشنى ذاك العنوان المكتوب على بابها ، فهل لى أن أسأل ماذا يجرى بهذا المكان ؟

فابتسم وانثنى يقول بكل هدوء وبساطة :

– هنا يا سيدى يموت ويهلك من الناس من بدا له أن يموت ولذّ له أن يهلك . فكدت أثب من مقعدى دهشة إذ خشيت أن أكون قد ورطت نفسى مورط هلاك ، وأدخلت نفسى مدخل شؤم ، وقلت ماذا يدرينى ، لعل هذا مأوى فتاك وسفاحين وشاربى دماء يتورط فيه السذج البسطاء فيقتلون غيلة ، أو بحيلة وإغراء .

واستطرد السكرتير يقول فى رفق وسكينة :

– نعم نحن هنا نقتل الذين يشتهون الموت ويطلبونه ، نقتلهم بطريقة سهلة رفيقة لينة رقيقة . خذ بالك .. أنا لا أقول بطريقة ممتعة أو لذيذة إنما أقول بطريقة مناسبة لا بأس بها .

لشد ما أدهشنى أن يجرؤ أناس كأصحاب ذلك النادى فيقوموا بمشروع جليل كهذا أهم مميزاته تحرره من قيود الرجعية والجمود الذهنى ، وتخلصه من أصفاد الاصطلاحات الكاذبة والرسوم العتيقة البالية الممقوتة .

بل شد ما أدهشنى أن يقوم هذا المشروع فى عصر أنانية وجبن ، كل أهله يخافون الموت ويهابون الردى ، ولا يعرفون للحرية الصادقة معنى وإنما يعرفون الكذب والغش حتى فى الموت نفسه .

قلت للسكرتير الجليل :

– وكيف كان ذلك ؟ قال : لقد شهدنا حوادث الانتحار تزداد ازديادا مطردا سريعا ، فرأينا أن قد آن لنا أن نتخذ التدابير القاسية حيالها والإجراءات الفعالة الحاسمة . أجل يا سيدى ، لقد شاع الانتحار فى البلد وتفشى ، وراح الناس ينتحرون في الطرقات والشوارع ، وفى دور التمثيل والمقاصف والملاهى ، وفى الأسواق والفنادق وعربات السكك الحديدية والمحافل العامة وفى كل مكان ، حتى خفنا أن يصبح ذلك مثلا سيئا للأطفال ، شنيع الأثر فى نفوس الجيل الناشىء والحاضر كذلك ، فرأينا أن الضرورة تقضى بتركيز الانتحار ، أعنى بحصره فى نقطة واحدة لا يتعداها ، بمكان مستتر متوار بعيد عن الأنظار .

قلت للسكرتير :

– وهل ترون أن أولئك الساخطين على القدر ، الكارهين للحياة ، المتلهفين على الخلاص منها ، لهم الحق فى ذلك السخط والكره والتبرم ؟

قال السكرتير .

– بلا شك ، إن الأقدار تعامل الناس معاملة عضو البرلمان لناخبيه ... أعنى تخدعهم وتكذب عليهم .. وهم لا يستطيعون تغيير النائب عنهم .قلت له : مفهوم .

قال لى : لا أقول ذلك لأنى ساخط على القدر ، بل إنى بحمد الله راض مغتبط ، وفى وسعى أن أخوض معك فى الحديث وأتبحر وأشرح لك ما خفى عليك إذا شئت أن تكون عضوا معنا ، لأن هذا المكان ناد كسائر الأندية ، وقد أسسه نفر من عيون البلد وسراته .

قلت له : شيء عجيب .

قال : ولتعلمن يا صاحبى أننا هنا فى غاية السرور واللذة .

قلت : شيء عجيب ، وكيف كان ذلك ؟

قال : هذا شيء واضح .. إن جميع أعضاء هذا النادى ناس ممن لا يخافون الموت ، ومخافة الموت وحدها هادمة اللذات ومبيدة المسرات .

قلت له : وكيف يكونون أعضاء ثم تراهم لا ينتحرون ؟

قال : يجوز للإنسان أن يكون عضوا بالنادى دون أن يكون ثمة ضرورة تجبره على الانتحار .

قلت له : هذا شيء لا أفهمه .

قال لى : إن نادينا هذا معهد إنسانى يقوم على أساس الرحمة الإنسانية ، ومؤسسه هو الجنرال « بولنجيه » ، ولقد كان الناس يخافون هذا النادى فى أول الأمر ولا يجرءون على الاقتراب منه ، ولكن المؤسس أقام حفلة باهرة لافتتاحه حضرتها الممثلة المشهورة « سارة » فمثلت فيها إحدى رواياتها الشائعة ، ولدينا يا سيدى جناح خاص بالسيدات أيضا .

قلت له : وهل تكثر الانتحارات هنا ؟

قال – يبلغ عددها من أربعين إلى خمسين يوميا ، وأكثرها من الطبقات الفقيرة ، ومن المتوسطة أيضا كثيرون .

قلت – وكيف تجرى عملية الانتحار ؟

قال – فى غاية البساطة ...بالاختناق .

قلت – وهل عندكم طريقة خاصة ؟

– نعم طريقة ابتكرناها ولا يمكن تقليدها ، لأننا سجلناها تسجيلا رسميا .

– ومن أين للنادى بالأموال ؟

– إن مالية النادى حسنة ، لأن قيمة الاشتراك عالية ، وقد قررنا رسما قدره أربعون جنيها نجبيه من المنتحر إذا كان غنيا ، أما الفقراء فمجانا ..

– وكيف تعرفون الفقير من الغنى ؟

– بالتجربة .. وللأعضاء الفقراء جناحهم الخاص بهم ، ولكن مشهدهم مؤلم للزائرين .. إن الغرف المعدة لهم بالطبع حسنة ، ولا تقل عن هذه رياشا ، ولكن

منظرهم هو الأليم الشنيع ، ولو رأيتهم وهم يجيئون إلينا لرثيت لهم .. إنهم يجيئون جياعاً خماصا فى أطمار وأسمال ، وقد بلغ فيهم اليأس من الحياة مبلغا .. لقد كانوا شاردين ضالين كالكلاب الجائعة حتى أسلمهم اليأس إلينا فجاءوا يبتغون الموت طائعين ... ولقد بكيت والله لهم حتى كاد قلبى ينفطر من الحزن لمرآهم ، ولاسيما أولئك الذين يجيئون إلينا فلا يقولون شيئا وإنما يتلهفون على الموت فى الحال قائلين « أين هو ؟ عجلوا بنا ناشدناكم الله » وهؤلاء بالطبع لانمهلهم .

قلت وقد دق فؤادى : أين جناحهم ؟ ؟ ففتح بابا وهو يقول : هنا تفضل . هذه هى غرفة الأعضاء الأغنياء ، والعمل هنا هين بسيط لأننا فى الواقع لم ننفذ أكثر من أحدى عشرة قتلة .

فترددت ..ولكنى أخيرا تقدمت ، فإذا نحن فى ردهة فخمة مؤثثة ، ذات نوافذ زجاجية مختلفة الألوان ، وقد صفت فيها الأرائك والمناضد والمكاتب وأصص الأزهار .

وقال : وليلا هنا يجئ الأعضاء إلى سمر ، ويحبون مطارحة الأحاديث ...والغرف الأخرى مثل هذه ولكنها أقل منها رياشا .

قلت .. ولكن أين ... الجهاز ؟ فأشار إلى كرسى مستطيل مغطى بملاءة بيضاء من الحرير المطرز المزركش ، وقد وضع المقعد بجانب شجيرة شديدة العطر والشذى .

قال : وطريقنا أن نخلط الغاز الخانق بالعطر الذى يفضله المنتحر على غيره من أنواع العطور ، حتى لايكاد يحس تأثيره ، بل يلذه ولا يجد له ألما ...أتحب أن تنشق قليلا منه ولو ثانية واحدة ؟ قلت معاجلا : كلا وشكرا .. لم يحن ذلك بعد .

فضحك قائلا : لا خطر من ذلك ألبتة ، وقد جربته أنا نفسى عدة مرات .

قلت : ليكن ذلك إذن لأرى ما تأثيره .

وقال : ارقد على هذه الأريكة التى نسميها مرقد الأحلام .

فاستلقيت على المتكأ المستطيل ، وفى النفس بعض الاضطراب ، وما كدت أفعل ، حتى هب على أنفى ريح الزئبق فغمرتنى من كل مكان ، ففتحت فمى لأنشق مليا .. وما هى هنيهة حتى شعرت بتخدير فى حواسى يتسلل فى رفق ..وهو تخدير أعذب وأبدع من أى أفيون أو حشيش ، فاستسلمت له .. وما لبثت أن أحسست يدا تهزنى من ذراعى ، وسمعت السكرتير يخاطبنى ضاحكا وهو يقول : أراك قد جعلت تتلذذ به يا سيدى ، وهنا الخطر فانهض .

واستيقظت على صوت آخر وهو صوت حارس أملاكى .

ورأيته قد صر عن رأسه محييا ، قال طاب صباحك يا سيدى . قلت : طاب صباحك يا « مارثيبل » إلى أين ؟ قال : للاستفسار عن رجل وجد اليوم غريقا فى النهر ، لقد كثرت حوادث الانتحار يا سيدى فى هذه الأيام كثرة مرعبة ، عجبى لهؤلاء الأشقياء !

لست أدرى ، ترى الفرق مؤلما .. ؟ ؟

وإذا ذاك تمثلت المتكأ وتذكرت المنام ومرقد الأحلام ، فما زدت على أن هززت رأسى مثله عجبا ... ولم أحر جوابا ..

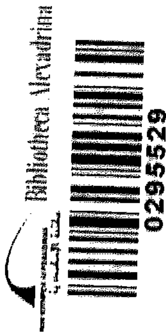
فهـــرس

رقم ايداع ٣٨١٤ / ٩٤

L.S.B.N : ٩٧٧ - ١١ - ٥٨٥٦ - ٥

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة



الثمن ٣٠٠ قرش

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه